



دار محمد لصياح

دراسة

د

البوسنة والهرسك

د . جمال الدين سيد محمد



احاديث
التوى



Bibliotheca Alexandrina

0035484



949.742

مجلد ۳

ب

البوسنة والهرسك

1811

المهنة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التخصيص : 949-742
رقم التسجيل : ١٨١١

د

دراسة

البوسنة والهرسك

د . جمال الدين سيد محمد



دار سعاد الصباح

رقم الإيلاع : ١٠٤٠١ / ١٩٩٢
I.S.B.N. 977-5344-51-4

الطبعة الأولى ١٩٩٢
جميع الحقوق محفوظة ©

دار سعاد الصباح

ص.ب : ٢٧٢٨٠

الصفاء ١٣١٣٣ - الكويت

القاهرة - ص.ب: ١٣ المقطم

٣٤٩١٧٢٧

تليفون : ٣٤٩٧٧٧٩

٧٠٩٥٨٣

٧٠٩٥٦٣

فاكس : ٥٠٦١٠٣٠

الإشراف الفني : حلمى التونى

تقديم

مضت شهور كاملة وجمهورية البوسنة والهرسك تعاني من القصف والدمار والاغتصاب والذبح ، ومرت شهور عديدة والنازيون ينظرون في استحياء لما يفعله تلاميذهم الذين تفوقوا عليهم في بربريتهم ووحشيتهم ولجرامهم وأساليبهم في الإبادة والتطهير العرقي . وانقضت شهور كثيرة وما زال سجل العار في البوسنة والهرسك مفتوحاً يسجل كل ما يقع على أرضها بهدف طمس كل ما له صلة بالهوية الإسلامية وذلك عن طريق تدمير مساجدها ومكتباتها وآثارها الإسلامية الأخرى بينما العالم المتحضر يغض الطرف عن عاره ويجتر خزيه ويتعمد السكوت على فضيخته والتظاهر بالعجز .

وكان التاريخ بعيد نفسه - وباليته ما أعاد نفسه - لكي يذكرنا بأن هؤلاء المسلمين يعيشون في جحيم شبه متواصل منذ ما يقرب من قرن ونصف القرن ، ولم يذوقوا خلال هذه الحقبة سوى المذلة والمهانة ولم يهنأوا بأى طعم للحياة رغم أنهم يعيشون في قلب أوروبا المتحضرة .

والوقت يمضى ثقيلاً عسيراً وتصدر عن مجلس الأمن والأمم المتحدة قرارات تلو القرارات ، والمباحثات تعقب المباحثات ، والنظام العالمي الجديد الناجح في امتحان الكويت رسب رسوباً سياسياً وأخلاقياً وديمقراطياً مدوياً في امتحان البوسنة والهرسك ، والأحلام الديمقراطية تنهار ، وحكايات حقوق الإنسان تذهب أدراج الرياح ، ويظهر العجز الأوروبي الذريع ويتجلى الصمت الأمريكى المريع .

وكل هذا يتقاطع ويتداخل ويتصادم والبوسنة لا تزال مكبلة بأغلال الأسر ، قابضة تحت ضغط الحديد ولهيب النار تنتظر حلا عاجز أهل الأرض عن تقديمه ولذا فلا يسعها إلا أن تنتظر معجزة تهبط عليها من السماء .

ولم يكن باستطاعتي أن أرى ما يحدث على أرض البوسنة والهرسك دون أن أمسك بقلمى لكى أسجل به بعض المعلومات وأذكر به ببعض الحقائق ، ولكى أركز - كأى إنسان على وجه هذا الكوكب - على معارضتى الشديدة لزاء كل ما يحدث فيها من قتل للأبرياء وطرد للمدنيين وتطهير عرقى بكل ما يحمله هذا التعبير من تقزز ويشاعة وعنصرية ونحن على أعتاب القرن الحادى والعشرين . وأشدد به على أن أفراد هذا الشعب لا ذنب لهم سوى أن القدر كتب عليهم أن يولدوا ويعيشوا فى هذه البقعة المتميزة من وسط أوروبا الشرقية ، ولم يكن لهم من جريرة إلا أنهم جعلوا من بلدهم بوتقة للإسلام والتسامح والمحبة بين القوميات المتعددة والديانات السماوية الثلاث .

أضف إلى ذلك أننى زرت مدينة سرايفو وبعض مدن البوسنة والهرسك أكثر من مرة ، وكانت كلها زيارات عمل وبحث ودراسة ولا أحمل منها وعنها إلا أجمل الذكريات وأحلى الانطباعات ولى بها عدد كبير من المعارف والأصدقاء الذين لا أعلم مصيرهم حتى الآن ، ومن هنا كان الألم كبيراً والحزن عميقاً بسبب كل ما يحدث فى هذه المنطقة الحبيبة لى قلبى ونفسى .

ومن هنا نبعت ولهذا السبب جاءت فكرة إعداد هذا الكتاب ، ولم أقصد به أن أدافع عن قضية شعب البوسنة والهرسك وحقه فى الحياة الحرة الكريمة كأى شعب آخر على وجه هذه البسيطة ، بغض

النظر عن جنسيتهم أو قوميتهم أو ديانتهم فهذه مهمة هناك من يحسنون القيام بها أفضل منى .

وغاية ما أهدف إليه بهذا الكتاب أن أنقذ ملف مسلمى البوسنة والهرسك من الضياع فى خضم الأحداث السياسية المتلاحقة ، وأن أسجل بعض ملامح تلك السمات الإسلامية التى أراد البعض عن عمد محوها ، كما أود أن أسجل لقطات سريعة لبعض المدن التى جرى تسويتها بالأرض فى هذه البقعة من العالم ولبعض الآثار الإسلامية الثرية من مساجد ومكتبات ومدارس إسلامية وأبراج للساعات وحمامات عمومية وغيرها من الأوقاف الخيرية . وأريد به أيضاً أن أبرز النشأة الإسلامية التى تتنوع من أعمال أدباء هذه الجمهورية وأن أدمج الهوية الإسلامية للأغلبية من هذا الشعب .

ويتحتم على أن أنوه على الفور إلى أن هذا الكتاب لم يكن - وليس بإمكانه - أن يعطى لحضارة البوسنة والهرسك وثقافتها وأدبها التميز وشعبها الفريد ومجتمعها المتسامح حقّه من العرض والتفصيل على صفحات هذا الكتاب .

والكتاب الذى يشرف بأن يكون بين أيديكم يضم دراسات وأبحاث تستهدف ببساطة شديدة التعريف بهذه الجمهورية الوليدة عن طريق عرض غاية فى الإيجاز لبعض الجوانب التاريخية والحضارية والدينية واللغوية والثقافية والأدبية .

وقد بدأنه ببطاقة تعارف تحوى المعلومات الأساسية بهذه الجمهورية ثم نبذة عن تاريخها . وليس بخاف على أحد أن الجانب التاريخى هنا غاية فى الأهمية إذ بدونه - فيما أعتقد - يستحيل على أى قارئ أن يستبين جوهر القضية وعناصرها الأساسية المتشعبة ، وأنبعثه بعرض لتطور الأحداث التى أوصلت الأزمة إلى

طريقها المسدود ، وأعقبنا ذلك عرضاً لموقف مصر المشرف من هذه الأزمة على جميع الجبهات .

وفى الدراسات المتعلقة ببعض الجوانب الحضارية والدينية واللغوية يتجلى تأثير الإسلام عليها جميعها بشكل يلفت الأنظار ويبحث على التأمل والتفكير ، كما أنني على يقين بأن كثيراً من المعلومات الواردة بهذه الدراسات ستصحح كثيراً من المفاهيم والآراء السائدة لدى عديد من القراء .

وعلى صفحات كتابي هذا حظي الحديث عن الأدب والثقافة بجانب لا بأس به من اهتمامي ، وهذا لاعتقادي بأن الأدب يمثل سجلاً وافياً لما كانت عليه عادات وتقاليد أية أمة وما خلفته من آثار فنية ، كما أن الأعمال الأدبية تعد سجلاً للأحداث السياسية التي مرت على شعب من الشعوب ، ومن هنا فهي أفضل معبر عن التطورات الاجتماعية السائدة لدى أفراد هذا الشعب .

ويمكنني أن أجزم بأن أدب البوسنة والهرسك معروف جيد المعرفة بالنسبة للقارئ العربي . ودليلي على ذلك أن عدداً كبيراً من القراء عندنا يعرفون الأديب ليفو أندريتش الحاصل على جائزة نوبل للأدب في عام ١٩٦١ ، ولكنهم ربما يجهلون أنه مولود بجمهورية البوسنة والهرسك وأن أغلب أعماله الأدبية تتحدث عن هذه المنطقة وعن أهلها ، بيد أن البعض قد يعتب عليّ بسبب تحدثي عن أندريتش وأعماله الأدبية وهو يلقى في الوقت الحالي انتقادات شديدة نتيجة لبعض مواقفه ورواياته . ولكني دوماً مع الرأي والرأي الآخر ولذا عرضت لكلا الرأيين هادفاً بذلك إلى تحقيق أكبر قدر من الموضوعية في أبحاثي هذه .

ولم يفتنى أن أتعرض أيضاً لأولئك الأدباء الذين تركوا بصمة
لا تمحى على الأدب البوسنى منذ نشأته وحتى وقتنا هذا .

وليس لى من رجاء إلا أن يجعل الله هذا الكتاب خالصاً له ومقبولاً
عنده قلم أقصد به إلا وجهه الكريم .

والحمد لله من قبل ومن بعد ..

د. جمال الدين سيد محمد

القاهرة فى ١١/٢٥/١٩٩٢

بطاقة تعارف

اسم جمهورية البوسنة والهرسك مؤلف من كلمتين ، كلمة البوسنة وهي نسبة إلى نهر البوسنة الذى يبلغ طوله حوالى ٢٧٣ كيلومتراً وله فروع يبلغ طولها ١٠٤٨٠ كيلومتراً . واسم نهر البوسنة مستخرج من الصيغة الايليرية « بوسينوم » أو من أساس الكلمة « بوس » التى تعنى الماء الجارى . أما كلمة الهرسك فقد ظهرت فى القرن الخامس عشر ، وهي محرفة من كلمة « هرتزوج » ومعناها « الدوق » نسبة إلى الدوق ستيفان فوكتشيتش كرساتش (فى حوالى عام ١٤٤٨) الذى حكم هذه المنطقة كتابع للامبراطورية النمساوية .

وتبلغ مساحة البوسنة والهرسك ٥١,٣٠٠ كيلو متر مربع ، وهي تتوسط أراضى الاتحاد اليوغسلافى السابق ، فمن الشمال والغرب تحدها كرواتيا ، ومن الشرق صربيا ، ومن الجنوب الجبل الأسود .

ويعيش بالبوسنة والهرسك حوالى أربعة ملايين ونصف منهم ٤٤٪ من قومية المسلمين و ٣١٪ من الصرب و ١٧٪ من الكروات و ٨٪ من القوميات الأخرى ، ولا تجمع هذه الجمهورية قومية واحدة وإنما تتشكل من عدة مجموعات بشرية متباينة تمثل خليطاً بشرياً عرقياً غاية فى التعقيد .

واللغة السائدة فى هذه الجمهورية اللغة الصربو كرواتية أو الكرواتو صربية بلهجتها الشتوكافسكية وينطقها الايكافسكى ، واللغة هنا - كما سنوضح فيما بعد - حافلة بالكلمات العربية والتركية والفارسية التى جلبها الأتراك العثمانيون معهم ورسخوها خلال فترة وجودهم بهذه

المنطقة وهذا يعكس توطد علاقات البومنة بثقافة الشرق على الصعيدين المادى والروحي منذ قرون عدة .

والإنتاج الزراعى متنوع يبدأ من زراعة محاصيل منطقة البحر الأبيض المتوسط وحتى زراعات سلسلة جبال الألب ، ومن أهم المنتجات الدخان والقمح والفواكه وخاصة العنب والتفاح . والصناعة لها دور مهم فى الدخل القومى فى البومنة والهرمسك ، ومنها الصناعات الألكترونية والتحويلية والتعدين وخاصة الحديد والصلب والمعادن النفيسة .

وكانت السياحة مصدراً مهماً من مصادر الدخل فكان يزور البومنة والهرمسك نحو ثلاثة ملايين زائر سنوياً يقضون فى فنادقها ومنتجعاتها خمسة ملايين ليلة سنوياً . ومن أبرز المزارات المناطق الأثرية ومناطق سباحة التزلج بسبب شهرة مراكفو منذ أن استضافت دورة الألعاب الأولمبية فى عام ١٩٨٤ .

نبذة تاريخية وتطور الأحداث

تدل الاكتشافات الأثرية فى البوسنة والهرسك على أن الناس قد سكنوا هذه المنطقة منذ أزمان بعيدة تعود إلى فترات ما قبل التاريخ وإلى العصر الحجري القديم . وتفيد أول المصادر المدونة أنه استوطنت هذه المنطقة قبائل الاليلير التى تعود حضارتها إلى العصر الحديدي المبكر والوسيط .

وقد توغل الكلت فى هذه المنطقة فى القرن الرابع الميلادى وحملوا معهم حضارة العصر الحديدي الحديث . ويشهد القرن الثالث قبل الميلاد بداية الغزو الرومانى لشبه جزيرة البلقان . وظلت البوسنة خاضعة للرومان منذ ذلك الحين وحتى القرن الرابع الميلادى .

ومع حلول النصف الثانى من القرن السادس الميلادى بدأ السلاف فى الهجرة تدريجياً إلى منطقة شبه جزيرة البلقان ، واستوطنوا هذه المنطقة واستقروا فيها بشكل نهائى فى أوائل القرن السابع . وهنا لا بد وأن ننوه إلى نقطة مهمة سبق أن أبرزناها فى دراسات سابقة لنا . فقد قام البيزنطيون وهم المسيطرون على كل شبه جزيرة البلقان بتهجير جزء من السلاف الخاضعين لهم وتجنيدهم وبذلك تدفق دم جديد فى شرايين الجيش البيزنطى الذى دخل آنذاك فى معارك مريرة مع العرب المسلمين . وتحول السلاف إلى قوات تحارب العرب وترد هجماتهم المتكررة . وجرت على الحدود بين الدولة الإسلامية وبين الامبراطورية البيزنطية حروب استمرت ما يقرب من ثمانية قرون اشترك فيها السلاف فى صف البيزنطيين وفى صف المسلمين العرب أيضاً .

وفى أواخر القرن الحادى عشر فقط بدأ فى البوسنة لرساء العناصر الأساسية لتنظيم الدولة والسلطة . ومن المعتقد أن الحاكم كولين هو مؤسس الدولة البوسنية وهو الذى أرمى دعائمها فى القرون الوسطى . وتدل اتفاقية كولين المبرمة مع دوبروفنيك فى عام ١١٨٩ على وجود دولة البوسنة بالفعل آنذاك .

وفى ذلك الحين برزت ظاهرة دينية متميزة وهى حركة البوجوميلية التى جرى تنظيمها فى الكنيسة البوسنية وصارت عقيدة سائدة . وتعتبر ظاهرة البوجوميلية شكلاً فريداً من أشكال النضال ضد الكنيسة الكاثوليكية ، ومنذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر هدنت هذه الظاهرة المصالح الاقتصادية للشعب وكذلك للحاكمين الاقطاعيين . ومنذ نشوء ظاهرة البوجوميلية فى عام ١١٩٩ تقريباً عامل نبلاء روما منطقة البوسنة على أنها بلد منشق وشنوا عليها حرباً صليبية هدنت استقلالها وأعادت تطورها . ومع تطور منطقة البوسنة تطورت فى أوائل العصور الوسطى بلاد « الهوم » أو « زاهوملى » التى عرفت فيما بعد باسم الهرميك .

وأصبحت البوسنة واحدة من أكبر الدول على أرض السلاف فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر عندما ترأس الدولة الحاكم تغرتكو الأول كوترومانيتش (١٣٥٣ - ١٣٩١) الذى أطلق عليه لقب ملك راشكا والبوسنة ودالماسيا وكرواتيا والسواحل . وبعد موته حلت بالبوسنة فترة ضعف فيها الحكم الملكى واستقل كبار الاقطاعيين الذين تصارعوا فيما بينهم من أجل الاستحواذ على مزيد من الأراضى والنفوذ والسلطة .

وفى عهد الحاكم البومنى الأخير ستيبان توماشيفيتش استولى الأتراك العثمانيون فى عام ١٤٦٣ على البوسنة التى كانت قد مزقتها الصراعات الداخلية وأوهنتها الحروب الدينية ، وفى عام ١٤٨٢ استولوا على الهرميك .

ومع الحكم العثماني للبوسنة بدأ انتشار الإسلام انتشاراً مكثفاً وأخذت تأثيرات الحضارة الإسلامية والشرقية في التوغل والتعمق . وامتدت فترة الحكم العثماني قرابة خمسة قرون حتى نشوب حرب البلقان في عام ١٩١٢ . وقد أصبح في حكم المؤكد أنه قد حدث تعميم متعمد فيما يتعلق بموضوع الاعتناق الجماعي الاختياري للإسلام بين سكان البوسنة والهرسك في ظل الحكم العثماني . ومن هنا فما زالت غير معروفة تمام المعرفة الأسباب الموضوعية الكامنة وراء هذه الظاهرة . إلا أن الأبحاث والدراسات التي أجريت حتى الآن تفيد بأن هذا يرجع في المقام الأول إلى الاضطهادات الدينية التي كان يعاني منها أهل البوسنة بسبب اعتناقهم لمذهب البوجوميلية الذي يخالف مذهب كنيسة روما . هذا علاوة على أن نبلاء البوسنة وجدوا أن اعتناق الإسلام يضمن لهم الاحتفاظ بامتيازاتهم ، الأمر الذي دفع أتباعهم إلى اعتناق الدين نفسه .

ومن ناحية أخرى أنشأ الأتراك العثمانيون منناً جديدة سرعان ما تحولت إلى مراكز للصناعات والحرف على أنقاض الأسواق القديمة أو إلى مراكز دفاعية أو إلى مقر لأجهزة الحكم والإدارة ، وأصبحت كذلك تدريجياً مراكز للفكر والثقافة الإسلامية بعد أن أقيمت بها المساجد والمدارس والتكايا واذنكبات . وهذه المدن الجديدة أو المراكز جذبت إليها أعداداً من المهاجرين الذين لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام .

وعلاوة على هذه الجوانب الإيجابية فلم تخل فترة الحكم العثماني وخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من مقاومة بعض أهل البلاد وثورتهم وانتفاضتهم . فقد اتسمت الأحوال في البوسنة والهرسك في بداية القرن التاسع عشر بزيادة حدة التناقضات الاجتماعية والسياسية والدينية الناجمة عن الإصلاحات الجديدة التي معى السلطان العثماني سليم الثالث إلى إجرائها في جميع أنحاء الامبراطورية . ولاقت هذه المحاولات للإصلاح قبولاً طيباً من جانب الطبقات الاجتماعية المتميزة ، وفسرها

أفراد الشعب من الإقطاعيين والمسلمين على أنها تنازلات مقدمة إلى غير المسلمين من الرعية .

وقامت حركة تمرد بقيادة حسين قبطان جراد شتشفيتش الذى اختير ممثلاً للبكوات فى عام ١٨٣١ ونجح فى هزيمة جيش السلطان ، إلا أنه سرعان ما ظهر جيش جديد للسلطان وتمت هزيمة حسين بك وقواته فى عام ١٨٣٢ . وحدثت حركة مقاومة أخرى فى عام ١٨٥٠ وتم القضاء عليها بقيادة عمر باشا لاتاس .

وفى النص الثانى من القرن التاسع عشر ازداد سحق الفلاحين على السلطات العثمانية بسبب مشاكل الزراعة واستمرار السخرة ، وقاموا بعدة فلاح . وفى عام ١٨٧٥ نشبت ثورة عارمة بدأت فى الهرسك ثم امتدت إلى المناطق المتاخمة فى البوسنة وبلغاريا ، وتضامنت صربيا معها إلا أن القوات العثمانية تمكنت من إخماد الثورة فى بلغاريا ومن هزيمة صربيا .

وفى مؤتمر برلين فى عام ١٨٧٨ صدر قرار بإعطاء البوسنة والهرسك إلى النمسا لإدارتها باسم السلطان العثمانى . وفى عام ١٩٠٨ قررت النمسا ضم الإقليم إلى امبراطوريتها متعددة الجنسيات والقوميات . ومنذ البداية أعرب الجزء الأكبر من شعب البوسنة والهرسك عن رفضه وعدائه الصريح للاحتلال النمساوى المجرى ولم تنقطع عمليات التمرد والاختطاف والمذبحة .

ويمثل احتلال البوسنة والهرسك نقطة تحول فى تطورها الاقتصادية ، وذلك لأنها تحولت إلى الاقتصاد الرأسمالى الذى لا يمكن تصوره بدون وسائل ومواصلات جديدة ولذا فلن سلطات الاحتلال كرس اهتماماً خاصاً بإقامة خطوط للسكك الحديدية وشبكة كاملة للمواصلات تربط بين المناجم والمصانع وتشبيد الطرق . وتم البدء فى تطوير تلك

الفروع الصناعية التي تسمح بالرواج المثمر لرؤوس الأموال النمساوية . وأحدثت هذه التحولات الاقتصادية الهائلة تغيرات مهمة في المجتمع مما أدى إلى تغير هيكله . وكانت سلطات الاحتلال تحمي مصالحها الرأسمالية وتمنع البوسنيين من تطوير صناعاتهم المحلية والاشتراك في استغلال الثروات الطبيعية للبلاد .

وأشعر انتصار صربيا في حروب البلقان (١٩١٢ - ١٩١٣) الامبراطورية النمساوية بالآخطار القادمة نظرا للتغيرات التاريخية الضخمة التي أحدثتها هذه الحروب في شبه جزيرة البلقان ونظراً لتزايد الوعي القومي . وأدى هذا إلى زيادة نشاط الحركات الوطنية المطالبة بطرد النمسا من البلقان ، وكثفت الجمعيات السرية في البوسنة والهرسك من أعمالها الموجهة ضد النمسا .

وقد ظهرت آنذاك حركة « بوسنة الفتاة » وهي حركة ثورية من الشباب تطبق أساليب جديدة في النضال من أجل التحرر القومي ومن أجل الوحدة مع صربيا ولا تستخدم إلا أسلوب الإغتيالات . واشترك كثير من أتباع هذه الحركة في الحروب البلقانية . وفي يونيو عام ١٩١٤ تمكن أحد أبناء البوسنة المنتمين إلى هذه الحركة من إغتيال ولي العهد النمساوي خلال زيارته الرسمية لسرايفو عاصمة البوسنة . وكانت هذه هي الشرارة التي أشعلت الحرب العالمية الأولى وانتهت بانتهاء الامبراطورية النمساوية المجرية وقام على أنقاضها عدد من الدول القومية .

وفي عام ١٩١٨ دخلت البوسنة والهرسك في تشكيل مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين . ومن الملاحظ أنه لم ينكر اسم البوسنيين أو المسلمين في اسم هذه الدولة الجديدة . ولم يكن هذا الأمر مصادفة وإنما كان عن عمد ذلك لأن الشعوب الأماسية المكونة لهذه الدولة لم تتشأن أن تتعرف بالبوسنيين وإنما تعتبرهم من المسلمين الصرب أو الكروات دون الاعتراف بشخصيتهم المتميزة وهويتهم البوسنية .

وفى عام ١٩٢٩ اتخذت هذه الدولة لها اسم يوغسلافيا ، أى وطن السلاف الجنوبيين . وسرعان ما كشفت الطموحات الصربية السابقة فى إقامة دولة صربيا الكبرى التى تجمع كل العناصر السلافية الجنوبية . وفرض الصرب فى هذه الدولة الجديدة سيطرتهم المطلقة على بقية القوميات الأمر الذى أدى إلى ظهور حركات مناهضة للصرب بين الكروات والمسلمين وغيرهم من القوميات . وبعد إغتيال ألكسندر ملك يوغسلافيا غرقت البلاد فى صراعات عرقية لاقى فيها مسلمو البوسنة الكثير من العنف والمعاناة . وظلت هذه الصراعات مستمرة حتى غزو الألمان ليوغسلافيا فى أبريل من عام ١٩٤١ .

وباستسلام يوغسلافيا فى هذه الحرب وقع شعب البوسنة والهرسك تحت الاحتلال الألمانى والإيطالى . ثم دخلت البوسنة ، بموافقة المحتل الألمانى فى إطار دولة كرواتيا المستقلة . وسرعان ما بدأت أعمال الإرهاب والمطاردات والسجن الجماعى والقتل ضد المسلمين . وأبدى سكان البوسنة مقاومة ضد هذه الأعمال الإجرامية . وبدأت حرب التحرير الشعبية بقيادة الحزب الشيوعى اليوغسلافى الذى جمع تحت لوائه ، بزعامة يوسيب بروز تيتو ، جماعات وقوميات وشعوباً ذات إنتماءات مختلفة تحمل شعار طرد المحتل وفرض العدل والمساواة العرقية وترفع شعار الأخوة والوحدة . وفى عام ١٩٤٥ تم تشكيل أول حكومة مستقلة للبوسنة والهرسك فى إطار يوغسلافيا الاتحادية .

ورغم المعاناة الأليمة التى تعرض لها مسلمو البوسنة والهرسك خلال الحرب العالمية الثانية وفى أثناء حرب التحرير الشعبية اليوغسلافية ، ورغم تأييدهم للرئيس تيتو إبان حرب التحرير تطلعا منهم للإعتراف بكيانهم وهويتهم ، إلا أن تيتو لم يف بوعوده وصادر جميع أوقافهم الخيرية وأملكهم واعد إلى تفتيت وجودهم فى البوسنة عن طريق توطين قوميات أخرى معهم ، وإلى حرمانهم من حقوقهم بل

وتعرض كثير منهم للاضطهاد والقمع والمطاردة ولحظر نشاطهم ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية . كما تعرض مفكروهم وعلمائهم للسجن والاعتقال بدون مبرر . ولم يعترف تيتو بطائفة المسلمين إلا من أجل الحصول على البترول الإسلامي ومعونات الدول العربية والإسلامية .

وقد تألفت دولة يوغسلافيا الاتحادية من شعوب وقوميات وجماعات عرقية صغيرة تتباين في ديانتها ولغتها وحضارتها وعاداتها وتقاليدها وتفتقد في أساسها لأى مقومات للوحدة والتماسك . ولم تتحد إلا من أجل التصدى للاحتلال الألماني والكفاح من أجل الاستقلال . وكان هذا التباين اليوغسلافى يمثل في حينه ثروة كبيرة . وكان الحكام الشيوعيون في عهد تيتو يتباهون بهذا التنوع والتعدد لتراثهم الحضارى والثقافى والأدبى ، خاصة وأن القبضة الحديدية لتيتو بحكم زعامته لهذه الشعوب في فترة تحريرها الوطنى حاولت أن تصهر ، باللين وفي أحيان كثيرة بالعنف ، كل هذه القوميات والديانات والثقافات المختلفة في بوتقة الحزب الشيوعى وأن تحافظ على توحدها .

ورغم المساواة النسبية بين هذه الشعوب والقوميات في معظم الحقوق السياسية والاجتماعية إلا أن مستويات المعيشة ظلت دوماً على قدر كبير من التفاوت بين جمهوريات الشمال الكاثوليكي الغنى اقتصادياً والمتحرر فكرياً بحكم قربه من دول غرب أوروبا وبين جمهوريات الشرق الأرثوذكسى والجنوب الإسلامى الأشد فقراً . وكانت هذه الفوارق الاقتصادية والاجتماعية أرضاً خصبة لبروز النعرات الانفصالية والخلافات القومية .

وكانت النتيجة الطبيعية لغياب القبضة الحديدية لزعامة تيتو التاريخية وللتفاوت الاقتصادى بين الشعوب اليوغسلافية أن تحول هذا التعدد القومى والتباين الثرى إلى غير صالح اليوغسلاف فانطلقت

النفرات القومية الكامنة وسادت لأسباب واهية غير منطقية المشاعر العدائية بين الشعوب والقوميات وأتباع الديانات المختلفة والجماعات العرقية المتباينة الأمر الذى عجل بظهور شروخ فى البناء اليوغسلافى .

وتعرض النظام السياسى فى يوغسلافيا لتطور كبير فقد تم الأخذ بنظام التعددية الحزبية . وكانت هذه فرصة ذهبية لمسلمى البوسنة والهرسك ، الذين يمثلون الأغلبية فيها ، لأن يؤكدوا هويتهم . وفى الانتخابات الحرة التى جرت فى عام ١٩٩٠ فاز حزب العمل الديمقراطى (الحزب الذى يمثل المسلمين) بأكبر عدد من مقاعد البرلمان وتم انتخاب على عزت بيجوفيتش لمنصب رئيس الجمهورية فى حين تم تقسيم المواقع السياسية الهامة الأخرى وفقاً للتوزيع السكانى بين المسلمين والصرب والكروات .

ويمكن القول بأن حزب العمل الديمقراطى الإسلامى هو أول تنظيم سياسى إسلامى فى أوروبا كلها فى الحقبة الأخيرة ، ويرأسه على عزت بيجوفيتش الذى كتب عدداً من الكتب عن الإسلام وتعرض فى أثناء العهد الشيوعى للطرد من عمله بسبب مؤلفاته وسجن عدة سنوات . وهو يؤمن بالاختيار الديمقراطى الذى جاء به لصدارة الحكم وصعد بحزبه إلى مواقع الأغلبية . وهو يمارس نفس الدرجة من الديمقراطية فى إدارة الأحداث ، ولم يلجأ إلى إثارة عواطف الناس وحماسهم كما يفعل الآخرون ، وكثف من اتصالاته بالغرب لكى ينفى عن بلده تهمة السعى إلى إقامة جمهورية أصولية فى أوروبا . فقام بزيارة ليطاليا واليونان وألمانيا كما التقى ببابا الفاتيكان وزار الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من البلدان .

وبصعود حزب العمل الديمقراطى إلى الحكم ممثلاً للمسلمين انتهت الفترة التاريخية التى كان يرمز خلالها بالحرف M لتمييز مسلمى البوسنة والهرسك كشعب وقومية عن غيرهم فى يوغسلافيا ، بينما يرمز إلى

غيرهم من المسلمين عبر الصحف ووسائل الإعلام الأخرى بالحرف m مصغراً طيلة فترة حكم الشيوعيين اليوغسلاف . وأعلنت الحكومة البوسنية ذلك صراحة بأنها لا تفرق بين معتنقى الدين الإسلامى فيها وبين المسلمين المنحدرين من أصول عرقية سلافية أو ألبانية أو تركية أو غيرها .

وكان الهدف من هذا الإعلان هو التأكيد على أن القومية المسلمة أو الشعب المسلم وغيرها من العبارات التى استخدمت فى الماضى لا تتضمن تلك المعانى التى تحملها مثل هذه العبارات فى الأماكن الأخرى من العالم الإسلامى . إذ لا تتضمن أى معنى أيديولوجى أو سياسى بل هو تعبير يختزل ٥٠٠ عام من التعايش بين مسلمى البوسنة بحيث يستحيل إجراء أى تمييز عرقى بين هؤلاء المسلمين .

وبعد انفصال كل من سلوفينيا وكرواتيا ومقدونية عن الاتحاد اليوغسلافى فصلت البوسنة والهرسك أيضاً أن تصبح دولة مستقلة وأعلنت استقلالها فى أواخر عام ١٩٩٠ . ونظراً إلى أن قيادة البوسنة قد أكدت مراراً أنه انتهى إلى الأبد ذلك الوقت الذى كان يتقرر فيه مستقبل البوسنة دون إرادة مسلميها فقد عمدت إلى كل الأساليب الديمقراطية لاسترداد حقوق شعب البوسنة والهرسك التى اغتصبت على مدار الحقبة الماضية ، وأعلنت أن صناديق الاقتراع هى البديل الحضارى لإستخدام السلاح .

وفى استفتاء شعبى حر وعلى مرأى وسماع من المجتمع الدولى أقبل فى مارس ١٩٩٢ سكان البوسنة والهرسك من المسلمين والكروات على صناديق الاستفتاء التى قاطعها الصرب . وأظهرت النتائج أن غالبية من ذهبوا للدلاء بأصواتهم ، وهم الأكثرية المطلقة ، وافقوا على إعلان استقلال الجمهورية . إلا أن الصرب الموجودين بالبوسنة أعلنوا

استقلالهم عنها وعن عزمهم الانضمام إلى الاتحاد اليوغسلافى الجديد
المشكل من جمهوريتى صربيا والجبل الأسود .

وبعد إعلان نتيجة الاستفتاء الخاص بالاستقلال عن الاتحاد الفيدرالى
اليوغسلافى طالبت حكومة البوسنة والهرسك الجيش الاتحادى
بالانسحاب من مواقعه غير أنه لم ينسحب بحجة أن انسحابه سيؤدى إلى
المزيد من اراقة الدماء .

وتصاعد العنف فى سرايفو بمجرد أن أفصحت عن رغبتها وإرادة
غالبيتها فى الاستقلال عن الاتحاد الفيدرالى اليوغسلافى . ومع وضوح
نية دول العالم للاعتراف باستقلال البوسنة والهرسك احتدت الاشتباكات
التي يحررها الصرب وخففت نداءات وقف أعمال العنف مع ارتفاع
أصوات طلقات النيران والأسلحة المختلفة .

وفى السادس من أبريل فى سنة ١٩٩٢ اعترفت الدول الأوروبية
الاثنتا عشرة وكندا والولايات المتحدة الأمريكية بالبوسنة والهرسك دولة
مستقلة . وكما كان متوقعا فإن الاعتراف الأوروبى والدولى باستقلال
البوسنة كان بمثابة إشارة البدء للصرب فى البوسنة للبدء فى القتال
وإعلان قيام جمهوريتهم الصربية فى البوسنة والشروع فى محاصرة
سرايفو .

وفى الثانى والعشرين من مايو عام ١٩٩٢ وافقت الجمعية العامة
للأمم المتحدة على قبول عضوية جمهورية البوسنة والهرسك فى المنظمة
الدولية . ومعنى هذا القرار أنه لا يمكن إلغاء هذه الجمهورية من على
خريطة العالم . وقد صرح ممثلون بالأمم المتحدة بأن عضوية البوسنة
والهرسك ستعزز عالمية المنظمة الدولية ، وأن المجموعة الدولية ملتزمة
بحماية استقلال وسيادة البوسنة وسلامة أراضيها وفقاً لقواعد ميثاق الأمم
المتحدة ، وأن جميع الأطراف مطالبة بالتعاون الكامل مع الأمين العام

للأمم المتحدة ومع كل الجهود الدولية لإنهاء الأعمال العدوانية والجلاء
عن جميع الأراضي المحتلة .

وقد رحب العالم باليومنة والهرسك ضمن الدول الأعضاء في الأمم
المتحدة وجرى استقبال وزير خارجيتها بعاصفة من التصفيق تعبر عن
الموقف الدولي المساند للاستقلال والرافض لعدوان الصرب ولضم
الأراضي بالقوة المسلحة وهو ما أكدت عليه المجموعة الأوروبية في
اجتماعات لشبونة وبرشلونة وفي الاجتماعات المشتركة مع دول مؤتمر
الأمن والتعاون الأوروبي في هلسنكي .

وأخذت سرايفو بمانيها وضواحيها ومساجدها تحترق وسط دوى
الانفجارات والقصف المدفعي العشوائي وموجات الصواريخ التي تطلقها
القوات الصربية التي تحاصر المدينة من التلال المحيطة بها بقصد إحكام
قبضتها على المدينة . وندد العالم كله بهذا الهجوم البربري وأصدر مجلس
الأمن في الثلاثين من مايو ١٩٩٢ القرار رقم ٧٥٧ بفرض حظر تجاري
وجوى وديبلوماسي وبنزولي على صربيا والجبل الأسود بسبب العدوان
على البوسنة والهرسك وكرواتيا . كما قررت واشنطن تجميد الأرصفة
اليوغسلافية في الولايات المتحدة وتبلغ جملة الودائع المصادرة ٢١٤
مليون دولار منها ١٧٤ مليوناً ببنوك تملكها يوغسلافيا . وكان الهدف من
 وراء هذه القرارات والإجراءات إجبار صربيا والجبل الأسود على وقف
اعتداءاتها المحمومة على شعب أعزل أغليبيته من المسلمين .

وأكد الرئيس الأمريكي بوش أن التدخل العسكري من جانب صربيا
والجبل الأسود في جمهورية البوسنة يشكل تهديداً خطيراً وغير عادي
للأمن القومي الخارجي للولايات المتحدة ولاقتصادها .

وبالرغم من قرار مجلس الأمن ومن الإدانة والعزلة الدوليتين فقد
كان هناك إصرار عجيب من جانب الميليشيات الصربية على البقاء داخل

أراضي جمهورية البوسنة والهرسك ومواصلة عمليات القصف بالأسلحة الثقيلة والطائرات وعلى انتهاك كل اتفاق لوقف إطلاق النار بعد ساعات من توقيعه . ولم يكن لهذا إلا معنى واحد يوضح الأهداف الحقيقية لهذه التصرفات الإجرامية التي بدأت منذ شهر واستمرت لفترة طويلة أمام الرأي العام العالمي بأسره . إنها خطة واضحة تستهدف الاستيلاء بالقوة المسلحة على أراضي البوسنة والهرسك وضمها بشكل من الأشكال إلى جمهورية صربيا التي ادعت لنفسها الحق في وراثه يوغسلافيا . وفي الآونة نفسها تعمل على التخلص من سكان الجمهورية المعتقدى عليها ولذلك تمنع وصول أية مواد إغاثة من أغذية ومواد طبية وذلك بالحيلولة دون إعادة فتح مطار سرايفو الذى تصل المعونات الدولية عن طريقه وهكذا يزداد عدد الضحايا بالموت جوعاً أو بسبب نقص الدواء والرعاية الطبية .

وتحدثت كل صحف العالم عن مدينة سرايفو التى تحولت إلى مدينة للموت حيث كل شيء فيها أصبح هدفاً لرصاصة ونيران القوات الصربية ولا يسلم من هجماتها كل من يجرؤ على المرور في أماكن الحظر أو غيرها .

وفي نهاية شهر يونيو قام الرئيس الفرنسى ميتران بزيارته المثيرة لسرايفو لكى يفك بنفسه الحصار المضروب على المدينة منذ ثلاثة أشهر بعد أن عجزت أوروبا وأمريكا عن توصيل المعونات العاجلة إلى المحاصرين من أهل المدينة . ومن ناحية أخرى بدأ فرض حصار بحرى ضد صربيا من جانب دول اتحاد غرب أوروبا وحلف شمال الأطلسي بهدف إحكام تنفيذ عقوبات الأمم المتحدة .

وأسهمت وسائل الإعلام العالمية فى وصف ما يحدث فى البوسنة والهرسك ، ورأت أنه يشكل أكثر من جريمة دولية تستحق معاقبة

مركبها بأشد العقوبات الدولية ، وفى مقدمتها جريمة إبادة جنس وطرد سكان دولة من أراضيهم والاستيلاء على ممتلكاتهم بالقوة ، والتدمير المنظم لكل المبانى والمرافق ، ومنع وصول المساعدات الإنسانية إلى الضحايا الأبرياء .

وكان من المؤسف أن تتدهور الوساطة الدولية فى المعنى والمعنى إلى حد ظهور اقتراح بتقسيم الجمهورية على أسس عرقية ودينية ، رغم مخالفة ذلك للأعراف الدولية والممارسات العالمية .

وكشفت التقارير عن وجود معسكرات اعتقال وتعذيب لشعب البوسنة والهرسك ولا سيما الأطفال والشيوخ ، وذلك على يد جماعات من الصرب . وقد حاولت اللجنة الدولية للصليب الأحمر تقصى الأوضاع فى معسكرين لكن الميليشيات الصربية رفضت السماح لمسئولى المنظمة بزيارة المعسكرين وهو الأمر الذى عزز التقارير التى تقول أنهما معسكران للموت . كما تلقت لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان تقريراً خطيراً يؤكد مسئولية القوات الصربية عن أبشع انتهاكات لحقوق الإنسان فى القتل الدائر فى البوسنة والهرسك .

وعجزت القوات الدولية عن وقف العدوان الوحشى المتواصل على مسلمى البوسنة والهرسك وتوقف عدة مرات وصول إمدادات الأغذية والأدوية إلى سكان المدن المحاصرة وذلك بالرغم من كل التحذيرات التى وجهتها الهيئات الدولية الإنسانية من عواقب هذا التوقف . ومع ذلك رفض رئيس الأركان الأمريكى فى حديث نشرته صحيفة « نيويورك تايمز » الأمريكية النداء الذى وجهته رئيسة الوزراء البريطانية السابقة وزعماء أوروبيون آخرون للتدخل العسكرى الأمريكى على نطاق ضيق لإنقاذ أهالى هذه الجمهورية .

وقرر مجلس الأمن (فى ٩/١٠/٩٢) فرض حظر على تحليق

الطائرات العسكرية فى المجال الجوى للبوسنة والهرسك . وطلب مجلس الأمن من قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة أن ترصد الامتثال لحظر الرحلات الجوية العسكرية بما فى ذلك وضع مراقبين فى المطارات الواقعة فى أراضى الصرب .

كما اتخذ مجلس الأمن قراراً بتشكيل لجنة للتحقيق فى جرائم الحرب التى ترتكب فى الجمهوريات اليوغسلافية السابقة وخاصة جمهوريتى البوسنة والهرسك وكرواتيا . وصدر القرار كخطوة تمهيدية لإقامة محكمة دولية لمحاكمة مجرمى الحرب من الصرب .

لن شعب البوسنة والهرسك ليس فقط ضحية للعدوان الصربى بل ضحية أيضاً للموقف العالمى المتخاذل الذى لم يشأ أن يأخذ بعين الاعتبار أمر ولادة دولة حديثة على خريطة العالم تحتاج إلى حمايته ولم يرغب - كما فعل من قبل فى مواقف أخرى - فى القيام بعملية تدخل عسكري لحسم الحرب .

وأى خيار غير وحدة أراضى البوسنة والهرسك واستقلالها مرفوض من قبل المسلمين ، والقتال هو خيارهم مهما كانت عواقبه . ولذا فإن الصورة سوداوية ، ولكن السواد سيتبدد لن آجلاً ولن عاجلاً مهما طال .

موقف مصر

بعد أن اتضحت المواقف وتكشفت النوايا وقفت مصر فوراً بجانب الحق والعدل وأيدت شعب البوسنة والهرسك في الإعراب عن استقلاله . وصرح المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية (فى ٩٢/٤/٢٠) بأن مصر تعبر عن أسفها العميق لما يواجه شعب البوسنة والهرسك من تدمير لموارده ، وتضم صوتها إلى المنادين بالوقف الفورى لكافة أعمال العنف ، وإلى التدخل السريع والحاسم من جانب المجتمع الدولى للتوصل إلى حل سلمى للنزاع فى هذه المنطقة واحترام سيادة وحرمة أراضي الجمهورية . وهذه الدعوة إلى التدخل السريع والحاسم من جانب المجتمع الدولى تنبع من إحساس عميق بهذا الهم العالمى الجديد وبضرورة التصدى الدولى له خاصة وأن العالم يواجه فى هذه المنطقة حرباً عرقية دميمة لا يلىق السكوت عليها فى نطاق النظام العالمى الجديد .

وفى السادس عشر من أبريل اعترفت مصر بجمهورية البوسنة والهرسك . ودعا فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر جميع الدول الإسلامية وهيئات الإغاثة فى العالم الإسلامى إلى بذل كل الجهود لحماية سكان هذه الجمهورية وحمايتهم من عدوان الصرب عليهم . كما دعا فضيلته منظمة المؤتمر الإسلامى إلى العمل على إنهاء هذه المحنة . وأعرب عن تقدير الأزهر لمبادرة الخارجية المصرية بالاعتراف باستقلال هذه الجمهورية . وأعرب كذلك عن أمله فى أن تبذل مساعيها الحميدة مع الدول العربية والإسلامية الشقيقة ومع الدول الصديقة نحو الاعتراف بها ، وتقديم العون لها أيضاً فى محنتها .

وبالفعل لعبت مصر دوراً رائداً فى تحريك جهود دول الجامعة العربية ودول منظمة المؤتمر الإسلامى داخل الأمم المتحدة من خلال الاتصالات مع أعضاء مجلس الأمن مما أدى إلى إصدار قرار مجلس الأمن الأخير الذى طالب بوقف القتال فوراً ووقف جميع أشكال التدخل من خارج البوسنة والهرسك واحترام سلامتها الإقليمية . وفى إطار التحرك المصرى بعث وزير خارجية مصر بخطاب إلى سكرتير عام الأمم المتحدة طالب فيه بتدخل المجتمع الدولى بمزيد من الثقل والفاعلية لوضع حد للاعتداءات التى يتعرض لها المندوبون المسلمون فى البوسنة والهرسك ومن أجل التوصل إلى وقف لإطلاق النار يكون مقدمة لعودة الأمن والاستقرار إلى المنطقة .

وقطعت مصر (فى ٩٢/٦/٤) علاقاتها الدبلوماسية مع حكومة بلغراد الصربية ، والتزمت كذلك بالعقوبات التى أصدرها مجلس الأمن ضمن قراره رقم ٧٥٧ ويقضى بفرض حظر شامل على جمهوريتى صربيا والجبل الأسود .

وفى المؤتمر الطارئ لوزراء خارجية الدول الإسلامية الذى انعقد فى يونيو ١٩٩٢ فى اسطنبول تحدث وزير الخارجية المصرى عن استعداد مصر للمساهمة فى أى قوات للأمم المتحدة لحفظ السلام فى البوسنة والهرسك ، ودعا لإنشاء صندوق للمعونة الإنسانية لشعب البوسنة والهرسك ، كما حث على توسيع أنشطة الصندوق بحيث تشمل المساعدات المالية والفنية لإعادة بناء ما تم تخريبه من تراث حضارى . وأضاف وزير الخارجية أن استمرار العدوان الصربى على شعب البوسنة والهرسك وارتكاب المجازر ضد سكانها الأبرياء يحتم علينا أن نقف بحزم أمام هذا العدوان المافى الذى يتجاهل القيم والمبادئ الإنسانية ويتحدى الشرعية الدولية ، كما يتحدى لإرادة المجتمع الدولى الممثلة فى قرارات مجلس الأمن .

وطالب وزراء الخارجية فى البيان الختامى للمؤتمر الإسلامى مجلس الأمن بدراسة إمكانية اتخاذ المزيد من الإجراءات اللازمة وفقاً للبند السابع من ميثاق الأمم المتحدة ومن بينها التدخل العسكرى بهدف ضمان تنفيذ قراراته بوقف العدوان العربى على البوسنة فى حالة ما إذا لم تسفر العقوبات الاقتصادية التى فرضها المجلس عن نتائج . وحملوا العرب مسئولية الأعمال الوحشية التى ترتكبها القوات العربية ضد مسلمى البوسنة . وناشد الوزراء مجلس الأمن الدولى ببذل جهود أكثر فعالية لحفظ السلام فى البوسنة .

وقد أشاد جارت ميلادجيتش وزير خارجية البوسنة والهرسك بالدور الإيجابى والفعال الذى قامت به مصر حكومة وشعباً فى دعم شعب البوسنة ومساندته فى محنته على الساحتين الإسلامية والدولية . كما أعلن صالح تشولاكوفيتش رئيس المشيخة الإسلامية بالبوسنة خلال زيارته للقاهرة أنه قد أتى لتقديم شكر وتقدير شعب البوسنة إلى الرئيس المصرى وإلى حكومة مصر وشعبها لمواقفها العظيمة وجهودها من أجل إنقاذ شعب البوسنة من حرب الإبادة التى يتعرض لها على أيدى العرب .

وفى شهر يوليو ١٩٩٢ أرسلت مصر وحدات عسكرية ضمن قوات حفظ السلام للمساهمة فى تأمين وصول مواد الإغاثة الدولية إلى سرايفو وذلك بناء على طلب السكرتير العام للأمم المتحدة وبعد موافقة القيادة السياسية على ذلك إيماناً منها بقضية هذه المهمة النبيلة . ومهمة القوة المصرية تعزيز لمواقف مصر الأخلاقية التى تحظى باحترام العالم .

واستمرت الاتصالات المصرية مع المسئولين فى صربيا عبر القائم بالأعمال المصرى فى بلغراد لإقناعهم بسحب القوات الصربية من البوسنة والهرسك والتخلى عن الأعمال الوحشية ضد الشعب المسلم . وفى الوقت نفسه أجرت مصر مشاورات مع الأمين العام للأمم المتحدة

والدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن ومع بعض الدول الإسلامية من أجل تصعيد العقوبات الدولية ضد صربيا بسبب استمرار أعمالها العدوانية .

وفى الشهر نفسه اجتمع وزير الخارجية المصرى مع مندوب البوسنة فى الأمم المتحدة بناء على طلب الأخير وطمانه بأن مصر تؤيد قضية البوسنة تأييداً شاملاً وأنه أعرب عن استيائه لمندوب يوغسلافيا بسبب استمرار العدوان على مسلمى البوسنة والهرسك وطالبه بوقف هذا العدوان على الفور .

وأعلن وزير الأوقاف المصرى أن موقف الحكومة المصرية من أزمة البوسنة والهرسك كان معبراً عن مواقف مصر المبدئية المساندة للشريعة الدولية وكانت مصر أول دولة عربية سحبت سفيرها من يوغسلافيا احتجاجاً على الاعتداءات الوحشية للصرب على مسلمى البوسنة كما قامت بإرسال مئات الأطنان من الأدوية ومواد الإغاثة إلى هناك وأن القوات المصرية كانت فى طليعة قوات حفظ السلام التى وصلت إلى هناك .

وفى بداية الدورة الطارئة للجمعية العامة طالبت مصر بضرورة الوقف الفورى للقتال الدائر فى البوسنة والهرسك وضمان احترام قدسية الحدود والسلامة الإقليمية والاستقلال السيامى لجمهورية البوسنة والهرسك . كما طالبت مصر بوقف عملية « التطهير العرقى » التى تمارسها حكومة صربيا المعتدية ضد شعب البوسنة ومسلميه . وهذا « التطهير العرقى » يشكل وصمة عار على جبين عالمنا المعاصر ويستوجب ، ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين ، مسارعة المجتمع الدولى بمواجهتها بكافة التدابير التى كفلتها المواثيق والعهد والأعراف الدولية وذلك من حيث :

أولاً : الوقف الفورى لكافة الممارسات التى تجرى ضد السكان المدنيين فى البوسنة والهرسك مثل الطرد القسرى والتشريد والاعتقال والتعذيب وإجبارهم على تغيير هويتهم .

ثانياً : محاكمة المسؤولين عن ارتكاب انتهاكات حقوق الإنسان تحت دعوى التنقية العرقية .

ثالثاً : ضمان تنفيذ حق العودة الفورى للاجئين والمطرودين الذين أجبروا على ترك أراضيهم وديارهم بسبب الممارسات القمعية ، وضرورة توطئهم فى مناطقهم الأصلية التى تم طردهم منها .

رابعاً : إلزام السلطات المسئولة عن هذه الممارسات التعسفية تحت شعار تلك الدعوى العنصرية بتعويض المتضررين من اللاجئين والمشردين عن ممتلكاتهم .

خامساً : تقديم المسؤولين عن الجرائم التى ارتكبت بدعوى التنقية العرقية إلى المحكمة الدولية المناسبة باعتبارها من الجرائم التى ترتكب ضد الإنسانية .

وفى نقابة المهندسين بالقاهرة أعلن المشاركون فى ندوة « البوسنة والهرسك .. أوندلس القرن العشرين » رفضهم الكامل للمخططات التى تحاك فى الظلام وتستهدف تقسيم أراضى جمهورية البوسنة والهرسك . وتم اختيار يومى ١٧ ، ١٨ سبتمبر ١٩٩٢ للتضامن مع مسلمى البوسنة . وتشكلت لجنة قومية لمناصرة شعب البوسنة ، وتقرر استضافة خمسمائة طفل من أبناء البوسنة الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم .

وخلال اشتراكه فى المجلس الوزارى لعدم الانحياز بجاكرتا أكد وزير الخارجية المصرى عقب استقباله لوزير خارجية يوغسلافيا تأييد مصر لمقررات مؤتمر لندن الخاصة بوقف إطلاق النار وإنهاء الاعتداء

وتجميع الأسلحة الثقيلة تحت إشراف الأمم المتحدة والبدء فى عملية تطبيع تأخذ فى الاعتبار استقلال البوسنة ، وطالب بضرورة تنفيذ مقررات مؤتمر لندن واحترام قرار مجلس الأمن فى هذا الشأن .

وحول الأوضاع فى البوسنة والهرسك أعريت القمة العاشرة لحركة عدم الانحياز عن قلقها البالغ إزاء الحالة المأساوية فى الجمهورية ، وأدانت الفظائع التى ترتكب هناك وطالبت بالوقف الفورى للأعمال العدوانية والانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان والإفراج الفورى عن جميع السجناء وإزالة معسكرات الاعتقال والمجون .

وأدانت القمة سياسة التطهير العرقى التى يمارسها الصرب فى البوسنة والهرسك ورحبت بقرارات مجلس الأمن وقرار لجنة الأمم المتحدة المعنية بحقوق الإنسان فى يوغسلافيا ، وطالبت باحترام سيادة البوسنة والهرسك واستقلالها وسلامتها الإقليمية والانسحاب السريع لجميع القوات الأجنبية من أراضى هذا البلد على أن توزع قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام على طول الحدود وحثت جميع الأطراف على التعاون مع هذه القوات .

وفى المؤتمر البرلمانى الدولى بالسويد قدم الوفد المصرى طلباً لإدراج موضوع البوسنة والهرسك فى جدول أعمال المؤتمر كبنء إضافى عاجل . وفى ختام اجتماعاته وافق المؤتمر البرلمانى الدولى على القرار الذى تقدم به الوفد البرلمانى المصرى بعد أن تمت مناقشة مشروع القرار فى لجان المؤتمر المختلفة ، وأقره بالإجماع جميع ممثلى شعوب العالم .

ويدعو القرار جميع الأطراف المعنية إلى وقف المعارك فوراً فى البوسنة والهرسك وسحب جيوشها ومليشياتها المسلحة . وأدان القرار بشدة وحزم كافة انتهاكات حقوق الإنسان التى ترتكب فى البوسنة والهرسك ، كما طالب جميع الأطراف بالكف فوراً عن جميع الانتهاكات

وكفالة الاحترام الكامل لحقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع دون
فرقة بسبب العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين .

وناشد القرار كافة الأطراف احترام القانون الإنساني الدولي
والإفراج فوراً عن جميع الأشخاص الذين تم اعتقالهم على نحو تعسفي ،
وأن تكفل لجميع اللاجئين والأشخاص المشردين العودة الآمنة إلى
ديارهم . وشدد القرار على ضرورة أن تكفل للمنظمات الإنسانية الدولية
المختصة لمكانية الدخول الفوري والحر والدائم إلى كافة المعسكرات
والمسجون وأماكن الاعتقال الأخرى .

وأيد القرار إعلان المبادئ بشأن البوسنة والهرسك الصادر في لندن
عن المؤتمر الدولي الخاص بيوغسلافيا السابقة . ودعا القرار مجلس
الأمن إلى التحرك العاجل بشأن اتخاذ تدابير أخرى ملائمة منصوص
عليها في الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة من أجل وضع نهاية
للاعتداءات وانتهاكات حقوق الإنسان ولإعادة وحدة وسلامة أراضي
جمهورية البوسنة والهرسك .

وفي ختام اجتماعات الجامعة العربية للدورة العادية الـ ٩٨ (في
٩/١٣) أكد مجلس الجامعة تضامنه الكامل مع جمهورية البوسنة
والهرسك في نضالها العادل من أجل صون سيادتها واستقلالها السيادي
ووحدة ترابها وسلامتها الإقليمية . ودعا المجلس القوات الصربية إلى
الوقف الفوري لكافة الإجراءات التي تهدف إلى تغيير التركيبة السكانية
لجمهورية البوسنة والهرسك بالقوة ، وتهيئة كافة الظروف التي تسمح
بعودة اللاجئين إلى ديارهم وإطلاق سراح جميع الأسرى والمحتجزين .
ودعا مجلس الجامعة في قراره الخاص بالبوسنة والهرسك إلى اتخاذ كافة
الإجراءات الضرورية من أجل الحفاظ على سيادة جمهورية البوسنة
والهرسك وسلامتها الإقليمية .

وقد أكد رئيس الوزراء المصري خلال استقباله للسيد سليمان أوجلانين المسئول الإسلامى البارز والوفد المرافق له الذى كان فى زيارة للقاهرة - أكد موقف مصر المبدئى من إدانتها للعنوان وعدم الأخذ بسياسة القوة والعنف فى حل المشكلات الدولية . وقال إن مصر تواصل من خلال جهودها داخل المنظمات الدولية والعربية والإسلامية مساندة حقوق شعب البوسنة .

وأعرب السيد سليمان أوجلانين عن شكر بلاده لمصر رئيساً وحكومة وشعباً لجهودها لوقف المذابح التى يتعرض لها المسلمون هناك يومياً على أيدي القوات الصربية . وناشد مصر مواصلة جهودها لوقف هذه المذابح وإقرار الحقوق المشروعة للشعب البوسنة والهرسك .

وبينما كانت تتصاعد حدة العنوان الصربى على البوسنة والهرسك توصل المجتمع الدولى فى الدورة الجديدة للجمعية العامة للأمم المتحدة إلى اتفاق لعقاب الاتحاد اليوغسلافى الجديد الذى يضم جمهوريتى صربيا والجبل الأسود . وهو عقاب لا مثيل له من قبل ويقضى بحرمانها من الاقتراع على قرارات الأمم المتحدة .

وكانت مصر قد تبنت بالمشاركة مع الدول الأوروبية والولايات المتحدة ومجموعة دول المؤتمر الإسلامى مشروع القرار الذى ينص على رفض احتفاظ جمهورية يوغسلافيا الحالية ، المؤلفة من صربيا والجبل الأسود ، بصورة تلقائية بعضوية جمهورية يوغسلافيا الاتحادية الاشتراكية السابقة فى الأمم المتحدة . وقررت الجمعية العامة أن يوغسلافيا الجديدة عليها أن تتقدم بطلب عضوية فى المنظمة الدولية من جديد .

ورجبت مصر بقرار الحرمان بسبب التحريض الصربى على الحرب الأهلية فى جمهورية البوسنة والهرسك . ومصر تتخذ بذلك موقفاً

يتفق مع مواقف باقى دول العالم فيما يتعلق باستحالة أن تراث دولة واحدة حقوق كل الجمهوريات والدول المنبثقة من يوغسلافيا القديمة .

وخلال زيارته للقاهرة أعلن وزير الخارجية الفرنسى رولان دوما بعد استقبال الرئيس حمىنى مبارك له أنه بحث مع مبارك التحرك المصرى الفرنسى المشترك فى الأمم المتحدة تجاه ما يتم الآن فى يوغسلافيا من انتهاك لحقوق الإنسان والعقوبات التى يجب أن تتخذها الأمم المتحدة ضد ذلك . وقال أن هناك مبادرة مصرية فرنسية يجرى الإعداد لها حالياً فى هذا الخصوص وتهدف لوضع حد للمأساة فى البوسنة والهرسك .

وأضاف عمرو موسى (فى ٩٢/١٠/٤) أننا نعارض ما يحدث من عمليات التطهير العرقى فى البوسنة والهرسك وقال إن هذه الإجراءات مفرزة ومكروهة وأنها تعيد للأذهان الممارسات النازية وإجراءات التفرقة العنصرية التى لا يمكن أن نقبلها . وأضاف أننا سنقف بحزم ضد ممارسات الصرب تجاه شعب البوسنة والهرسك وندرس ما يمكن أن نفعله تجاه ذلك ، ونرجو أن يتمكن رئيس الوزراء اليوغسلافى الجديد من السير فى الاتجاه الصحيح والتخلى عن تأييد الممارسات التى تقف ضد سيادة واستقلال ووحدة أراضي البوسنة والهرسك وتنتهك حقوق الإنسان هناك .

وقامت فى (٩٢/١٠/٧) خمس دول إسلامية ، فى مقدمتها مصر ، طلباً عاجلاً باسم منظمة المؤتمر الإسلامى إلى مجلس الأمن بعقد جلسة طارئة لتجديد النظر فى قضية البوسنة والهرسك بقصد اتخاذ ثلاثة إجراءات محددة، وهى: النشر الفورى لقوات حفظ السلام وإقامة محكمة دولية لمحاكمة مجرمى الحرب المسئولين عن سياسة التطهير العرقى ، وفرض حظر جوى على الطائرات الحربية فوق البوسنة .

ودعت اللجنة المصرية لمناصرة مسلمى البوسنة والهرسك الملوك والرؤساء العرب إلى قطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية

مع صربيا ، كما أوصت اللجنة خلال اجتماعها المنعقد في ١٠/٧/١٩٩٢ بنقابة المهندسين بحضور أكثر من خمسين شخصية حزبية وسياسية ودينية بتنظيم حملة إعلامية مكثفة لكشف المؤامرات ضد هذا الشعب المظلوم ولتبصير كافة شعوب العالم بأبعاد الأزمة ومخاطرها .

وقررت اللجنة طبع كتيب يتضمن مجموعة الفتاوى الدينية التي صدرت من علماء الإسلام والتي تؤكد واجب المسلمين في العالم في مساعدة شعب البوسنة والهرسك المنكوب ، بالإضافة إلى طرح أسهم لكفالة أيتام البوسنة قيمة كل سهم ٣٠ جنيهاً على أن تحول قيمة الأسهم إلى أماكن وجود هؤلاء الأطفال للإنفاق عليهم منها .

وقد قام مبعوثون من الأزهر الشريف ونقابة الأطباء بزيارة البوسنة والهرسك لتفقد أحوال المسلمين هناك والتعرف على احتياجاتهم من الأدوية والمعونات الطبية والأطعمة والكساء . وجرى تسليم المبالغ والمعونات والمساعدات التي تم جمعها من مصر إلى المسئولين بالبوسنة . كما أقيمت ندوات شعرية وثقافية للتعريف بجميع جوانب المشكلة ولمناصرة شعب البوسنة والهرسك .

سرايفو .. سراى البوسنة ومدينة المائة منذنة

من المؤكد أن كثيراً من المسلمين تابعوا بقلق وحزن شديد ما جرى من مذابح وتدمير عشوائى لا مثيل له فى جمهورية البوسنة والهرسك التى يكثر بها المسلمون ، ويشق عنان سمائها العديد من المآذن السامقة الرائعة وترصع أحياءها المساجد البسيطة والفاخرة بقبابها المستديرة ، وأصابهم الأملى وهم يشاهدون ما جرى لعاصمتها سرايفو « سراى البوسنة » التى يقال عنها أنها عاصمة الإسلام وحصنه فى قلب أوروبا والتى تتوضع معظم ضواحيها وأنحائها بعبير الشرق والإسلام .

ولم تعد الآن مدينة سرايفو « سراى البوسنة » كما كانت من قبل . وتم بمنتهى البربرية الاعتداء على عزيتها وفقدت بريقها وضياءها وتحولت إلى مدينة أشباح وإلى حطام ساكن وإلى بقايا وأشلء مبعثرة نتيجة للقصف المدفعى المكثف المتواصل ولموجات لا تنتهى من الصواريخ . ويقتدر كبير من الغدر والخيانة تم اغتيال وتدنيس أروع المساجد وتحطيم أجمل المناطق الأثرية للمسلمين ، ذلك التراث الإسلامى الذى استطاع من قبل أن يصمد فى وجه النازية والفاشية والشيوعية . ولكن ها هو الدمار يخيم على المدينة ويلطخ صورة « سراى البوسنة » ، وها هم سكانها العزل يواجهون أعنف صور الهمجية والوحشية ويواجهون أعنى حرب إبادة عرفها التاريخ وعرضت وسائل الإعلام المرئية مشاهدتها الفظيعة القاسية .

وليس هناك من هدف من وراء حصار سرايفو وتجويع أهلها وتدمير

آثارها الإسلامية سوى التخلص نهائياً من الوجود الإسلامى ومن المسلمين فى وسط أوروبا ، هؤلاء المسلمون الذين لا ننب لهم سوى أن القدر كتب عليهم أن يعيشوا فى هذه البقعة من أوروبا وأن يجعلوا من مرافقو بوتقة للسلام والتسامح بين القوميات والديانات السماوية الثلاث ، ونهراً يتدفق من التراحم والتكافل يشمل الأغلبية المسلمة مع شركائهم فى الوطن من صرب أرثوذكس وكروات كاثوليك ويهود .

وإذا عدنا مع التاريخ إلى الوراء فنسعرّف أنه فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، وبالتحديد اعتباراً من عام ١٤٣٥ ، تمكن الأتراك العثمانيون من السيطرة الكاملة على المناطق اليوغسلافية من شبه جزيرة البلقان . وأحدثوا تغييرات هائلة فى جميع جوانب الحياة ، وتعمقت هذه التغييرات بشكل خاص فى المدن وأقيمت ونمت مدن كثيرة ذات طابع شرقى إسلامى يناسب متطلبات الدولة الإسلامية فى مواقع الميادين القديمة أو كمناطق سكنية جديدة . وتميزت أمثال هذه المدن بكثرة السكان ، وهم فى أغليبيتهم من المسلمين مع وجود عدد من المسيحيين واليهود ، واتسمت بمبانيها الإسلامية الرائعة وأسواقها الكبيرة التى تزدهر فيها ألوان التجارة ومختلف الحرف .

وهنا على شاطئ نهر « ميلاتسكا » وضع حاكم المنطقة الغربية عيسى بك اسحاقوفيتش هرانوشيتش أساس مدينة مرافقو الحالية . وقد يدهش القارئ حينما يعلم أن اسم مدينة مرافقو أصله عربى . وهناك حكايات عديدة يجرى تناقلها بهذا الشأن ، إلا أن القصة الأقرب إلى المنطق والواقع أن عيسى بك أنشأ فى البداية قصرأ له أسماء « سراى » ، ثم أطلق على المنطقة كلها اسم « سرايفو بولى » ، أى المنطقة الخاصة بالسراى . وبعد ذلك تم حذف الكلمة الأخرى وظلت كلمة سرايفو اسماً للمدينة التى تعد من أقدم مدن البلقان .

ومن المؤكد أن عيسى بك قد شيد مدينة سرايفو فى بداية النصف

الثانى من القرن الخامس عشر ، بل وقبل عام ١٤٦٢ وهو التاريخ الذى ظهرت فيه الوصية الوقفية لعيسى بك ، التى تعد حتى الآن الوثيقة الأساسية المتعلقة بإقامة مدينة سرايفو وتطورها فيها بعد . وسرعان ما أصبحت سرايفو المركز الإدارى والعسكرى والتجارى والثقافى لمنطق البوسنة وفيما بعد لولاية البوسنة .

وأقام عيسى بك بجانب قصره أول مكان لإقامة الصلاة أطلق عليه اسم مسجد السلطان . ثم أنشأ حماماً عمومياً وميداناً لمباق الخيل . كما شيد جسراً على نهر ميلياتسكا . وعلى الجانب الأيمن للنهر ، فى الجهة المقابلة للمسجد وبالتقرب من السوق القديم ، أقام أول استراحة للقوافل وأنشأ حولها عدداً كبيراً من المحلات لأصحاب الحرف والتجار ، وشيد فى المنطقة التى تعلوها استراحة للمسافرين وتكية للصوفية ، كما أدخل أول شبكة للمياه بالمنطقة .

وفى أواخر القرن الخامس عشر انتشرت حركة البناء واتسعت أنحاء المدينة . وأحدثت المشروعات العمرانية ترابطاً بين الأحياء السكنية المحيطة . وسرعان ما تطورت المدينة ونمت بحيث أصبحت سرايفو من أهم المدن بمنطقة البلقان . وبلغت سرايفو فى القرن السادس عشر ذروة تقدمها من ناحية التطور المعماري ، وأفضل دليل على ذلك هو عدد الأحياء الذى كانت تضمه المدينة آنذاك .

وخلال وجود الأتراك العثمانيين كان الفن المعماري هو أكثر فروع الفنون تطوراً ونماءً . وكان من عادة الأتراك العثمانيين أن يقيموا المساجد أولاً وقبل كل شيء . وتظهر المحلات التجارية حول المسجد الأول الذى غالباً ما يحمل اسم السلطان ، ويصبح هذا المسجد نواة للمدينة ومركزاً لها وبعد ذلك يتم تشييد المساجد فى كل المناطق الإسلامية المحيطة . وهكذا تم فى سرايفو ، خلال القرن السادس عشر ، تشييد أكبر عدد من المساجد والجوامع .

ولابد هنا من التنويه إلى أنه في الفترة الأولى من ظهور الإسلام كانت كل من كلمتي المسجد والجامع تعني كل مكان تقام فيه شعائر الصلاة للمسلمين ، ولم يكن جمهور العامة يفرق بينهما على الإطلاق . ولكن فيما بعد - وعلى الأخص في الأماكن الأوروبية التي دخل فيها الإسلام وانتشر عن طريق الأتراك العثمانيين - جرى التمييز بين الكلمتين تمييزاً واضحاً . فأصبحت كلمة المسجد تعني جامعاً صغيراً في الحى أو المنطقة تتم فيه إقامة الصلوات الخمس وتجرز به إقامة صلاة الجمعة والعبدن ، وهو في أغلب الأحوال بدون منئذنة . أما الجامع فمعناه أشمل وأوسع وتقام فيه الصلوات الخمس والصلاة في أيام الجمع وفي الأعياد ، ويتم فيه لقاء المحاضرات وتحفيظ القرآن ومسامح الأحاديث النبوية الشريفة وتعليم العربية وما شابه ذلك من أمور ، وغالباً ما تكون للجامع منئذنة .

وفي مرايفو ، وكذلك في كل المناطق التابعة للأتراك العثمانيين ، كان يشيد الجوامع كبار المسئولين من الأتراك العثمانيين وأعيان المدينة ولأثريائها وتجارها وأصحاب الحرف بها والآخرن . وكانت أغلبيتهم من البوسنة ، وبعض منهم كانوا يمتون بصلة قرابة إلى بيت السلطان . ولم تكن ضخامة الجامع ترتبط فقط إلى حد كبير بمشيده ولكن أيضاً بصاحب تصميمه المعماري وعمال بنائه .

وتنطوى على أهمية خاصة بالنسبة لتطور المركز الاقتصادى للمدينة فترة حكم الغازى خسرو بك (من ١٥٢١ إلى ١٥٤١م) الذى كان غاية في الثراء وصاحب نفوذ كبير . ومن المرجح في أغلب الأحوال أنه بفضل انتصاراته الحربية وغنائمه العسكرية تمكن من تشييد مسجد يعد من أكبر المساجد التي تم تشييدها في هذه المنطقة ، كما أقام كتاباً ومدرسة إسلامية « كور شومليا » ، ومكاناً لأداء الفرائض وتعليم الفلسفة الصوفية باسم « الخانقاه » ، وحماماً عمومياً به قسمان : قسم للرجال وآخر للنساء .

كما أنشأ الغازى خسرو بك أيضاً مكتبة ، منفصل الحديث عنها فيما بعد ، تعد أغني خزانة للمخطوطات الشرقية الثمينة بهذه المنطقة . وأوقف لها مبلغاً كبيراً لشراء كتب جديدة يتم استخدامها فى مدرسته ولكى يستفيد منها من يقرأها وينسخ منها من يشتغلون بالعلوم .

وشيد الغازى خسرو بك مسجداً ضخماً يعرف باسمه ، أو باسم « مسجد البك » ، فى وسط السوق فى عام ١٥٣١ م . وهو يعد من أكبر المساجد الموجودة فى سرايفو وفى البوسنة كلها . كما يعتبر من أروع الأعمال المعمارية آنذاك لدرجة أن خبراء الفن المعماري الإسلامى يقولون انه لو تم تشييد هذا المسجد بتصميماته الفريدة وزخرفته الثرية ومئذنته الضخمة فى مدينة اسطنبول . لكان أيضاً إنجازاً معمارياً فى عصره . وتقع أمام المسجد نافورة تأتى إليها المياه داخل مواسير من منبع « تسرنيلو » الذى يبعد عن سرايفو بمسبعة كيلومترات ، وذلك فى الوقت الذى لم تكن توجد فيه مدينة واحدة فى أوروبا مزودة بمثل هذه المواسير لجلب المياه . وعلى مسافة قريبة تم إنشاء محل كبير لبيع السلع وفندق . وفى غرب المسجد يوجد المطعم والمطبخ العمومى لإعداد الخبز والطعام وتوزيعهما كل يوم على طلبة المدرسة وعلى موظفى الأوقاف ، وعلى فقراء المدينة . وبسبب كل هذه الإنجازات والمنشآت الخيرية أطنبت القوائد الشعبية فى مدح الغازى خسرو بك ووضع اسمه على كل لسان .

وخلال القرن السادس عشر أقيمت مساجد أخرى وأماكن للعبادة ومشروعات عامة مثل مسجد تشكربليتش مصلح الدين (قبل عام ١٥٢٦) والكنيسة الأرثوذكسية القديمة (يجرى ذكرها لأول مرة فى عام ١٥٣٩) والحنوت الكبير بروسه (فى عام ١٥٥١) . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر أقيم مسجد على باشا (فى عام ١٥٦١) ومسجد فرهاد (فى عام ١٥٦٢) وكثير من المساجد الأخرى وكذلك العديد من الجصور على نهر ميليا تسكا . وفى القرن السابع عشر أقيم برج الساعة المشهور بسرايفو وتكية الحاج سينان (فى عام ١٦٣٠) .

وتحمل المساجد المنتشرة فى ضواحي سرايفو السمات الجوهرية للمساجد المشيدة وفقاً للأسلوب المعماري العثماني الذى طور الفن المعماري الخاص بهذا النوع من المباني بشكل يختلف عن ذلك الشكل الذى تتسم به الآثار الإسلامية فى مصر وفارس . إلا أن المساجد فى سرايفو كانت بوجه عام أقل حجماً من تلك المساجد الرائعة الموجودة فى اسطنبول وفى أماكن أخرى من آسيا الصغرى . وهذا أمر طبيعى ومفهوم إذا أخذنا فى الاعتبار أن معظم مواد البناء كانت متوافرة بشكل أو بآخر فى عاصمة الامبراطورية العثمانية .

ومن السمات الجوهرية للمساجد فى سرايفو وجود ساحة داخلية رئيسية يتم فرشها بالسجاد وتؤدي فيها الصلوات . ويتوسط الجدار الأمامى تجويف مستدير وهو المحراب الذى يقف فيه الإمام لى يؤم المصلين . ويوجد فى الزاوية الأمامية اليمنى المنبر الذى يرتفع فى شكل عمود له ساق واحدة ، ويتم الصعود إليه عبر سلم خشبى له حاجز من الجانبين . وبأعلى ، عند نهاية درجات السلم ، يوجد الكرسي الذى يجلس عليه الخطيب . وهناك مظلة تعلو الكرسي . وفى أغلب الأحوال تقف المئذنة بجانب البناء من ناحيته اليمنى على الدوام . ولا تقام من الناحية اليسرى إلا إذا دعت إلى ذلك ضرورة من ضرورات انسجام المنظر أو ما شابه ذلك .

وفى آخر الساحة الداخلية يوجد بطول عرض الساحة أو نصف عرضها فقط مكان خاص للمبيدات يسمى « المحفل » . وتعلوه شرفة علوية تستند على أعمدة حجرية أو خشبية وفيها يقف المؤذن وقت الصلاة . ويحيط على الدوام بالمسجد فناء صغير أو كبير . وفى بعض المساجد يوجد من الخلف جناح خاص للنساء محاط بجدار عال . وتتوسط الفناء نافورة ، وفى أحد الأركان توجد صنابير مياه للاغتسال والوضوء . وفى بعض المساجد توجد صنابير للمياه الساخنة نظراً لشدّة البرودة فى أيام الشتاء .

وفى مواجهة المركز السياسى والعسكرى المتواجد على الشاطئ الأيسر لنهر ميليا تسكا كان الجانب الأيمن منذ أقدم العصور مركزاً للحياة الاقتصادية للمدينة . وهنا أقيمت السوق الرئيسية التى سميت « باشتشارشيا » حيث حقق الشرق والغرب تبادلاً دولياً للسلع والبضائع . وكان بالإمكان هنا بثمن رخيص للغاية شراء كل أنواع البضائع الواردة من الهند والجزيرة العربية وفارس وبولندا وبلاد التشيك . وكان التجار ينقلون من المدن المحيطة إلى هذه المدينة كميات لا حدود لها من مختلف أنواع السلع والأقمشة الغالية والمنسوجات الحريرية الممتازة ويبيعونها هنا . وهذا هو ما سجله فى عام ١٦٦٤ أوليا شلبى أكبر رحالة تركى . ومع تطور هذه السوق نشأت مجموعة كاملة من مراكز الحرفيين المتخصصة التى وفقاً لها كانت تحصل بعض الشوارع على أسمائها . فهناك الحدادون وصناع النحاس والأحذية والمجوهرات والأسلحة والسروج والأجراس والقطن والنحاتون والصباغون وغيرهم . وكانت الحرف متنوعة ومتشعبة بحيث أنه عند تجهيز فارس من الفرسان كان يشترك ما يقرب من خمسة عشر حرفياً من الحرفيين المتخصصين .

وبفضل نمو التجارة العالمية فى هذه السوق فقد جرى إنشاء العديد من الاستراحات للقوافل والمساافرين ثم مخازن مأمونة من السرقة والحريق ومجموعة من الحوانيت الكبيرة . ولأجل الغرض نفسه تمت إقامة صنادير المياه والنافورات والحمامات العمومية ومطاعم مجانية وفنادق .

ومن المؤسف أن هذه المدينة المزدهرة تعرضت للتدمير والحرق خلال الغارة التى شنّها الأمير النمساوى أوجين سافويسكى فى عام ١٦٩٧ ، وحتى نهاية الحكم العثمانى لهذه المنطقة لم يتم التخلص تماماً من آثار الدمار والحريق . ونقدم لنا المسجلات التركية للإحصاء والشهر العقارى معلومات تفصيلية عن عدد المساجد فى مراهفو . وبناء

على هذه المعلومات وعلى كتابات الرحالة والمؤرخين يمكن القول بأنه كان يوجد في سرايفو قبيل وقوع الغارة المذكورة ما يزيد على مائة مسجد وكثير منها كان لها قباب ومغطاة بالرصاص . وكان يوجد أيضاً ما يربو على سبعين مدرسة ابتدائية إسلامية وعشرات من المدارس الإعدادية والمدارس الإسلامية العليا وعدة مكتبات وتكيات من أجل اكتساب التعليم العالي . وكانت تعمل آنذاك آلاف الدكاكين والحوانيت والمخازن من أجل تبادل السلع والبضائع بين القارات المختلفة . وكان يوجد خمسون مكاناً للمبيت بإمكانها أن تستوعب ما يربو على ألفي نزيل وكذلك ثلاثة محلات مخصصة لبيع المنسوجات الثمينة .

وبسبب الخراب الذي لحق بالمدينة فقد فكر أهلها في وسيلة لحمايتها . ونظراً لأن مدينة سرايفو كانت كبيرة فقد تم قصر الحماية على منطقة صغيرة تقع على التل وتسمى « فراتنيك » . وفي القرن الثامن عشر (وبالتحديد في عام ١٧٢٧) بدأ تشييد أسوار حول المدينة وقلاع وبوابات . ولم يعد من الممكن الدخول إلى المكان المحصن إلا من خلال سبع بوابات موجودة منها حتى اليوم ثلاث : شيروكاتس وبلوتشا وبوابة فيشجراد .

وها هو التاريخ يعيد نفسه ، فما أشبه اليوم بالبارحة . فها هي سرايفو « سراي اليومنة » ومدينة المائة مثانة ووثقة التعايش والتسامح تتعرض للخراب والدمار كما تعرضت بالأمس ، وتحاصرها أعاصير الهيمنة وشياطين التطرف الطائفي . وتعجز الكلمات عن وصف ما تتعرض له سرايفو ومكانها الآمنون من أعنف صور الهمجية والوحشية ومن أعنى حملات الإبادة الفريدة لمدينة تميزت عبر قرون طويلة بنسيج رقيق لا مثيل له من التعايش السلمي بين القوميات والأديان . إنه زلزال من الأجرام المتراكم من الحقد الأسود ومن التعصب الطائفي الأعمى الذي يريد أن يجتث من الأعماق جذور أمة المسلمين من هذه المنطقة حتى

لا تثبت لها ثانية على هذه الأرض أية نبتة تفوح بعطر الإسلام وتشهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

ودمرت أيادي الباطل والبهتان مساجد سرايفو ومبانيها الإسلامية العريقة . وحولت سرايفو إلى مدينة أشباح لا تبصر فيها إلا الدمار وحطام المساجد ويقايا المنازل المنهارة . وحوصرت سرايفو من جميع الجهات بهدف تجويع أهلها وتصفيتهم معنوياً وجسدياً ونزع الحب والتسامح من صدورهم ، ويهدف لإفراغ المدينة من سكانها المسلمين طوعاً أو كرهاً ، ويفرض طمس الطابع الإسلامي الأصيل الذي تتسم به هذه المدينة .

إن كلمات المجازر والمذابح والإبادة تظل عاجزة عن وصف ما تعرض له سكان سرايفو من حمامات نماء ومن طوفان جامح يريد إبادة المسلمين بأية طريقة مشروعة أو غير مشروعة وبكل السبل والإمكانات المتاحة في ظل عصر أكذوبة الديمقراطية وإشاعة النظام العالمي الجديد .

ولكن بفضل الله وعونه ستبقى سرايفو بمذاقها الخاص وطابعها الحضاري المختلف وتجانسها الإنساني ودياناتها المتعددة وقومياتها المتباينة . وستظل - إن شاء الله - سرايفو النقطة المضنية في وسط هذا المكان الموحش الحافل بالظلام والقنامة ، وستظل نقطة الأمل وسط هذا البحر من اليأس والحقد .

وإن شاء الله ستنتفضع عن سرايفو هذه المسحب السوداء وتنجلي الغمة عن هذه المدينة الحبيبة إلى قلوب المسلمين وعن مساجدها التي تهفو إليها أفئدة المؤمنين . وستبقى سرايفو بعون الله مدينة للإخاء والوفاء ، وستبقى رمزاً للحب والسلام ، وستخيب آمال اللثام ، وتبقى يوماً موطناً لكل الآثام . سلمت يا سرايفو وسلم أهلك وسلمت مساجدك .

مسجد السلطان فى مدينة سرايفو

كان عيسى بك إسحاقوفيتش هرانوشيتش هو الذى أنشأ مكاناً لإقامته باسم سراى البوسنة التى أصبحت بعد التوسعات مدينة سرايفو .
ومما يذكر أنه كان يوجد فى هذا المكان أقدم مسجد بسرايفو . وفيما يتعلق بالشكل الأول للمسجد فلا نعلم عنه إلا قليلاً عن طريق الوثائق والمستندات التى أوضحت حالته السيئة بسبب النيران التى إندلعت فى سرايفو فى عام ١٤٨٠ بمعرفة الجيش النمساوى المجرى .

وفى نفس مكان المسجد القديم وبجانب قصره أقام عيسى بك مسجداً وفقاً لأوامر السلطان محمد الفاتح . وهكذا تم فى الفترة من عام ١٥٦٦ وحتى عام ١٥٦٧ إنشاء المسجد الحالى المعروف باسم مسجد السلطان الذى يعد من أروع مباني الفن المعماري الإسلامى فى سرايفو . وجرى تشييد المسجد بأموال السلطان وإفتتاحه رسمياً فى عام ١٥٦٧ .

وفى أغلب الأماكن السكنية بالمدن فى البوسنة كان يتم أولاً تشييد مساجد السلطان بناء على أوامره وبأموال الدولة ، ولكنها لم تكن تتبع أوقاف السلطان . ويعتبر الموظفون العاملون فى مساجد السلاطين من موظفى الدولة ويحصلون على رواتبهم من أموال الدولة . ومن ناحية أخرى كان موظفو مسجد السلطان (الإمام والخطيب والمؤذن) يملكون إقطاعيات بينما كانت النفقات الخاصة بإضاءة المسجد وفرشه وصيانته ونظافته وإصلاحه يتم دفعها من موارد الدولة من الخراج .

ومسجد السلطان مشيد في القرن السادس عشر أى في ذروة النهضة الإسلامية لفن المعمار ، ومن حيث أهميته وضخامته يحتل المرتبة الثانية بين المشروعات المعمارية ويبن هذا النوع من المباني في البوسنة والهرسك .

ومجموعة المباني الحالية لمسجد السلطان نشأت خلال حقبة ليست بالوجيزة إبتداء من القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين . وأقيم جزء فيها نمثله المقابر بشواهدا التي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر . ويوجد عند جدار المحراب شاهدان تربط الأساطير بينهما وبين ضريح عيسى بك إسحاقوفيتش . وفي المقابر المنتشرة حول المسجد توجد شواهد يرجع تاريخها إلى الفترة من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر ، وتوجد كذلك الأسوار الحجرية المشتركة مع قبر الشيخ إبراهيم بيستريخيا (المشيد في عام ١٦٦٤) .

ولاشك أن مسجد السلطان يعد من بين أهم آثار الحقبة العثمانية في البوسنة والهرسك . ومن الناحية المعمارية يمكن ملاحظة أن المسجد مشيد وفقاً لروح الأسلوب القسطنطيني التقليدي في القرن السادس عشر ، أما المكتبة أو مجلس العلماء الذي يرجع إلى عام ١٩١٠ فهو يتبع أسلوب الباروك الشرقي المتأخر .

ويتبع مسجد السلطان ذلك النموذج من المساجد الذي له ساحة واحدة وقبة مقوسة ، ويصل ارتفاع مئذنته إلى سبعة وأربعين متراً ، وهي تعتبر في الوقت الحالي من أعلى وأجمل المآذن في منطقة البوسنة والهرسك بل وفي منطقة البلقان كلها ، وهي أيضاً المئذنة الوحيدة في سرايفو التي لها شرفة مرصعة بالسواقيط الحجرية . ويعد مسجد السلطان بالإضافة إلى مسجد قراقوز بك في موستار من أجمل مساجد هذه المنطقة . والساحة الخارجية للصلاة الموجودة أمام المسجد أبعادها ١١,٣٣ × ٥,٧٠ متر . وردده المسجد ذات جمال فريد وتتألف من أربعة مقنطرة لها سبع قباب صغيرة يحملها عشرون عموداً حجرياً .

وموتيفات الصور المرسومة على جدران هذا المبنى تبين أنه كان يتم توجيه عناية كبيرة إلى الصور المرسومة على الجدران في سرايفو . وعناصر هذا الفن تشير إلى أنها نشأت في القرن السادس عشر لأنها مشابهة إلى حد كبير لتلك العناصر الموجودة بالآثار الإسلامية الأخرى التي تمت المحافظة عليها محافظة كاملة أو جزئية في منطقة البوسنة مثل مسجد البك في سرايفو (١٥٣١ - ١٥٣٢) ومسجد آلدجا في فوتشا (١٥٥١) ومسجد فرهاد في سرايفو (١٥٦١ - ١٥٦٢) ومسجد دوكتار في ليفنا (١٥٨٧ - ١٥٨٨) ، ومثل كثير من المساجد التي كانت موجودة بالامبراطورية العثمانية .

وفيما يتعلق بالرواق الموجود بجانب هذا المسجد فهناك افتراض بأنه كان موجوداً في البداية ، بينما يعتقد آخرون أنه تمت إضافته في عام ١٧٩١ أو عام ١٧٩٧ أو ١٨٠٠ . ويقايا هذا الرواق ظاهرة في الوقت الحالي على الجدران الخارجية للمباني الملحقة . ووفقاً لمشروع هيئة حماية واستغلال الآثار التاريخية في سرايفو فقد تم عرض نتائج الاكتشافات الأثرية ، وهي قناطر طويلة نصف دائرية وتشمل تيجان الأعمدة بحيث تشكل أروقة مقنطرة . وهي مبنية من الأحجار والقرميد مثلها مثل الجدران والأسقف المشيدة فوقها . وحتى عام ١٨٤٨ كانت الأروقة مفتوحة ، وبعد ذلك الحين تم تشييد سقف لها من أجل توسيع الأماكن الجانبية الملحقة للصلاة .

وبعد الحريق الكبير في عام ١٦٩٧ حينما قام الجيش النمساوي بتخريب وحرق سرايفو تعرض المسجد لأضرار كبيرة وتحطمت المباني الموجودة في الأماكن المحيطة به .

وفي عام ١٧٧٩ تم تجديد المسجد على نفقة الوالي البوسني عبد الله دفتريفيتش . وبعد ذلك جرت إقامة بعض المباني إضافة إلى ما تم

تشبيده من مبان فى عامى ١٧٥٩ - ١٧٦٠ . ومعرفة عثمان شهدي بيلوبولياتس تم فى القناء تشبيد أول مكتبة عامة فى سرايفو ، بالقرب منها أقيم فى عام ١٧٩١ صنبور عمومى للمياه . وأجريت إضافات هامة لمجموعة مباني المسجد وأجريت أكبر الاصلاحات فى القرن التاسع عشر فى عهد فاضل باشا شريفوفيتش المدير المسئول عن مسجد السلطان . وبناء على أمر من السلطان عبد المجيد فى عام ١٨٤٨ أجريت توسعات بالمسجد ، وتم تشبيد الرواق فى المقدمة وتم تزويده بأرائك وفى الداخل تم وضع أثاث خشبى جديد .

وعلى البوابة التى جرى تجديدها تم وضع نقش مكتوب يتعلق بالتجديد ومرصع باسم السلطان عبد المجيد . وفى عام ١٨٥٣ - ١٨٥٤ تم على نفقة فاضل باشا شريفوفيتش إنشاء أول ساعة للمواقيت بسرايفو ، وأكمل تشبيدها والوالى البوسنى مصطفى عاصم باشا حينما تم فى عام ١٨٧٢ لإجراء توسعات فى الدور الأرضى ، وكذلك بالدور الأول من أجل احتياجات الإمام والخطيب ومؤذن المسجد . وخلال عامى ١٨٥٧ - ١٨٥٨ أقام شريفوفيتش مدرسة إسلامية . ومن أجل تشبيد مبنى لمجلس العلماء تم هدم مباني برج الساعة والمدرسة والمكتبة والصنبور العمومى وكل المباني المحيطة . وفى الآونة نفسها تم من الجهات الجانبية للقاء تشبيد أروقة تربط المسجد بمبنيين من طابق واحد للقصر المذكور الذى وُجِدت فيه فى نفس الحين مكتبة الغازى خسرو بك .

وهذا المسجد الذى يعد ثلثة على نهر ملياتسكا أصيب بأضرار من جراء القنابل التى سقطت عليه خلال الحرب الأخيرة ، كما أن أنياب الزمن تركت آثارها على هذا المبنى الذى بدأ ينهار إنهياراً مريعاً . ورغم أن هذا المسجد باعتباره من الآثار التاريخية الجديرة بالاهتمام كان يقع تحت حماية ورعاية الدولة إبان الحكم الشيوعى إلا أن جهات الاختصاص لم تفعل شيئاً ينكر من أجل حماية وصيانة هذا المسجد .

وفي عام ١٩٧٨ أنشأ بعض المواطنين صندوقاً من أجل جمع التبرعات لإنقاذ وإصلاح وترميم هذا المسجد وبمبادرة شخصية منهم قاموا بحملة من أجل هذا الغرض . وكانت البداية أكثر من ناجحة بحيث أنه جرى بواسطة الأموال التي تم جمعها شراء المواد اللازمة للترميمات بالإضافة إلى ما يلزم من أخشاب ورقائق النحاس ، وكذلك إعداد المستندات الفنية اللازمة والحصول على تصريح من أجل إجراء أعمال الترميم والإصلاح وحماية المبنى .

وبالفعل تم في عام ١٩٨٠ إجراء عمليات ترميم هامة من الناحية المعمارية وفي الصور والرسوم التشكيلية . وفي الوقت نفسه تم برقائق النحاس تغطية جميع مساحات السقف التي كانت من قبل مكسوة برقائق من الحديد العادي أصابها البلى تماماً نتيجة للتآكل والصدأ . وتم إصلاح الثغرات الموجودة بجميع أنحاء المسجد وتجديد كل واجهات المبنى . أما في الداخل فقد تم تركيب أرضية جديدة وتجديد توصيلات التدفئة المركزية والتوصيلات الكهربائية والإضاءة ، مع تركيب إضاءة جديدة وتوصيلات للإذاعة الداخلية . وفي إطار الإصلاحات تم تغيير إطارات النوافذ الخشبية .

وقد استحوذت على أكبر قدر من الاهتمام والوقت الأعمال الخاصة بفحص ودراسة الصور المرسومة على الجدران وإصلاحها وتجديدها . وقام خبراء الآثار من داخل الجمهورية وخارجها بأعمال الصيانة الوقائية في الأماكن المعرضة للخطر وأعدوا بحثاً وخطة من أجل صيانة وتجديد هذه الصور ، وتضمنتا معلومات عن الحالة الراهنة وتقييماً لها وتقديم الاقتراحات المتعلقة بأعمال الترميم .

ووفقاً لتقديرات نيهاد باختياريفيتش خبير هيئة حماية الآثار فقد تم اكتشاف أن مسجد السلطان يحوى أكبر ثروة من الصور المرسومة على

الجدران التي ترجع إلى العصر العثماني . وهذه الصور لها أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الفن الإسلامي في العهد العثماني . واكتشاف الزخرفة بالصور هنا أثبت أنه كانت تتم بشكل كبير العناية بالزخرفة بالصور ذات الموثفات الشرقية في الفترة من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر .

بيد أنه لم يكن يعرف لفترة طويلة تقريباً شيء عن الزخرفة بالصور في هذا المسجد وفي باقي المساجد باليومنة والهرسك إلا حينما جرت أعمال الصيانة بمسجد السلطان وتأكد الخبر المختص من وجود مساحات قديمة كبيرة من طبقات الصور .

وجرت أعمال تجديد مسجد السلطان بثبات وإصرار ومثابرة خلال حقبة مريية . ومنذ عام ١٩٨٧ وتتابع أعمال التجديد والترميم لجنة فنية خاصة ذات طابع استشاري . وبالإشتراك مع ممثلي الممولين ومنفذ الأعمال كانت تصدر القرارات التي تهدف إلى حل المشاكل غير المتوقعة الناشئة . كما يتابع أعمال التجديد والترميم مجلس المسجد برئاسة المدير محمد بيرقاريفيتش الذي كان صاحب مبادرة إجراء التجديدات والمحرك الروحي للمشروع كله .

والجزء الأكبر من الأموال اللازمة لتجديد المسجد جمعه أعضاء مجلس الجماعة الإسلامية في سرايفو ، والجزء الباقي تم جمعه بواسطة أجهزة الجمعيات الاجتماعية بالمدينة والجمهورية . وتم رسمياً افتتاح مسجد السلطان بعد تجديده في سبتمبر ١٩٨٩ وكان جماله يرصع ويزين كنز القيم الفنية والتاريخية لمدينة سرايفو .

مكتبة الغازى خسرو بك

من المؤكد أن المكتبات الإسلامية من أهم المؤسسات الثقافية بسبب دورها المهم والخطير فى نشر ألوان المعرفة والثقافة بين المسلمين بل لقد تعدى تأثيرها المسلمين أنفسهم وانتقل إلى غير المسلمين . ومن جهة أخرى كانت المكتبات الإسلامية مرآة تنعكس فيها حياة المسلمين وتظهر فيها الحياة بوضوحها وصفائها وتفاعلها . ومن ثم وجب القيام بدراسة موضوعية للمكتبات الإسلامية ولدورها فى حياة أصحابها ، وعلى الأخص فى المناطق غير الإسلامية فى الوقت الحالى .

وتاريخ المكتبات الإسلامية فى البوسنة والهرسك تاريخ حافل ومشرق ، ويرجع إلى العهد الذى كانت فيه هذه المنطقة تابعة للإمبراطورية العثمانية . وقد سبق التنويه إلى أن قدوم الأتراك العثمانيين إلى هذه المناطق فى القرن الخامس عشر الميلادى أحدث تغيرات هائلة فى المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية وفى باقى مجالات الحياة . ويتحتم هنا أن نشير إلى أن اعتناق أهل هذه البلاد للإسلام لم يكن بالإكراه وإنما تحول أهلها بمحض إرادتهم إلى إعتناق الإسلام وأخلصوا له .

ومما لا ريب فيه أن هذه الفترة من الحكم العثمانى لهذه المنطقة تتميز بإقامة للمستوطنات الجديدة وإطراد عدد سكان المدن ونموها نتيجة للنمو الاقتصادى ، ومن المؤكد أن كل هذا قد تم تحت التأثير الواضح والقوى للمدنية والثقافة الإسلاميتين . وقد حدا هذا بالمسكان المسلمين من أهل هذه البلاد إلى الاهتمام بالحياة الثقافية الإسلامية حتى يصقلوا بنتائجها عقولهم

ويَهذبوا به نفوسهم ، وكان هذا باعثاً على نشر القراءة والكتابة والإقبال المتزايد على التعليم وطلب العلم والعمل على جمع الكتب وتأليفها باللغات العربية والتركية والفارسية .

وأصبحت المراكز التنقيفية في المجتمع الإسلامي الجديد هي « الكتاتيب » والمدارس الإسلامية والمساجد والتكايا . وبالإضافة إلى ذلك تم إنشاء مختلف المكتبات الإسلامية في هذه المنطقة . ومن الملاحظ أنه كان يطلق على هذه المكتبات اسم « المكتبات الشرقية » نظراً لأنها في معظمها تحتوي على كتب مكتوبة باللغات الشرقية التي ذكرناها . وفي المساجد التي تجاوز عددها آنذاك الألف في منطقة البوسنة والهرسك ، كان يتم الحفاظ على مخطوطات القرآن وعلى مختلف الكتب الخاصة بشعائر الصلاة وتعليمها .

وفي التكايا كان من الممكن أن توجد بجانب الكتب الدينية أشعار الصوفية باللغات الشرقية الثلاث ، وفيما بعد بلغتي الشعب : البوسنية أو الصربوكرواتية وكانت المكتبات الموجودة بالمدارس الإسلامية هي أكثر هذه المكتبات أهمية وأفضلها من حيث تزودها بالكتب ، فكانت تحتوي على أشهر المؤلفات في جميع المجالات الدينية والعلمية الخاصة بالدراسة . وكان العديد من هذه المكتبات يتطور وينمو عبر الزمن إلى أن يصبح مؤسسات عامة مستقلة .

وقد خلقت المصالح الثقافية الواسعة الظروف الملائمة واللازمة لتنوع النشاط الثقافي ، هذا بالإضافة إلى الكتب التي كانت تعد من الأشياء المعنوية في العالم الإسلامي . وتكونت طبقة متميزة من أهل البلاد الذين اعتنقوا الإسلام وبذا توافرت لديهم إمكانيات كبيرة لممارسة نسخ الكتب وكتابة التاريخ وقرض الشعر وللاشغال بمختلف الوجوه الأخرى للنشاط الأدبي والثقافي . وكانت الأحوال آنذاك تشجع على شراء الكتب والحفاظ عليها والاتجار بها ، الأمر الذي أدى بالتالي إلى إقامة وانتشار

الكثير من المكتبات الخاصة التى كان يتم فيما بعد وفى أغلب الأحوال ، وقفها للمكتبات العامة بناء على وصية أصحابها .

ويمكننا التأكيد بأن ظهور المكتبات الإسلامية الأولى فى المناطق التابعة ليوغسلافيا سابقاً يرجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ، وبناء على الوثائق التى تم العثور عليها حتى الآن يمكننا كذلك القول بأن أقدم المكتبات فى هذه المناطق هى تلك التى أنشأها إسحق بك قبيل عام ١٤٤٥ م . فى إطار المدرسة الدينية بمدينة سكوبلي فى مقدونية ، إلا أنه من المفروض أنه كانت توجد قبلها فى حوالى عام ١٤٣٠ م . مكتبة بجوار المدرسة الإسلامية فى بيتولا وكان يحاضر فيها الفقيه عيسى .

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر تم إنشاء عدد كبير من المكتبات الإسلامية العامة والخاصة فى جميع المدن الكبرى بالبوسنة وصربيا وكوسوفو . ولم يتم حتى وقتنا الحالى التحقق من عدد هذه المكتبات بسبب لختفاء الآثار الأولى الدالة على ذلك . وفى منطقة البوسنة والهرسك بالذات تم منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر إنشاء ما يربو على المائة مدرسة إسلامية تضم كل منها مكتبة صغيرة أو كبيرة . وفى سرايفو ، المدينة الرئيسية بمنطقة البوسنة ، كان يوجد فى تلك الحقبة خمس مكتبات عامة بالإضافة إلى مائتين من المكتبات الخاصة المختلفة .

والمكتبات التى نتحدث عنها كان يتم تزويدها بالكتب التى يتم جلبها ، أولاً وقبل كل شيء ، من دول العالم الإسلامى . ولقد كان للمسلمين من هذه المناطق عبر القرون صلات دينية وتجارية وثقافية مع الدول الإسلامية . وفى أغلب الأحوال كان كثير من المسلمين من هذه المناطق يرحلون طلباً للعلم إلى أشهر المراكز الإسلامية للعلم والمعرفة مثل القسطنطينية والقاهرة وبغداد ودمشق ومكة والمدينة وغيرها من المدن حيث كانوا يرتقون أعلى المناصب الإدارية والقضائية والدينية والديبلوماسية .

وعند عودتهم إلى وطنهم يحضرون معهم الكتب اللازمة لاحتياجاتهم الخاصة أو لتقديمها هدية للأصدقاء أو لإهدائها للمكتبات العامة . وكان هناك مسلمون آخرون يذهبون إلى هذه الدول الإسلامية بغرض الحج أو التجارة أو العمل وكانوا يحصلون أيضاً على عدد كبير من الكتب يجلبونها معهم .

ويزيد من أهمية المكتبات الإسلامية في كل منطقة البلقان أنه كان يتم تزويدها كذلك بالمؤلفات التي جرت كتابتها داخل تلك المنطقة ، أي ألفها مسلمون من هذه المنطقة .

ومنذ قديم كان يتم في هذه المنطقة نسخ الكتب ومع قدوم الأتراك العثمانيين إلى هذه المناطق تطورت هذه الحرفة واتخذت أساليب أخرى . وهكذا برزت حرفة نسخ الكتب لا فحسب في المدن بل وفي القرى النائية ، وتطلب هذا الإنتاج الضخم من نسخ الكتب اشتغال الناس بحرفة تجليد الكتب ، ومن الطريف أنه كان يوجد بمدينة سرايفو شارعان مخصصان للمشتغلين بهذه الحرفة .

ولقد تعرض الكثير من المكتبات القديمة للتلف وأصيب بأضرار بالغة بسبب الحروب ونتيجة للكوارث الطبيعية والحرائق . ومن أجل كل هذا لا يمكن لأحد أن يكون تصوراً واضحاً عن المكتبات الإسلامية وعن محتوياتها من الكتب وعن كل أنشطتها ، إلا أن ذلك لا يقلل من أهميتها لأنها تمثل جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الثقافي لشعوب هذه المنطقة .

وكان يوجد في الجمهوريات اليوغسلافية السابقة العديد من المكتبات والمعاهد وإدارات السجلات والوثائق التي تحافظ على مثل هذه المخطوطات والكتب وتبحث فيها . ففي سرايفو توجد مكتبة الغازی خسرو بك ومعهد الاستشراف والمكتبة القومية ومكتبة الجامعة بجمهورية البوسنة والهرسك ومصلحة السجلات والوثائق التاريخية ، وفي سكوبلي

توجد مصلحة السجلات والوثائق الحكومية لجمهورية مقدونية ، وفي مدينة زغرب يوجد القسم الشرقي من معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم والفنون وكذلك مصلحة السجلات والوثائق الحكومية ، وفي بلغراد توجد مكتبة جامعة بلغراد والقسم الخاص بالوثائق لدى أكاديمية العلوم والفنون في صربيا ، وفي مدينة موستار توجد مصلحة السجلات والوثائق الخاصة بالمدينة ثم مكتبة دير الأخوين « فرانو » الكاثوليكين ، وفي مدينة بريزنر مكتبة الأوقاف .

ومكتبة الغازي خسرو بك في سرايفو من أقدم المكتبات المشهورة المصانة في جمهورية البوسنة ، وتم تأسيسها في عام ١٩٤٤ هـ - ١٥٣٧ م . ومن المرجح أنه لا بد أن تكون موجودة قبل هذا التاريخ مكتبة قديمة للمراجع تم تأسيسها مع إقامة أول المساجد والمدارس الإسلامية والتكايا ، ولكن لا توجد أية معلومات أكيدة عن هذه المكتبة .

ومكتبة الغازي خسرو بك هي أغنى خزانة للمخطوطات الشرقية الثمينة بهذه المنطقة ، وقد أسسها الغازي خسرو بك الحاكم التركي في منطقة البوسنة . وهو مولود في عام ٨٨٤ هـ - ١٤٨٠ م . في مدينة سيروز في روميليا باليونان حيث كان والده والياً هناك حينذاك . وكان والده يدعى فرهاد بك ابن عبد الغفور ، وأمه هي سلجوق بنت السلطان بايزيد الثاني . وبناء على فرمان سلطاني عثماني بتاريخ الخامس عشر من سبتمبر عام ١٥٢١ م . تم تعيين الغازي خسرو بك والياً على البوسنة التي حكمها طوال حياته مع فترتي انقطاع قصيرتين حتى وفاته في الثامن عشر من يونيو عام ١٥٤١ م . (٩٤٨ هـ .) ، وتم دفنه في ضريح خاص بجانب مسجده في مدينة سرايفو .

وكان الغازي خسرو بك من كبار رجال الحكم والسياسة ومن أبرز رجال الثقافة . وقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً باسمه وبأنشطته كل ما نعتله

وتعني مدينة سرايفو من الناحية التجارية والاقتصادية وكل ذلك الذي يمثل ويعني شيئاً إيجابياً في المؤسسات الاجتماعية والثقافية والخيرية . فقد أوقف سلسلة من الأوقاف الهامة ذات الطابع الثقافي والتعليمي والاقتصادي والإنساني والصحي الخيري ، وكانت تستخدم كقاعدة لمرعة تطوير سرايفو وازدهارها حينذاك . وتطورت سرايفو من التناحيتين الروحية والمادية وأقامت علاقات تجارية واقتصادية وثقافية مع المراكز المحيطة بها وكذلك مع المراكز المماثلة البعيدة بالشرق ، ويقدر ما كان الغازي خسرو بك متديناً وشاعراً . بقدر ما كان أيضاً حاكماً فريداً ومصلاً اقتصادياً .

وقد شيد مسجداً ضخماً يعرف باسمه ، وعلى شماله أقام مدرسة وخانقاه (مكان لأداء الفرائض والتعليم) . ويوجد من ناحية الشرق « كُتَّاب » في حرم الجامع ، وفي الغرب المطعم والمطبخ العمومي (ويسمى بالعمارة) لإعداد الخبز والطعام اللذين يوزعان كل يوم على طلبة مدرسته وموظفي أوقافه وعلى فقراء مدينة سرايفو ، ثم توجد أيضاً « المسافر خانة » والنافورة والحمام العمومي وغير ذلك من المنشآت الخيرية . وفيما بعد أنشأ المسئولون عن إدارة أوقافه أوقافاً جديدة مثل برج الساعة وفندقاً لراحة المسافرين ومكتبة ومستشفى .

وعن طريق إيرادات أملاكه الموقوفة كفل الغازي خسرو بك الوجود المستمر لأوقافه ونظم إدارتها بالوصايا الوظيفية . وفي وصيته الخاصة بالمدرسة وهب ٧٠٠ ألف درهم فضة ، وحدد أن يتم بناء المدرسة بمبلغ ٤٠٠ ألف درهم وأن يتم إنفاق الباقي من البناء على شراء كتب جديدة يتم استخدامها في المدرسة المذكورة لكي يستفيد منها من يقرأها وينسخ منها من يشتغلون بالعلوم .

وليست هناك أية معلومات مؤكدة عن موقع هذه المكتبة وعن كتبها

وعن كيفية تنظيمها في القرون الأولى لوجودها . ومن المرجح أنها كانت موجودة في مكان خاص بها بجانب المدرسة الإسلامية للغازي خسرو بك أو داخل المدرسة نفسها . وفي أثناء الغارة التي شنّها الأمير النمساوي أوجين منافويسكي في عام ١٦٩٧م على سراييفو أصيبت المكتبة بأضرار بالغة وضاعت كتبها . ثم تم نقلها وسرعان ما تم تجديدها ووضعها داخل المدرسة وظلت بها حتى عام ١٨٦٣م . وفي العام نفسه قامت إدارة أوقاف الغازي خسرو بك ، بتشجيع من الشريف عثمان باشا حاكم البوسنة ، بإنشاء مكتبة خاصة بجانب مسجده ، وعلى الفور تم نقل المخطوطات التي كانت تمتلكها المكتبة .

وبمضي الزمن زاد عدد الكتب وازداد معها الاهتمام بالمكتبة . وفي عام ١٩٣٥م . وبناء على قرار من « مجلس العلماء » في ذلك الحين تم الحصول على جزء من دار الإفتاء بسراييفو من أجل احتياجات المكتبة وتم نقلها إلى هذا المكان الجديد ، وفيما بعد (في عام ١٩٥٩) احتلت كل الجناح الأيسر للمبنى أمام المداخل الموصل إلى مسجد السلطان (على الشاطئ الآخر لنهر ميلباتسكا) . وتم توسيع المكتبة في المبنىين الواقعين أمام مسجد السلطان واستمرت فيه حتى وقتنا الحالي .

ولا يمكننا أن نعرف معرفة أكيدة ما هو عدد ونوعية تلك الكتب المخطوطة التي تم شراؤها عند تأسيس مكتبة الغازي خسرو بك لأنه لم تتم صياغة أية وثيقة بهذا الشأن . فقد كان من المعتاد أن يحدد واهب الوقف كل ما يهب ، ولكن في هذه الحالة لم يتم تحقيق ذلك لأن الأمر يتعلق بأموال نقدية . وعلاوة على ذلك فإن الأحداث التاريخية العاصفة ، وعلى الأخص الحرائق المتكررة التي أتت على سراييفو القديمة تماماً ، أصابت ببالغ الضرر الكثير من الآثار التاريخية والثقافية ومنها هذه المكتبة . وهكذا ضاعت أغلبية المخطوطات ولكن تم الحفاظ على جزء منها .

ومن العسير تحديد المكونات الأولى للمكتبة ، ولكن وفقاً لما تم ذكره

فى وصايا الوقف ووفقاً لعدد المواد التى كان يتم تدريسها بالمدرسة يمكن الافتراض بأن المكتبة كانت تحوى كتباً عديدة ذات قيمة كبيرة وتمثل بالتأكيد أفضل الكتب المدرسية والمراجع بإعداد وفيرة . وحيث أن الخط كان مادة إجبارية بالمدرسة فمن المحتم أن المخطوطات المحفوظة بهذه المكتبة كانت متنوعة الخطوط وعلى درجة عالية من جودة الخط ، الأمر الذى تؤكدُه النماذج المحفوظة من المخطوطات .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن مكتبة الغازى خسرو بك حققت بوجودها عبر القرون الهدف الذى قصده مؤسسها وهو قراءة الكتب والتعلم منها ، وكانت الكتب على الدوام فى متناول الجماهير العامة والخاصة .

وعن طريق نسخ المخطوطات تم تجميع كتب من المؤلفات فى مجال الشريعة والتراث الإسلامى والنحو وبلاغة اللغة العربية والفضائل الإسلامية والمنطق والتصوف .

ونضيف بأنه ابتداء من عام ١٨٦٧م بدأت عملية نقل وضم العديد من المكتبات العامة والخاصة والموقوفة ومجموعات من الكتب والمخطوطات إلى مكتبة الغازى خسرو بك . ومن هذه المكتبات على سبيل المثال لا الحصر : مكتبات قنناميرى وعثمان شهيدى وسجلات قضاء سرايفو ومكتبات مدارس عثمان قبطان وحسن نظير وممشاء بك وعثمان أفندى وإبراهيم أفندى ، ومكتبات قراقوز بك ودرويش بك ومصطفى أويوقيتش وتلميذه إبراهيم أويباتش .

وللأستاذ محمد الخانجى الذى عمل لفترة طويلة أميناً لمكتبة الغازى خسرو بك فضل كبير فى زيادة عدد الكتب بالمكتبة ، وبفضله أيضاً تم جمع مجموعات ثمينة من المخطوطات من المكتبات والمدارس الإسلامية والمكتبات الخاصة . وبعض هذه المخطوطات له أهمية كبيرة نظراً لأنه

يرجع إلى القرن السادس عشر . بل أنه تم فى عام ١٩٤٤ م . ضم المكتبة الكبيرة الخاصة بالأستاذ محمد الخانجي إلى مكتبة الغازى . وتقودنا كل هذه المعلومات إلى التقرير بأن مكتبة الغازى خسرو بك تمثل صورة شاملة لجميع المكتبات العامة والخاصة الهامة فى منطقة البوسنة والهرسك .

وتم تجميع كتب مكتبة الغازى ، من حيث مضمونها ثم ترتيبها وفقاً لحجمها ، على رفوف ، وكانت تتم مراعاة المنظر الجمالى العام . وعلى جانب كل كتاب يتم وضع بطاقة صغيرة تكتب عليها الأرقام بخط اليد . ومع زيادة عدد الكتب بدأ إجراء عملية تسجيل مبسطة للكتب فى سجل عنوانه : دفتر الأسماء ، وحجمه ٣٣ × ٢٠ سم . وفى أول صفحتين متقابلتين توجد سبعة أعمدة وهى تمثل رقم المجلد ورقم الكتاب وعدد السطور واسم الشخص الذى وهب الكتاب . وعلى غلاف السجل تم باللغة العربية تسجيل التقسيمات العامة وفقاً للمجموعات التالية : تفسير - حديث - أصول الحديث - فقه - عقائد - لغات - نحو - صرف - منطق - معان - أدب - فرائض (أى الشريعة) - حكم (خاصة بالفلك) - قصائد - تصوف - طب - مواعظ (قصصية) - قراءات (قرآنية) - عروض - فارسى - تاريخ - دواوين شعرية - إحياء (أى علوم طبيعية ورياضية) - متفرقات .

والعيب الرئيسى لهذه البيانات أنها أغفلت المعلومات الخاصة بالمؤلف ، بيد أن هناك حالات تم فيها تسجيل اسم المؤلف على أنه تكملة للعنوان ، وفى أحيان أخرى كان يتم استخدام اسم المؤلف كعنوان للكتاب . وهذه الطريقة فى تسجيل الكتب تمثل نموذجاً للأسلوب الشرقى فى تسجيل الكتب آنذاك ، والبيانات كلها مكتوبة بعناية وتمثل فى حد ذاتها شيئاً نادراً .

وفى عام ١٩٣٧ م . تم البدء فى إجراء إصلاحات بالمكتبة وتم

الاحتفاظ بالأسلوب السابق فى فهرسة الكتب وتسجيلها . ولأول مرة فى تاريخ هذه المكتبة تم الشروع فى عمل فهرس للمكتبة على وريقات مقاس ربع فرخ . وهكذا تم إعداد سجل للكتب المكتوبة باللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية) وسجل آخر للكتب المكتوبة باللغات الأوروبية . والسجل يضم ثلاثة أعمدة لرقم وعنوان الكتاب ولأسم مؤلفه ثم كونه مخطوطاً أم مطبوعاً . وباقى البيانات موجودة فى وريقات الفهرس .

وبعد الاستقلال بعدة سنوات (فى عام ١٩٤٩ م .) بدأت المكتبة تعمل بأسلوب جديد فتم فصل المخطوطات عن الكتب المطبوعة وتم تقسيم الكتب إلى قسمين : قسم شرقى يضم الكتب المكتوبة باللغات العربية والتركية والفارسية ، وقسم أوروبى . وتمت فهرسة الكتب إلى خمسة أقسام : القسم الأول ويضم المخطوطات المكتوبة باللغات الشرقية ، والقسم الثانى ويشمل الكتب والمجلات المطبوعة باللغات الشرقية ، والقسم الثالث ويحتوى على الكتب والمجلات المطبوعة باللغة الصربوكرواتية وباقى اللغات الأوروبية . والقسم الرابع وهو قسم متنوع يتضمن ست مجموعات : الصحف والمجلات ، والمراجع والخرائط الجغرافية والإعلانات والمنشورات والصور . وبالقسم الخامس ثلاث مجموعات : الوثائق والسجلات والدفاتر . ودخل كل قسم يتم ترتيب الكتب على الرفوف وفقاً لحجمها أو حسب ترتيب الحروف الأبجدية ، ويتم حفظ المخطوطات والوثائق التاريخية الثمينة فى خزائن .

وفى عام ١٩٥٠ م . تم تشكيل لجنة لفحص وجرد المكتبة ، وتقرر أن يتم تنظيم المكتبة وفقاً للمبادئ الحديثة والأساليب العصرية وأن يتم تزويدها بالكتب اللازمة ذات القيمة . وهكذا تم استكمال فهرس المخطوطات وفهرس الكتب المطبوعة باللغات الشرقية ، وتم ترتيبه وفقاً للترتيب الأبجدي لعناوين المؤلفات ، وكذلك تكملة فهرس المطبوعات

باللغة الصربوكرواتية وباقى اللغات الأوروبية وتم تنظيمه وفقاً لأبجدية
ألقاب المؤلفين . ويوجد أيضاً بالمكتبة فهرس للدوريات منظم وفقاً
لعناوينها .

ومن أعظم الإنجازات التي قامت بها المكتبة هو إصدار فهرس
للمخطوطات الشرقية ، وفيه قام مؤلفه « قاسم دوبراتشا » بعرض
وصف مفصل لحوالى ١٩٥٧ مخطوطاً ، وصدر منه حتى الآن
مجلدان . ويحمل هذا الفهرس طابع الببليوجرافيا الكاملة ، وقد أثار ظهور
هذا الفهرس اهتماماً عظيماً فى الدوائر العلمية والثقافية فى البوسنة
والهرسك وخارجها . ويفضل هذا الفهرس سهل على القراء والباحثين
الوصول إلى كتب هذه المكتبة وتزايدت بالفعل إمكانات تعاون المكتبة مع
المؤسسات المماثلة .

ويوجد بالمكتبة ما يربو على ٦٥٠٠ مجموعة من المخطوطات
تشتمل على حوالى خمسة عشر ألف مؤلف و ١١١٩٢ كتاباً مطبوعاً
باللغات الشرقية ، وحوالى ١٩٢٢٣ كتاباً باللغات الأوروبية . وتدخل
ضمن محتويات المكتبة المجلدات الكاملة للصحف والمجلات القديمة
ومجموعات الوثائق التركية والسجلات والدفاتر والوصايا الوقفية ،
وكذلك مجموعة مهمة من الخرائط الجغرافية القديمة والإعلانات
والصور . وتمتلك المكتبة عدداً من المعاجم والقواميس المختلفة
والمراجع ودوائر المعارف .

وتوجد بين المخطوطات العربية مؤلفات فى جميع مجالات العلوم
الإسلامية وعلى الأخص فى مجال الشريعة . وتوجد أيضاً مخطوطات
فى مجال فقه اللغة العربية والعقائد والطب والفلك والتنجيم والرياضيات
والعلوم الأخرى .

والمخطوطات والسجلات التركية غنية بالمواد التاريخية والأدبية

ولذا فإن لها أهمية خاصة عند دراسة تاريخ الشعوب اليوغسلافية وآدابها . أما المخطوطات الفارسية فتشتمل على مؤلفات من الشعر الفارسي الكلاسيكي ، وكذلك على بعض المخطوطات النادرة للفن الزخرفي .

وتتوفر في هذه المكتبة مؤلفات كثيرة لأولئك الأدياء من منطقة البوسنة والهرسك الذين ألفوا باللغات الشرقية بحيث أنها تعد مادة فريدة لدراسة هذه الظاهرة الفريدة . وقد ألف هؤلاء الأدياء والعلماء المسلمون كتباً في مختلف الموضوعات والمجالات ومنها علوم القرآن والتفسير ومختلف علوم الدين والحديث والفقه والعقائد والشريعة والتصوف والتاريخ وأدب الرحلات والشعر ، وعلوم الحيوانات والرياضة والمنطق والوعظ والإدارة الحكيمة وتنظيم الدولة وخلاف ذلك من موضوعات . ومن المؤلفين أن هذه المؤلفات ظلت في طي النسيان ، وربما الكتمان لسبب أو لآخر .

وتوجد كذلك مؤلفات كثيرة من الأدب الأعجمي (الهاميدو) ، وهي مؤلفات كتبها مسلمو البوسنة والهرسك بلغتهم الأم وهي اللغة الصربوكرواتية ومكتوبة بالحروف العربية ، وتشمل هذه المؤلفات أجnasاً أدبية فريدة ومتميزة سيجري الحديث عنها في البحث الخاص بالأدب الأعجمي . وتستخدم هذه المؤلفات عند دراسة الأدب القديم في جمهورية البوسنة والهرسك . ومثل هذه الألوان من الإبداع الأدبي لا تختلف اختلافاً جوهرياً ، من حيث مضمونها وشكلها ، عن الألوان الأدبية المعاصرة والتي كانت موجودة لدى باقي الشعوب التابعة ليوغسلافيا سابقاً .

ومجلات هذه المكتبة لها أهمية خاصة من أجل دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لمنطقة البوسنة والهرسك . ويوجد

بالمكتبة حوالي ٤٨ مجلداً من سجلات قضاء سرايفو يرجع تاريخها إلى الفترة من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر ، وحوالي ٤٢١ وصية من وصايا الأوقاف وحوالي ٣٨٠٠ وثيقة من نفس الفترة المذكورة .

وبها أيضاً مجموعات لمختلف المستندات الرسمية للمحاكم الشرعية ، وفيها سجل القضاء أو كتبه المحاكم تسجيلاً كاملاً للقرارات والأحكام واتفاقات البيع والشراء والوصايا ومستندات الإرث والأوقاف وغيرها من المستندات .

ومن بين المخطوطات الثمينة فى هذه المكتبة ما يسمى « بالمجموعات » وهى عبارة عن ملاحظات خاصة متنوعة الموضوعات ألفها وجمعها المسلمون اليوغسلاف من أجل احتياجاتهم واستخداماتهم ، وفيها سجلوا كل ما سمعوه أو حفظوه من المخطوطات أو الكتب القديمة . وفى بعض الأحيان كان مؤلف المجموعة يسجل بعض الأبيات من الشعر من تأليفه ، أو يسجل مناقشة أو أقوالاً تتعلق بحدث معين . وهكذا فإن كل مجموعة تعد مختارات ونماذج فريدة فى شكلها ومضمونها .

وهناك نوع آخر من المخطوطات الأدبية التركية يسمى « بالإنشاء » ، وهى مجموعات من الرسائل البلاغية المنتقاه وتهدف إلى خدمة المكتبة الجدد لاستخدامها عند كتابة وصياغة التقارير والمكاتبات الرسمية والقرارات وما إلى ذلك . ولهذه المخطوطات أهمية الآثار الأدبية نفسها ، وهى من ناحية أخرى تمثل شهادة على العصر الذى نشأت فيه وعلى أسلوب الحياة ، ومن هنا فإنها تفيض بالمعلومات التاريخية الأصلية .

ومعظم هذه المخطوطات الموجودة بالمكتبة ذات قيمة كبيرة من

ناحية مضمونها وجمال كتابتها وزخارفها وكذلك من ناحية قديمها وندرتها . ويتم كذلك بهذه المكتبة الاحتفاظ بمجلدات كاملة نادرة من المجلات والصحف التي كانت تصدر في البوسنة والهرسك آنذاك .

والمكتبة في سياستها الشرائية الحالية لا تقتصر فحسب على المؤلفات المكتوبة باللغات الشرقية بل تحاول التزود بمعظم المؤلفات المحلية والعالمية في مجال الاستشراق وعلى الأخص المراجع اللازمة للبحث في كتبها وتحقيقها .

وكثير من مخطوطات هذه المكتبة تمثل نماذج فريدة في الزخرفة وفي جودة الخط العربي . وعلى سبيل المثال كان يتم رسم النقط على الكلمات في شكل زهور وأوراق شجر وغصون وورود من مختلف الأشكال . ويتم كتابة النص نفسه بالحبرين الأسود والأحمر ، وفي بعض الأحيان بالحبر الأزرق . ويتم وضع إطار حول النص في شكل شرائط ذهبية أو فضية أو وضع شرائط رفيعة باللون الأحمر أو الأزرق أو الأخضر . وتزيد من ثراء الألوان النماذج الصغيرة المصورة والملونة بجميع ألوان الطيف . وعلى هذا النحو تتم زخرفة الهوامش ، وفي بعض الأحيان تتم زخرفة صفحات كاملة . وليس من النادر في هذا المضمون استخدام الذهب والفضة لطلاء الأرضية الورقية مما كان يزيد من وضوح الإطار ويضفي حيوية على الشكل الإجمالي .

ومن الواضح أنهم كانوا آنذاك يهتمون بأغلفة المخطوطات وطرق تجليدها . وكان يتم استخدام الكرتون المغلف بالجلد والملون بالأسود أو البني أو الأصفر أو الأخضر أو الأحمر ، وبعد ذلك تتم زخرفة الجلد بمختلف الزخارف والنقوش الهندسية ورسوم النباتات . ويتم استخدام غطاء ذهبي أو غبار الذهب من أجل تغطية المساحة كلها أو من أجل لإبراز الرسم .

وهناك مصاحف تعد آية فى الجمال والروعة والذوق الرفيع وقد لا نجد لها مثيلاً فى دول إسلامية أخرى . ومن أشهر المصاحف الموجودة بالمكتبة هو المصحف المنسوخ فى عام ١٨٤٩م . فى بلدة « كريم » ، وهذه النسخة من المصحف تعد النسخة الرئيسية التى يتم وفقاً لها تصحيح ومراجعة باقى المصاحف المخطوطة ، وهذا المصحف المخطوط مقاس ٣٢ × ٢٠,٥ سم ومجلد بجلدة خضراء قائمة ومزين بزخارف ذهبية بارزة . ومع الغلاف توجد أوراق خضراء لحماية المصحف وجراب جلدى مشابه للغلاف .

والآيات القرآنية مكتوبة بخط النسخ الكبير على ورق أصفر رقيق جميل ، ويتم فصل السطور عن بعضها بخطين أسودين وبخط ذهبي . وعلى حافة الصفحة يوجد خطان سوداوان رفيعان وتوجد خطوط ذهبية عريضة . ويتم فصل الآيات القرآنية بنقاط ذهبية كبيرة وبزهور ونجوم ، كما تتم كتابة الإرشادات والتوجيهات باللون الأحمر ، والغرض من الزهور المتعددة الألوان ليس زخرفياً فحسب وإنما تتم فى وسطها كتابة بعض العناوين . وكل هذا يشكل تناسقاً فريداً للخطوط والألوان . ومن غير المؤلف فى المعالجة الفنية لهذا المخطوط هو استخدام الفنان لمجموعة من الألوان ذات كثافات وتفاوتات مختلفة ومنها الأزرق اللازوردى والأزرق والكوبالتى والأحمر والقرمزي والأصفر البرتقالى والأخضر والبرتقالى والبنفسجى ثم الأبيض والأسود ، ثم استخدام الذهب بوفرة .

وبناء على كل ما تقدم فيمكننا التأكيد بأهمية هذه المكتبة وخطورة الدور الذى تحتله فى مجال دراسات الاستشراق ، وتنبع أهميتها أساساً من كونها معيناً لا ينضب وثروة لا حدود لها لدراسة تاريخ الشعوب البوغسلافية وشعوب الدول الأخرى التى كانت تحت السيطرة العثمانية ، وكذلك لدراسة الأدب المكتوب باللغات العربية والتركية والفارسية والفنون الشرقية والفنون المعمارية فى هذه المناطق .

والهلى أكون قد استطعت بهذه المعلومات المبسطة أن أمهد لإلقاء ولو بصيص من الضوء على أهمية هذه المكتبة وعلى الدور العظيم الذى لعبته فى حياة المسلمين بهذه المناطق ، ولعلنى أكون قد أثرت همم الزملاء من الباحثين والمهتمين بهذا المجال لكى يطوروا سبل البحث المختلفة ويمهدوا سبل التعاون من أجل التعرف على المزيد من مكونات هذه المكتبة الإسلامية .

مدرسة الغازى خسرو بك

أقدم مدرسة إسلامية

هناك عبارة منقوشة على مدخل مدرسة الغازى خسرو بك بمرافق ترحب بالزائرين والقائمين وتذكر أولئك الذين مروا عبر هذا المدخل منذ ما يزيد على أربعة قرون ونصف القرن ، بقولها : « شُيد هذا المبنى من أجل أولئك الذين يطلبون العلم ... » .

وفى عام ١٩٨٩ احتفلت هذه المدرسة مع غيرها من المشروعات الخيرية التى بناها الغازى خسرو بك بمرور أربعين سنة على إنشائها بطريقة فريدة ، لم تحتفل بها أية مدرسة فى العالم . فمع الاحتفال اليوبيلى الذى أقيم داخل المدرسة التى لبست أحلى ثيابها من أجل هذه المناسبة الجليلة فقد تم إعداد معرض يقدم للمشاهدين والمتربدين صورة لتاريخ المدرسة وعدم انقطاع أنشطتها خلال كل هذه الحقبة الطويلة . ولن يكون عسيراً على المشاهد أن يعيد قراءة القرون وصفحات تاريخها المديد من خلال مختلف المعارضات من كتابات وأدوات مستخدمة باقية من السنوات الأولى لإنشائها ومن معدات وكتبها المدرسية وغير ذلك من معروضات أثرية طريفة . وحظى المعرض باهتمام كبير من جانب الزوار الذين توافدوا عليه ، وكذلك باهتمام وسائل الإعلام اليوغسلافية آنذاك .

ويرجع ، دون شك ، تاريخ المدارس الإسلامية وبداية إنشائها باليومنة والهرمسك إلى العهد الذى كانت فيه هذه المناطق تابعة

للامبراطورية العثمانية . فقد تقبل الأتراك العثمانيون ، باعتبارهم شعباً إسلامياً ، العديد من المكاسب والإنجازات الخاصة بالشعوب الإسلامية الأخرى . ومن بين هذه المكاسب إقامة المساجد والمدارس الإسلامية والكتاتيب . وأخذ الحكام والأمراء يتسابقون إلى إقامتها وإنشائها ، واقتدى بهم في هذا المضمار كبار رجال الدولة والأثرياء وغيرهم . ومن أجل استمرار هذه المؤسسات ذات الطابع الديني التعليمي كانوا يوقفون لها تركلات كبيرة تسمى بالأوقاف . وأصبحت هذه الأماكن مراكز عامة للثقافة والتعليم في المجتمع الإسلامي الجديد ، ومشائل للثقافة والتعليم في المجتمع الإسلامي الجديد ، ومشائل للثقافة الإسلامية في الجزء الغربي من الامبراطورية العثمانية . وكانت هي المدارس الوحيدة في منطقة البوسنة والهرسك بشكل خاص لأنه لم تكن توجد حينذاك مدارس نظامية علمانية . وتعد المدارس الإسلامية مدارس عليا ذات مستويات متباينة ، وهذا المستوى يرتبط بتصوير مؤسسها وبالبرنامج الذي رسمه وحدده ، ومستوى المدرسين الذين يقومون بالتدريس فيها .

وعن طريق الثقافة الإسلامية أخذ المسلمون الجدد بهذه المناطق يتقبلون أفكار الإدارة العثمانية ، وأصبحوا سندا قوياً للحكم العثماني في هذا الجزء من أوروبا . وفي مرحلة تقدم ونهوض الدولة العثمانية كان مسلمو البوسنة والهرسك يمثلون الطليعة والمقدمة في غزوات العثمانيين .

وخلال تجواله في منطقة البوسنة والهرسك في النصف الثاني من القرن السابع عشر سجل الرحالة التركي المعروف أوليا شلبى عدة معلومات هامة وثمينة عن الكتاتيب والمدارس الإسلامية . وفي وصفه لمدينة سرايفو في عام ١٦٦٠ ذكر أن بها الكثير من الأساتذة ومفسرى القرآن ، وأقر بأن مدرسة الغازى خسرو بك هي أجمل المدارس وأضخمها آنذاك .

وتشتهر مدرسة الغازى خسرو بك لدى جماهير الشعب العريضة أكثر من أى عمل خيرى آخر من أعماله . ونسبة لاسمه سُميت المدرسة « بالخسروية » بينما أطلق عليها أفراد الشعب اسم « كورشوميلية » نسبة إلى كلمة « كورشوم » التى تعنى الرصاص الذى كان يغطى مبنى المدرسة . ومن ناحية أخرى أُقيمت هذه المدرسة احتفاءً بوالدة الغازى خسرو بك ، السلطانة السلجوقية ، ونسبة لها تسمى المدرسة أيضاً بالسلجوقية .

وقد تم الانتهاء من تشييد هذه المدرسة فى عام ٩٤٤ هجرية الموافق ١٥٣٧ - ١٥٣٨ ميلادية ، وذلك بعد الانتهاء من بناء « الخانقاه » والمسجد الذى يقع بالقرب منها . والمدرسة ، من الناحية المعمارية ، مشيدة على نظام المدارس العثمانية التقليدية التى عادة ما تكون مستقلة وتتخذ موقعاً لها بجوار أحد المساجد ولها فناء داخلى محاط من جميع الجهات بحجرات للتلاميذ والأساتذة وحجرة لإلقاء الدروس . وتعد مدرسة الغازى خسرو بك أبرز نموذج لمدرسة بهذا النظام . وهى كذلك أقدم مدرسة تم الحفاظ عليها ، وتعد من الناحية المعمارية أهم مدرسة بين جميع المدارس الإسلامية التى تم تشييدها فى البوسنة والهرسك .

ولم يتم حتى الآن الكشف عن شخصية مشيد هذه المدرسة ، إلا أن نظام المبنى نفسه وطريقة تصميمه تشير إلى أن مشيدها كان مهندساً معمارياً ممتازاً ، خبيراً بمهنته عليمًا بحرفته ، فقد سيطر على ناصية المبادئ الجمالية والهندسية لفن المعمار العثمانى . ومن الأرجح أن مهندسها المعمارى كان تركياً بسبب تطبيقه لنظام المدارس العثمانية التقليدية . ومن المحتمل أنه قام بتشيدها تحت تأثير المدارس الإسلامية بالقسطنطينية وعلى الأخص مدرسة عاتق على باشا .

والمدرسة مشيدة فى مواجهة مسجد الغازى خسرو بك فى فناء

يفصلها عن الشارع . وهى مبنية من قطع الأحجار ، ولكنها أصغر فى أبعادها (١٨,٥ x ٢٣,٥ متر) . ويوجد أمام مبنى المدرسة فناء صغير ، وعندما يدخل المرء فناء المدرسة المنفتح نحو زرقة السماء يتملكه إحساس بأنه منفصل عن العالم الخارجى ومتوجه صوب عالم خيالى غير واقعى .

ومن الفناء الخارجى يظهر المنظر الجميل الرائع لواجهة المدرسة التى تتوسطها بوابة ضخمة يتخذ أعلاها شكلاً هرمياً مدرجاً والبوابة مصنوعة بشكل زخرفى وكأنما أريد بها التركيز على أهمية المبنى . وتظهر البوابة من خلال تجويف عميق ينتهى بزخرفة فى شكل سواقط . وتحاط فتحة المدخل بإطار حجرى بسيط وتنتهى بقنطرة دائرية . وفوق الفتحة نقشت الكتابة الزخرفية التى أوردناها . وعلاوة على ذلك فالبوابة محاطة بإطار حجرى يرتفع فوق واجهة المبنى . وهذه البوابة فريدة فى شكلها ولا يوجد مثيل لها إلا فى هذا المسجد .

وتظهر كذلك من الفناء الخارجى مجموعة القباب بأحجامها المختلفة التى تسطف حولها المداخل العالية ذات القمم المدببة ، وهى تمنح هذا المبنى العتيق جمالاً خاصاً وحيوية فريدة ونوعاً من السحر الخيالى المتميز . والقبّة الكبيرة لحجرة الدرس تربط كل هذا فى تناسق وانسجام .

ويوجد فى عمق المدخل ممر يودى إلى فناء المدرسة الذى يشكل محور المبنى ، وهو محاط برواق مقنطر وسبعة أعمدة . والسماء الزرقاء التى تظهر من خلال القناطر تستحث المرء على التأمل والتفكير إلى ما لا نهاية حيث أن كل هذا الجو المحيط والجمال المتناسق يثير لدى الزائر حالة نفسية خاصة وانطباعاً بجديّة المكان .

وتتوسط الفناء نافورة صغيرة تبهج الناظرين ، وهنا يظهر بوضوح تناسق داخلية المكان ويستشعر المرء ألفة غير عادية . ونقع فى المنطقة

المحيطة ، فى شكل دائرى ، اثنتا عشرة حجرة صغيرة مسقفة بالقباب .
والحجرات مربعة الشكل $2,9 \times 2,9$ متر ، ولها مدخل من الرواق .
وتتم إنارة الحجرات عن طريق النوافذ المتجهة صوب القناء . وكل حجرة
لها مدفأة وترتفع مدخنتها عالياً فوق المبنى . ولا توجد أية تفصيلات زائدة
بداخل الحجرات وبذلك تثير الإعجاب ببساطتها وتترك انطباعاً بالرحابة
بالرغم من عدم اتساعها . وفى مواجهة مدخل المدرسة توجد حجرة
الدرس ، ووفقاً لأبعادها الداخلية فهى ليست كبيرة ($6,5 \times 6,8$ متر)
وهى أيضاً مسقفة بقبة كبيرة .

وأجريت إصلاحات بالمدرسة عدة مرات . وكانت أعظم مصيبة
بالنسبة لهذا المبنى هى تلك الترميمات التى قام بها فى عام ١٩١٠
أشخاص على غير دراية كاملة بمثل هذه الأمور . فقد تم رفع مستوى
أرضية المدرسة وكذلك فتحات النوافذ والأبواب . وعندئذ تم تركيب نوافذ
غير مناسبة بالمرة ، أساءت إلى شكل المبنى كله . وظهرت بوضوح آثار
الفتحات السابقة التى من الراجح أنها كانت مستطيلة الشكل ، وتم إكمالها
بنصف قوس كما هى العادة فى المدارس العثمانية التى جرى تشييدها فى
نفس الحقبة .

ولقد انتهت منذ عدة سنوات أعمال الترميم والتجديد التى قامت بها
هيئة الحفاظ على آثار مدينة مرافو . وتم نزع البياض من على الواجهة
وتجديد وترميم القباب وإعادة طلائها . وخلال أعمال الترميم تم العثور
على المستوى القديم للأرضية التى صنعت من قوالب من القرميد ذات
ثمان زوايا . وتم خفض مستوى الأرضية وتجديد النوافذ . وكل هذه
الإصلاحات أعادت إلى المبنى شكله الأصلى .

وتعد ذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ هذه المدرسة ومكانتها تلك
«الوقفية» التى تركها الغازى خسرو بك وصدق عليها لدى المحكمة
الشرعية فى السادس والعشرين من رجب عام ٩٤٣ هجرية (الموافق

الثامن من يناير عام ١٥٣٧ ميلادية) . وفيها أوقف لهذا الغرض مجموعة من الأملاك العقارية في سرايفو ومبعمائة ألف درهم من الفضة من صافي أملاكه ، على أن يتم تأجير العقارات بالطريقة الشرعية وفقاً للعادات الصحيحة . ويخصص من هذا المبلغ أربعة آلاف درهم من أجل « تشييد مدرسة شريفة رفيعة البنيان جليلة القدر بين الخواص والأعيان ... » على الأرض الواقعة صوب باب المسجد .

وتشتمل الوقفية على تعليمات دقيقة بشأن كل الأمور بدءاً ببرنامج التعليم وبأخلاق المعلمين وانتهاء بالتزامات الطلاب ومستواهم . وتحدد أيضاً المواد التي ينبغي دراستها من علوم التفسير والحديث والأحكام والأصول والمعاني والبيان والكلام، وتنوّه إلى إمكانية إضافة علوم أخرى « وما سائر ما حسب ما يقتضيه العرف والمقام » . وهذا يشهد بالرؤية الشاملة الحاملة غير المتحجرة لمؤسس هذه المدرسة . وبذلك أصبحت هذه المؤسسة التعليمية منذ بدايتها منفتحة أمام العلوم الجديدة والمضامين الدنيوية الحديثة .

ومن الجلى أن خسرو بك كان يهدف إلى جعل هذه المدرسة ذات مستوى عال ، وإلى جعلها كوناً صغيراً ومؤسسة علمية تسير روح العصر وتجب على كل مطالب العلم الإسلامى وهذا هو ما حققته بالفعل عبر الأزمان .

وقد تخرجت فى هذه المدرسة خلال ما يزيد على الأربعة قرون ونصف القرن أجيال عديدة من المتعلمين والقائمين بالفتوى والقضاة والعلماء الأكفاء والمدرسين والأئمة والشعراء وغيرهم . وبعض منهم تجاوزت شهرته حدود البوسنة والهرسك نتيجة لإنجازاته العلمية والثقافية ، وكان منهم شيخ الإسلام وأول رئيس للمسلمين فى يوغسلافيا سابقاً .

واكتسبت هذه المدرسة سمعة طيبة رفيعة بسبب أنشطتها طوال عمرها المديد ، ولأدائها لمهمتها الجليلة أصبحت مشهورة وذائعة الصيت فى جميع أنحاء اليوسنة والهرسك . وجرى التدريس بها وفقاً للنظام المنصوص عليه فى الوقفية لعدة سنوات بعد الاحتلال النمساوى المجرى لهذه المنطقة . وحتم النظام الجديد والظروف الناشئة عن هذا الاحتلال حدوث تغيرات فى أسلوب تأهيل رجال الدين .

وكانت هذه المدرسة موجودة فى حالة طيبة إلى ما قبل العدوان الصربى على سرايفو . وكانت هى المدرسة الإسلامية الوحيدة فى تلك المنطقة واستمرت تواصل عملها ونشاطها منذ ما يربو على أربعمئة وأربعة وخمسين عاماً .

مسجد آلاجا فى مدينة فوتشا

منذ منتصف القرن الخامس عشر ، وبالتحديد منذ أربعمئة وواحد وأربعين عاماً ، تنعكس على المياه الصافية لنهر تشيهوتينا صورة لواحد من أجمل آثار الفن الإسلامى فى البوسنة ، وهو مسجد آلاجا بمدينة فوتشا الواقعة فى شرق البوسنة .

وحيثما يجرى الحديث عن آثار الفن الإسلامى الموجودة على أرض البوسنة والهرسك فإنها تفرض نفسها بشكل تلقائى الآثار المعمارية الضخمة التى بلغت فى هذا المجال من النشاط البشرى أقصى حد للجمال والروعة . وتشهد بهذا النشاط الهائل مجموعة من المساجد الباقية حتى الآن والأبنية الهامة الأخرى التى جرى تشييدها خلال فترة الحكم العثمانى لهذه المنطقة .

ومن أشهر تصميمات المساجد فى البوسنة المسجد الذى له قبة واحدة وبه ساحة واحدة وله رواق مغطى بثلاث قباب . وقد نما هذا الشكل فى الأناضول وظهر فى البوسنة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ويتميز فى هذا المضمار مسجد آلاجا فى فوتشا بين العديد من أماكن العبادة المشيدة من الأحجار وفقاً للتصميم المذكور فى تلك الحقبة . ومن هنا فهو يعد عملاً رائعاً من أعمال العمارة الإسلامية العثمانية التى عاشت عصرها الذهبى خلال القرن السادس عشر فى البوسنة والهرسك . كما أنه يعتبر فخراً للأجيال التالية فى هذه المنطقة ، وقدم للخبراء والمختصين الفرصة لتقييم عمق تغلغل التأثيرات الإسلامية .

وقد شيده حياً فى الله فى عام ٩٧٥ هجرية (١٥٥١ ميلادية) فاعل الخير حسن الناظر بن يوسف فى المكان الذى تتلاقى فيه فى عنف مياه نهر درينا مع مياه نهر تشيهوتينا . ولا يتوفر الكثير من المعلومات المكتوبة عن مؤسس هذا المسجد الرائع . وغير معروف على وجه الدقة إلا أن اسمه حسن بن يوسف وأنه كان فى منتصف القرن الخامس عشر يقوم بوظيفة « ناظر » يشرف على إيرادات الامبراطورية العثمانية فى منطقة سنجق الهرمك الذى كان مركزه يقع فى مدينة فوتشا . ويشهد هذا المسجد الجميل الواقع على الشاطئ الأيمن لنهر تشيهوتينا بأن « الناظر » فى ذلك الحين كانوا يتكسبون جيداً . وقد حول حسن اسم وظيفته الرسمية إلى لقب له فقد ظل معروفاً ومدوناً باسم حسن الناظر .

وخلال ما يقرب من الخمسمائة عام حقق مسجد آلاجا فى فوتشا الغرض المشيد من أجله . وظل المسجد فى القرون الخالية شاهداً على استمرار واختفاء امبراطوريات وممالك وانهيار نظم ونشوب حروب . فهو شاهد على ثلاثى الامبراطوريتين العثمانية والنمساوية المجرية ، وعلى انهيار المملكة اليوغسلافية القديمة وعلى تشييد يوغسلافيا الاشتراكية ثم انهيار النظام الشيوعى بها ونشوب الحرب الأهلية وغير ذلك من الأحداث .

وخلال كل هذه القرون كان مسجد آلاجا وظل نمونجاً من النماذج الفريدة للحضارة الإسلامية ولتراث المسلمين فى البوسنة والهرسك ، ويؤكد الخبراء أن أعمال الفن التشكلى الموجودة بالمسجد تماثل وتضارع تلك الأعمال الفنية التشكيلية الموجودة ببعض المساجد الأخرى وربما تفوقها قيمة وروعة .

وقد أبدى الرحالة المعروف أوليا شلبى فى كتاباته ملاحظة بأن المهندس المعماري الرئيسي رمضان آغا ، باعتباره ممثلاً عن المهندس

سينان المهندس الأول للامبراطورية العثمانية ، صمم وشيد هذا المسجد الرائع بحيث لا يمكن أن يكون له مثيل . فالمنبر والمحراب والنوافذ مشيدة على نحو يضيف على الجو العام للمسجد - وفقاً لكلام شلبى - نوعاً من السحر . هذا بالإضافة إلى الحوض الجرى وصنابير المياه ، وإلى الضريح الجرى بقبته والضريح المرمرى الخاص بمؤسس المسجد حسن الناظر ، علاوة على وجود مجموعة كبيرة من الشواهد القديمة للقبور .

وهناك قيمتان رئيسيتان تمنحان مكانة خاصة لمسجد آلاجا بين غيره من المساجد والآثار الإسلامية ؛ وهما التصميم المعماري للمسجد والرسوم الموجودة على جدرانه . ويلزم التنويه إلى أن الزخرفة مخالفة للسنة .

واشتهر المسجد برسوماته الموجودة على الجدران أكثر من شهرته بسبب تصميمه الهندسي المعماري . وبناء على هذه الرسومات حصل المسجد على اسمه المشهور مسجد آلاجا (أى المسجد المزركش) . وتلاحظ وجود أسلوبين في الرسم وذلك عند التأمل في المساحات المرسومة على الجدران والتي تبلغ عشرات الأمتار المربعة ، والأسلوب الأول أخذه الأتراك العثمانيون عن السلاجقة ، والأسلوب الثانى هو الأسلوب الصينى فى الرسم الذى من المرجح أنه وصل إلى العثمانيين عن طريق فارس .

وتتخذ الرسوم الموجودة على الجدران شكل زخارف نباتية وهندسية ثرية ذات قيمة فنية عالية . ومن الحتم التنويه فى هذا المضمار إلى أن مسجد آلاجا قد أصبح نموذجاً لرسومات مشابهة فى مساجد أخرى . وهذه الحقيقة تؤكد القيمة الفنية لهذه الرسومات . وهذه الرسومات لها بوجه عام طابع زخرفى وتستخدم فى المقام الأول لتزيين وزخرفة

المسجد . وعن طريق استخدام الزخارف النباتية ذات الأصل العربي تم بمرور الزمن في منطقة البوسنة والهرسك إثراء فني الرسم والمعمار بالعديد من الأشكال الجديدة . وهذه الزخارف الموجودة على جدران مسجد آلاجا هي التي تزيد من قيمته بين غيره من آثار العمارة الإسلامية في البوسنة .

وتم تنفيذ هذه الزخارف الكثيفة على الجدران وفقاً لتقنية « أليسكو » من حيث دقة الرسومات وثراء الألوان وكذلك تنوع المونيفات . وكل هذا يؤكد المقولة التي تفيد بأن هذه الزخارف ترجع إلى الفترة التالية مباشرة لتشييد المسجد (أى حوالي عام ١٥٥٠ م .) ، وأنها من رسم فنان يرجع أصله في الأرجح إلى منطقة فارس .

ومسجد آلاجا في فوتشا (وكذلك مسجد الغازى خسرو بك وعلى باشا في سرايفو وقرافوز بك في موبتلر وفرحات باشا في بانيلوكا ويوسف باشا في ماجلاي والحاج على في بوتشيتيلي وسينان بك في تشابيتش) هو نموذج للأسلوب المعماري العثماني التقليدي المنبثق عن مدرسة الفنانين النباتيين العثمانيين المشهورين أمثال المهندسين : خير الدين وسينان .

وقد نوهنا إلى عدم وجود الكثير من المعلومات المسجلة عن مؤسس المسجد . وحيث أنه لا توجد معلومات فإنه تتوفر على الفور الأساطير . ولإحدى هذه الأساطير تقول أن مؤسس المسجد حمن الناظر أصله من إحدى القرى الوقفية بالقرب من فوتشا . وقد ذهب في شبابه للعمل بالخارج في القسطنطينية وهناك أحرز تقدماً كبيراً . وبعد أن كسب مبلغاً كبيراً من المال عاد إلى بلدته فوتشا ، وما أن رآته أمه حتى اغظت أنفاسها من هول المفاجأة . وكان هذا هو الدافع في أن يبدأ حمن الناظر في تشييد مسجد . ومن أجل ذلك قام باستدعاء أحسن العمال وأشهر الرسامين وأكبر مهندسين .

وقد سجل الكسندر ديروكو في كتابه « درينا » أسطورة نقول كيف أنه في أثناء تشييد المسجد وقع حجر أسود أمام المدخل . وقد اعتقدت النسوة في بركة هذا الحجر وأخذن يتوسلن أمامه طالبات من الله العون والمساعدة . ويقول الكاتب أن الله قد حقق لهن طلبهن ، ذلك أنه في عهد حسن الناصر سالت الرفاهية وزاد الخير .

إلا أن القيمة الفريدة لهذا الأثر الحضارى لم تكن دافعا كافيا لأن يتم الحفاظ على مسجد آلانجا وحمايته من الانهيار . وخلال الحقبة الأخيرة استمرت ببطء شديد أعمال الصيانة والتجديد من أجل ترميم المسجد وإعادة الضياء للرسومات الموجودة على الجدران ولكن دون جدوى . وبسبب ما تعرض له المسجد من تدنيس وهجوم اضطرت السلطات في عام ١٩٩٠ إلى إحاطته كله بالأسلاك الشائكة . واستقبل المسجد ذكرى تشييده منذ ٤٤١ عاماً وهو محاط بهذه الأسلاك .

وبهذه المناسبة تم في فوتشا تحت رعاية مشيخة الجماعة الإسلامية في البوسنة والهرسك الاحتفال بهذه الذكرى . وانهقد مؤتمر علمي تحت عنوان « الثقافة الإسلامية في منطقة فوتشا » ، وقد حضر هذا المؤتمر لفيف من الباحثين والمتخصصين وذلك بالإضافة إلى رئيس الطائفة الإسلامية حاج يعقوب سليمومسكى وصالح أفندى تشولاكوفيتش رئيس مشيخة الطائفة الإسلامية بالبوسنة والهرسك .

وتحدث الدكتور أحمد ألتيشيتش عن انتشار الإسلام في منطقة فوتشا ، ونوه إلى أن انتشار الإسلام تكثف بعد وقوع البوسنة تحت السيطرة العثمانية . وتفيد نظريته أنه لم يتم فرض الدين الإسلامى بالقوة بل تم قبوله طواعية وعن اختيار من جانب السكان الذين كانت أغلبيتهم تدين باليهودية .

أما الدكتورة خديجة تشار الباحثة بمعهد الاستشراق في سرايفو فقد

درست ماضى مدينة فوتشا فى وقت أكبر ازدهار لها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وبدأت الثقافة الإسلامية تنمو فى هذه المدينة بعد أن أصبحت مركزاً اقتصادياً وإدارياً هاماً لسنجق الهرسك ولأخذت مؤسساتها التعليمية تمنح أكبر الدرجات العلمية آنذاك ، ونشأ حينذاك أيضاً أضخم المباني .

وأشار الدكتور إنس بيلديا إلى أن هذه المدينة أصبحت مزاراً هاماً ، فقد زارها العديد من الرحالة الأجانب الذين مروا بالمدينة أو زاروها فى مهمات ديبلوماسية فى أغلب الأحيان ، ويشتهر من بينهم الرحالة الإيطاليون والفرنسيون والانجليز والأتراك ويعد ما سجلوه من ملاحظات ومعلومات مصادر ذات قيمة كبيرة لإلقاء نظرة على تاريخ البوسنة والهرسك ومدينة فوتشا عبر القرون الماضية .

وفى إطار الاحتفالات بمرور ٤٤١ عاماً على إنشاء مسجد آلانجا تم افتتاح معرضين عن الثقافة الإسلامية . المعرض الأول أعده متحف مدينة فوتشا ، والمعرض الثانى أعده الفنان جمال كرفافاتس . وفى اليوم التالى جرت لإزاحة الستار عن تكية النقشبندى التى يزيد عمرها عن خمسمائة عام والتى بجرى ترميمه وإصلاحها بالتبرعات الخيرية من المسلمين .

الكتاتيب

ربما تتعجب عزيزى القارئ وتتماهل فى دهشة وإستغراب عن ماهية هذه الكتاتيب وحكايتها . وقد لاتزول دهشتك زوالاً كاملاً حينما أؤكد لك أنها بالفعل كتاتيب حقيقية مثل تلك الكتاتيب التى كانت موجودة إلى عهد قريب للغاية فى الدول الإسلامية والعربية والتى تلقى فيها تعليمه كثير منا وتعلم أول الحروف العربية وأولى آيات القرآن الكريم وغيرها من مبادئ الدين الإسلامى .

ولكن من المؤكد ، أيها القارئ المبجل ، أن دهشتك ستلاشى بالفعل بعدما تنهى قراءة هذه الدراسة وتعرف كيف ومتى نشأت هذه الكتاتيب والهدف منها وتتعرف على المواد التى كانت تدرس بها وتطلع على التقاليد التى كانت تحكمها وتسير عليها وما شابه ذلك من معلومات كانت إلى عهد قريب مجهولة وواقعة تحت ظلال الكتمان . ولكن بعد أن اقتحمت الديمقراطية أبواب هذه المنطقة وعادت إلى المسلمين فى البوسنة والهرسك هويتهم الإسلامية تكشف الكثير من الحقائق التى كانت تزرع عن عمد واضح تحت منائر الكتمان والنسيان .

ومن المعلوم أنه بمجرد سيطرة الأتراك العثمانيين فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى على منطقة البوسنة والهرسك ونشرهم الإسلام بين سكانها الذين تقبلوه طواعية وبمحض رغبتهم وكامل إرادتهم - نقلوا إليها بعض عناصر الإنجازات الإسلامية المأخوذة عن المسلمين العرب ، ومنها الكتاتيب والمدارس الإسلامية والمساجد .

وهكذا تواجدت الكتائب الأولى في البوسنة والهرسك في بدايات القرن الخامس عشر ، وأخذت في الانتشار وتزايد عددها بحيث ظهرت في جميع المدن والقرى تقريباً في منطقة البوسنة والهرسك . وأصبحت تمثل مراكز عامة للثقافة والتعليم في المجتمع الإسلامي الجديد ، ومشائل لغرس ونشر الثقافة الإسلامية في هذه المناطق الجديدة الواقعة في الجزء الغربي من الإمبراطورية العثمانية .

وكان يتم تشييد هذه الكتائب بجوار المساجد في أغلب الأحوال . ونظراً لضياع الكثير من الوثائق والمستندات الخاصة بهذه الكتائب العديدة فإنه يصعب علينا في هذا المجال التحدث عن كل كتاب على حدة ولا يمكننا هنا إلا إبراز السمات والخطوط العامة لها .

وأغلبية الكتائب في البوسنة والهرسك مقامة بفضل المبادرات الشخصية ، وبعض منها مشيد على أنه مؤسسة خيرية بمعرفة أصحاب الأوقاف بحيث يتم الإنفاق عليها من ريعها . وفي أغلب الأحوال كانت الكتائب في حالة مالية جيدة وتلقي إقبالاً طيباً ، ولها أهدافها المحددة المتمثلة في إكتساب التعليم الديني الأساسي .

ووفقاً لسماتها العامة فقد كانت هذه الكتائب مشيدة تبعاً لنماذج الهندسة المعمارية العثمانية إلا أنها بالرغم من ذلك كانت متأثرة إلى حد كبير بالتقاليد المعمارية المحلية . وكان يقوم بتشبيدها عمال البناء المحليون ويستخدمون في ذلك - في أغلب الأحوال - الخشب وقوالب الطوب اللبن والحجارة ، بينما كانت ألواح الحجرية تستخدم لإعداد السقف وتتراوح أحجام حجرات الدراسة من ٣×٤ إلى ٧,٥×١٢ متر ، وارتفاعها ما بين ٢,١ إلى ٢,٦ متر .

وتتمتع الكتائب في البوسنة والهرسك عامة ببساطتها وتواضعها الشديد وصغر مساحتها وخلوها من الزخارف والنقوش الإسلامية

الجميلة . ويتميز من بينها بشكل خاص كتاب الغازى خسرو بك بمدينة سرايفو ، والكتاب الموجود عند مسجد ألتون عالم فى مدينة نوفى بازار .

ولنفس الأسباب المذكورة آنفاً يصعب تحديد عدد الكتاتيب فى البوسنة والهرسك . وتذكر المصادر الرسمية أنه فى عام ١٨٧٠ كان يوجد بمنطقة البوسنة والهرسك ٨٥٠ كتاباً ينتظم فى الدراسة بها ٣٩٤٧٢ تلميذاً وتلميذة (بالتحديد ٢٨٦٠٨ تلميذاً و ١٠٨٦٤ تلميذة) ، وهو رقم ليس صغيراً بأى حال من الأحوال . وفى عام ١٨٧٦ بلغ عدد الكتاتيب ٩١٧ كتاباً يتلقى التعليم بها ٤٠٧٧٩ تلميذاً وتلميذة . وأياً كانت التحفظات على هذه الأرقام فالأمر المؤكد تماماً أن الكتاتيب كانت هى أكثر المدارس عدداً فى منطقة البوسنة والهرسك .

وكان الشيخ أو المعلم هو الشخصية الرئيسية فى الكتاب وهو القائم بكل النشاط التعليمى به ، وهو المحور الذى يتحرك حوله عالم الأولاد . ويتباين وضع الشيوخ فى أغلبية الكتاتيب . وكان معظمهم يحصل على راتب ضئيل غير ثابت فى أغلب الأحيان . ويستثنى من ذلك أولئك الشيوخ الذين يتمكنون من الحصول على توصية من صاحب الوقف . ويحصل الشيخ على راتبه فى شكل عيني مثل القمح والدقيق والتين وغير ذلك .

وفى الحقيقة لم يكن هذا يعد راتباً وإنما هدية . وذلك لأنه يسود اعتقاد لدى المسلمين فى البوسنة والهرسك بأنه لا ينبغى أن تدفع نقود للشيخ وكأنه عامل أجير بل ينبغى منحه هدية لأنه يزود التلاميذ بالعلم النافع وطلب العلم النافع وطلب العلم فريضة على كل مسلم . وفيما بعد كان يتم منح الهدية نقداً ، ولكن نادراً ما كان يحدث ذلك فى القرى .

وهكذا فإن الوضع المالى للشيخ كان مرتبطاً بأولياء أمور التلاميذ الذين كانوا يقدمون له الصغير والكبير من المنح والهدايا . وكان التلاميذ

أيضاً يقدمون الهدايا للشيخ وعلى الأخص الأغنياء منهم ولذلك كانوا يلقون رعاية خاصة من جانب الشيخ . ولاشك أن هذا كان له تأثير في تفوقهم في التعليم .

وفي القرى التي تخلو من الكتائب كان يتم سد هذا الفراغ في التعليم الديني للسكان المسلمين عن طريق الشيوخ الوافدين أو الزائرين . وكانوا يأتون على الأخص خلال شهر رمضان المبارك ويعلمون سكان هذه القرى مبادئ الدين الإسلامي وقواعد العبادات ، وكان معظم هؤلاء الشيوخ الوافدين من طلاب المدارس الإسلامية يقضون أجازة رمضان فيما ينفعهم وينفع دينهم .

وكان هناك أيضاً شيوخ وافدون يذهبون إلى القرى في الشتاء ويجمعون حولهم الكبار والصغار والنساء ويعلمونهم في أحد المنازل بالقرية . ويحضر كذلك إلى هذا الكتاب الشباب من القرى المجاورة حرصاً على طلب العلم . وبعد إنهاء مهمته يذهب الشيخ المعلم إلى قرية أخرى وهكذا دواليك .

وأحياناً كان يذهب سكان القرية الثرية بأنفسهم إلى المدينة التي توجد بها مدرسة إسلامية وذلك لانتقاء الشيخ الذي يعود معهم إلى قريتهم ويقيم كتاباً وربما يستقر هذا الشيخ ويبقى هنا إلى الأبد وخاصة إذا أظهر نجاحاً متميزاً وأصبح محل ثقة وتقدير سكان القرية .

وكانت توجد في الكتائب الموجودة بالمدن والقرى كتب مدرسية يتم التعلم منها ، ولكن في أماكن أخرى كان يتم التعليم بدون أية كتب وبطريقة الحفظ . أما مواد الدراسة فترتبط باستعداد وكفاءة التلاميذ والشيخ المعلم أيضاً . وفي بعض كتائب سرايفو كان يتم تعلم قراءة القرآن وتجويده والمبادئ الأساسية للعبادات والعقائد وعلم الأخلاق والفقه والسنة واللغة العربية ونحوها . وبعض كتب هذه المواد كان مطبوعاً باللغة التركية

والبعض الآخر باللغة العربية . وفى نهاية الحكم العثمانى طبعت بعض الكتب باللغة البوسنوية الشعبية .

وكانت هناك بالبوسنة والهرسك كتاتيب للبنين وأخرى للبنات وثالثة مشتركة . وكانت الفتيات تتعلمن علوم الدين فى الكتاتيب أمام الشيخة أو المعلمة . وبالنسبة للوضع المالى فقد كان يسرى عليهن ما يسرى على الشيوخ .

وإذا نظر البعض إلى الكتاتيب بالبوسنة والهرسك من وجهة نظر العصر الحديث فقد يجد فيها بعض العيوب ، إلا أن هذه العيوب لم تكن ملحوظة فى ذلك الحين . ويكفى القول بأن هذه الكتاتيب كانت هى المؤسسات التعليمية الوحيدة للتعليم الأولى إلى وقت وقوع الاحتلال النمساوى المجرى لمنطقة البوسنة والهرسك . وكانت الكتاتيب برغم نقائصها التى تم اكتشافها حديثاً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعائلات المسلمين ، وكانت تلقى اهتماماً كبيراً من جانب الجميع وتشهد بذلك العادات والمأثورات الشعبية المرتبطة بها وينظم التعليم فيها .

وهكذا نجد فى القصائد الشعبية للمسلمين بالبوسنة والهرسك أن المرأة المسلمة تتغنى بالكتاتيب . فهى تمنى ابنها بأنها سترسله إلى الكتّاب حينما يكبر ، وهى تعرب عن رغبتها فى أن يزود ابنها بالعلم فى الكتّاب وبذلك يمكنه أن يصبح وزيراً من الوزراء .

وكان يتم إرسال الأولاد إلى الكتاتيب فى أوائل الخريف حينما يبلغون السابعة من عمرهم وحتى الثامنة . وفى اليوم السابق لذهاب الغلام إلى الكتّاب تهتم الأم باستحمامه ، وفى يوم ذهابه تلبسه أجمل الملابس . وإذا كان الغلام من سكان المدينة فإن الأم تشتترى له الكتب والحقيبة التى سيحمل فيها الكتب إلى الكتّاب . ومن أجل عدم الحمد كان بعض الأمهات

يحكيك على قبعة الأبناء ، أو فيما بعد على طرابيشهم عملة ذهبية أو فضية منقوش عليها « ما شاء الله » .

وكانت الأم تبارك الغلام والاب يقوده إلى الكتاب وهو ينصحه بأن يقبل عند دخوله اليد اليمنى للشيخ ويضع فيها الهدية . ويرحب الشيخ بالغلام ويجلسه على المقعد ، إذا كانت هناك مقاعد ، أو في المكان المخصص له على الأرض . وغالباً ما يجلس في الصفوف الأولى الغلمان الذين يتلقون التعليم الأولى ، أما أولئك الذين يعرفون قراءة القرآن فقد كانوا يجلسون وراءهم .

ولم يكن الغلمان يحملون كتبهم إلى الكتاب في يوم الخميس وذلك لأن هذا اليوم مخصص لإعادة وتكرار ما تم حفظه خلال الأسبوع .

ومن أهم العادات الشعبية ما يرتبط منها بختم القرآن في الكتاب . وحينما يختم الغلام القرآن يتم عقد احتفال لتلاوة دعاء ختم القرآن . والاحتفال بختم القرآن يعد من أجمل احتفالات المسلمين وأشدها بهجة . وهي حفلة حقيقية يتم الاستعداد لها بشكل خاص في بعض المناطق ، وفي مناطق أخرى تكون حفلة متواضعة .

وفي منطقة البوسنة إذا ختم أحد الصبيان القرآن يقوم والده بدعوة الأقارب والجيران والأصدقاء من رجال ونساء لحضور الاحتفال الذي يقام في أغلب الأحوال في منزل الغلام ويُتلى فيه دعاء ختم القرآن .

وأولاً يقتسم الصبي ويتوضأ ويرتدى أبهى ملابسه ويأخذ المصحف الشريف ويذهب مكرراً إلى الكتاب حيث يتجمع الناس أمامه . ويقوم الشيخ بإخراج التلاميذ من الكتاب ويجعلهم يصطفون ويتصدرهم الغلام الذي سيختم القرآن . وأمامه يقف غلامان من مساعدي الشيخ أو من أكبر الغلمان سنّاً ويرفعان « الراحلة » (وهي ممند صغير قابل للطى يوضع عليه المصحف الشريف عند التلاوة) المزينة بالمناديل المطرزة وعليها

القرآن ، وهكذا يحملونها طوال الوقت . ويسير أربعة من حافظي القرآن أو من مساعدي الشيخ وهم يحملون المناشف والقمصان والمناديل المطرزة وغيرها من الهدايا التي حصلوا عليها من والدته الغلام وأقربائه . وينشد التلاميذ التواشيح الدينية والقصائد في تناسق ووراءهم يسير الشيخ المعلم .

ويتحرك الموكب من الكتاب ويتجول في الشوارع وعبر السوق ، وفي بعض المدن والقرى يزور المقابر حيث تتم قراءة الفاتحة ، إلى أن يصل إلى منزل الغلام . ويتم وضع « الراحلة » في رأس الحجرة المكتظة بالضيوف ويبقى التلاميذ أمام المنزل . وتبدأ مراسم الاحتفال بقراءة جزء من القرآن بمعرفة الغلام الذي ختم القرآن ، ثم يقرأ بعض السور الحفاظ أو مساعده الشيخ . وبعد ذلك يتلو الشيخ دعاء ختم القرآن والناس والغلمان يأمنون على دعائه . وفي النهاية يتم توزيع الحلوى على الغلمان وتركهم يذهبون إلى منازلهم .

ويقوم الغلام الذي ختم القرآن بتقبيل يد شيخه ثم يد أبيه والمسنين من عائلته . وبعدئذ يذهب إلى حجرة السيدات ويقبل يد أمه ثم يد كبار السيدات . وغالباً ما يحصل الغلام على هدايا من الجميع . وينصرف المدعوون بعد تناول طعام الغداء أو العشاء .

إلا أنه بالرغم من كل هذا فلم تصمد الكتاتيب كثيراً ولم تقاوم طويلاً في معركة البقاء المصيرية فأخذت تختفى تدريجياً إلى أن إندثرت تماماً بعد أن أدت بالطبع مهمتها على أكمل وجه في حينها وزمانها . وأكبر شهادة على نجاحها هي أنها خرجت لنا أجيالاً من العلماء والأدباء المسلمين النشطين الذين ألفوا باللغة العربية كتباً في مختلف الموضوعات والمجالات الإسلامية والعربية والأدبية .

والعزاء الوحيد عن هذه الكتاتيب المنثرة أنه يحل محلها في الوقت

الحالى نوع من التعليم الدينى غير الرسمى ينظمه بعض أفراد الطائفة الإسلامية باليومنة والهرمسك بمنازلهم . وينصب هذا التعليم أساساً على تعريف الصغار والشباب بمبادئ دينهم الإسلامى الحنيف وتعليمهم اللغة العربية . وفى المرحلة الشيوعية السابقة وقبل استقلال اليومنة والهرمسك كان هذا النوع من التعليم الدينى يلقى هجوماً وانتقاداً من جانب الأجهزة السياسية الشيوعية ، إلا أن المسلمين كانوا يمشون فى سبيلهم ولا يعبأون بأية عقبات أو عوائق توضع لهم فى طريقهم عن عمد مادامت أهدافهم نبيلة وغاياتهم سامية وتتمشى مع روح القوانين ونصوصها .

ويجرى فى الوقت الحالى حديث عن إدخال التعليم الدينى بشكل رسمى فى المدارس الابتدائية والثانوية . هذا بالإضافة إلى جو الحرية والتحرر الذى أخذ يسود المؤسسات التعليمية الإسلامية وزوال الضغوط والرقابة عنها .

يوم فى حياة إمام مسجد

كثر الحديث فى فترة من الفترات عن أئمة المسلمين فى البوسنة والهرسك وعن أحوالهم ومشاكلهم ومطالبهم ، وتعرضت لذلك مختلف المحاضرات والندوات والكتابات بالصحف والمجلات ، إلا أننا إذا ألقينا نظرة متأنية على مضمون هذه الكتابات فسرعان ما نتبين أنه يسود ، على نحو ما ، التباس حول مفهوم مهنة الإمام فى البوسنة والهرسك . ومن هنا رأينا أنه من الأفضل أن نتعرض لبحث هذا الموضوع بشكل موضوعي بهدف إلقاء مزيد من الأضواء على هذه الفئة من الدعاة إلى الإسلام .

والحقيقة أن المتتبع للحياة الإسلامية فى البوسنة والهرسك يمكنه أن يتبين وجود ثلاث فئات من الأئمة . وتشمل الفئة الأولى أولئك الأئمة الذين يفتنون أنفسهم فى العمل بحيث يغفلون عن حياتهم العائلية بل ويضحون بها فى بعض الأحيان فى سبيل نشر تعاليم الدين الإسلامى الصحيحة وسط أفراد جماعاتهم . وبالنسبة لهذه الفئة من الأئمة لا يوجد لديهم وقت محدد للعمل لأنهم وهبوا جل وقتهم لعلمهم . فلذا لم يكونوا يعلمون الصغار فى الكتاتيب فهم يقومون بتوزيع المطبوعات الإسلامية أو يتحدثون مع أفراد الجماعة أو يقرؤون ويبحثون ويكتبون المعارف الجديدة وما إلى ذلك من أمور .

وتضم الفئة الثانية الأئمة الذين يؤدون ما عليهم من واجبات تجاه عملهم وكأنه حرفة من الحرف . فهم مثاليون فى عملهم ويؤدونه وفقاً للوائح المشيخة الإسلامية ويجتهدون فى عدم توجيه أى لوم لهم . ولكن حينما يتعدون عن مكان عملهم تختلف شخصيتهم تماماً ولا يمكن التعرف

عليهم بحيث يحصل المرء على انطباع بأنهم يمارسون هذا العمل لتأدية الواجب ليس إلا .

والفئة الثالثة هم الذين يتقاعسون عن العمل وبذلك يجلبون الضرر لأنفسهم ولأفراد جماعتهم . وهذه الفئة ضئيلة جداً .

وإذا أردت أن ترى نموذجاً مشرفاً من أئمة الفئة الأولى - وهم كثير والحمد لله - فتعال معي إلى قرية « بوسانسكى نوفى » التى تقع بمنطقة البوسنة والهرسك . وهى قرية صغيرة تقع على مصب نهر « سانا » فى نهر « أونا » ويبلغ عدد سكانها حوالى خمسة عشر ألفاً من السكان الذين يمثلون قوميات وديانات مختلفة . ويشكل المسلمون فى هذه القرية أكثر من نصف عدد سكانها . ومن الطريف أنه لا يعرف أحد بهذه القرية عدد المسلمين بالضبط . طبعاً هناك تقديرات متباينة بل ومتضاربة ، ولكن الجميع يفضلون عدم إثارة هذا الموضوع وعدم التطرق إليه .

ويوجد بهذه المنطقة تسعة أئمة ، ثلاثة منهم فى هذه القرية ، والباقيون منتشرون فى القرى الأخرى . وأحد هؤلاء الأئمة الثلاث هو « محرم شتولانوفيتش » الذى يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين ربيعاً وهو شاب تبدو عليه ملامح النساك ويتحدث بصوت خافت خاشع .

والإمام محرم أنهى تعليمه بمدرسة الغازى خسرو بك ، وهى من أقدم المدارس الإسلامية بالبوسنة . ثم واصل دراسته بكلية العلوم الإسلامية بسرافو ، ثم بجامعة سعود الإسلامية بالرياض بالسعودية حيث أمضى بها ما يزيد على ست سنوات ، وقضى منها سنتين فى دراسة اللغة العربية ، وقضى باقى المدة فى دراسة علوم الدين الإسلامى .

وعلاوة على إجادته اللغة العربية فهو يتحدث أيضاً اللغة الانجليزية ويمارس الرياضة . كما أنه تعلم فى السعودية لعبة الكاراتيه ويعتز بأنه حصل على شهادة تقدير فى هذه اللعبة باللغة العربية .

والإمام مشغول طوال اليوم ، فهو يؤم المصلين في الصلوات الخمس ، ويلقى دروس تعليم مبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه ، ودروس الوعظ وخطبة يوم الجمعة ، ودروس مبادئ اللغة العربية للصغار ، وهي تنعقد في يومى السبت والأحد من التاسعة وحتى الحادية عشرة صباحاً . وينتظم بهذه الدروس من ثلاثين إلى أربعين غلاماً وفئة من القرية ، وتتراوح أعمارهم ما بين سبع إلى إحدى عشرة سنة . وعدد الفتيات أكبر من عدد الصبيان . والدراسة شرعية تماماً وتمضى وفقاً لقوانين ولوائح الجماعة الإسلامية .

ويدخل الصغار مكان الدرس ولا بد من إلقاء تحية الإسلام ، ومعظمهم يفضلون إلقاء التحية باللغة العربية من أجل إتقانها . ومع كل تلميذ توجد مجموعة من الكتب المدرسية الإسلامية لتعليم القرآن وتعليم الصلاة وقصائد المدح النبوى الشريف وغيرها من الكتب اللازمة .

وبالفصل مجموعتان من التلاميذ ، مجموعة المبتدئين ومجموعة المتقدمين . ويدرس الإمام للمجموعتين فى آن واحد ، فبينما يعلم المبتدئين درساً جديداً يستمع الآخرون أو يعيدون مذاكرة المادة الخاصة بهم .

وعلاوة على ذلك فالإمام محرم يؤم صلاة يوم الجمعة وصلاة الجنازة وغيرها من الصلوات ، ويلقى كذلك بعض المحاضرات والدروس الدينية على الكبار . ويعقد حلقات الدرس والندوات الدينية فى المصايف سواء فى المساجد أو فى منازل المسلمين . ويقوم أيضاً بإنشاد قصائد المدح النبوى فى المناسبات المختلفة . هذا بالإضافة إلى قيامه بعقد القرآن وفقاً للشرعية الإسلامية . ويقوم كذلك بغسل الميت ودفنه ، وتلاوة آيات القرآن الكريم على روحه ومن الطبيعى أن كل هذا يزيد من أهمية عمل إمام المسجد بل وخطورته ويحملة الكثير من المسؤوليات والتبعات .

ويحصل الإمام على راتبه من مجلس الجماعة الإسلامية بالبلدة التي يعمل بها . ويرتبط مقدار هذا الراتب بقدراته ومؤهلاته وسنوات خدمته . ويعدد أفراد جماعته وما إلى ذلك من أمور . كما يدفع المجلس للإمام قيمة المعاش والتأمين الاجتماعي . ويتم الاتفاق على الراتب مع مجلس الجماعة الإسلامية في بداية كل تجديد للعقد ، وعادة ما يتم ذلك بالتراضي .

وقد منحت الجماعة الإسلامية بقرية « بوسانسكي نوفى » الإمام محرم مسكناً جديداً يتألف من ثلاث غرف . ويقطن فيه مع أسرته المكونة من زوجته وابنيه الصغيرين محمد ومجاهد . وزوجته لا تعمل وتتفرغ لرعاية الابنين ولمساعدته في عمله . وقد أنهت المدرسة الثانوية وترتدى الملابس المحجبة وتعتذر عن مصافحة الغرباء لأن الشريعة الإسلامية تحرم مصافحة الأجانب .

وينوه الإمام محرم إلى أن أفراد الجماعة يتمثلون بالإمام في حياته العائلية ولذا لا بد أن تكون زوجة الإمام وأولاده قدوة حسنة في تصرفاتهم وأحوالهم ، وأن تكون الزوجة - على وجه الخصوص - دعاية طيبة للحياة الإسلامية والأخلاق السامية وعوناً له في عمله ، وعلى الإمام أن يبدأ بنفسه وبأسرته أولاً ثم بأفراد جماعته متمثلاً في ذلك بمبادئ الرسول عليه الصلاة والسلام .

ويدرك الإمام محرم - تمام الإدراك - أن عليه أن يداوم دراسة سيرة الرسول الكريم والافتداء به . وينبغي عليه أن يبين لأفراد جماعته بكل تصرف من تصرفاته الأسلوب الذى ينبغى العيش به عيشة إسلامية سوية ، وذلك لأن وعظه الذى يلقيه عليهم لن يثمر أية ثمرة إذا كان أسلوب حياته ومسلكه مناقضاً لكلامه . وهو في هذا المضممار يتذكر القول المأثور القائل : « حال رجل ألّف رجل أنفع من وعظ ألف رجل لرجل » .

وحيث أن لكل زمان أساليبه فإن الإمام محرم بعمل - قدر استطاعته - ليل نهار من أجل إيجاد أساليب عصرية للدعوة الإسلامية ومضامين فعالة لعمله حتى يؤثر تأثيراً إيجابياً على أفراد جماعته ، وهو يؤمن بأنه ينبغي عليه أن يرشدهم بالحكمة والموعظة الحسنة مع مراعاة الاختلاف في الطباع والمشارب والأمزجة والثقافة .

وأوضح الإمام محرم أن الأئمة في البوسنة والهرسك هم حملة مشاعل الدعوة الإسلامية بها وهم دعائمتها الأساسية . وبالفعل ، فالأئمة هم الذين يهتمون بتطور ومستقبل الجماعة الإسلامية في هذه المنطقة ، وترتبط حياتها وهيئاتها ومؤسساتها بوعيمهم وحماسهم وأنشطتهم وتعاونهم المشترك وتعليمهم وثقافتهم وغير ذلك من الأمور .

وكل هذا يحتم على الإمام أن يجتهد في الاستفادة من وقت فراغه - إن وجد - في البحث عن معارف جديدة من فقه الدنيا والدين . ولا بد أن تكون لديه دراسة شاملة لعالل الجماعة وطرق علاجها وإمام واسع بشتى المعارف . وهو يفعل ذلك من أجل نفسه وأسرته وجماعته وسعادته في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة ومن أجل الأمل في سلوك أفضل . ومن ناحية أخرى فإن ثراء التقاليد العلمية الإسلامية والتراث الذى خلفه كبار العلماء المسلمين يلزم الإمام إلزاماً خلقياً ويطالبه عملياً بأن يكون تجسيداً للعلم وللنضج من خلال العمل الذى يؤديه .

ويوجد في قرية « بوسانسكى نوفى » ثلاثة مساجد : مسجد المدينة ومسجد أوربا ومسجد فيدوريا . والآخر هو أقدمها عمراً ولا توجد معلومات مؤكدة عن سنة بنائه . ولكن كبار السن من المسلمين يؤكدون أن عمره قد تجاوز القرن . ويرتفع الشارع الذى يفصل هذا المسجد عن شاطئ نهر أونا ارتفاعاً كبيراً بحيث أنه يتم الصعود إلى المسجد والدخول إليه عن طريق درجات . وتوجد خلف المسجد مقابر قديمة لسكان القرية .

وتتألف المصابيح والثرىات داخل المسجد ، وتنزين الجدران السمكية العالية بلوحات من آيات القرآن الكريم مما يعطى انطباعاً بالرهبة والخشوع (مع أنه من المعلوم أن زخرفة المساجد ولو بآيات من القرآن مخالف للسنة) وللمسجد مئذنة وشرفة تم تجديدهما مؤخراً . والمئذنة مصنوعة من الخشب ، وفي العام الماضي تمت كموتها بطبقة خاصة من الألومنيوم الذي لا يفقد لمعته وذلك من أجل حمايتها ، وإذا فإنها تسطع من بعيد تحت أشعة الشمس الذهبية . والجدران الخارجية للمسجد مطلية باللون الأخضر وهذا هو لونها الأصلي .

ومسجد « فيدوريا » لا يوجد به مؤذن خاص وإنما يقوم الإمام محرم بهذه المهمة . ومنذ سنوات لا يسمع صوت الأذان من على شرفة المئذنة وإنما يؤدي الإمام الأذان من داخل المسجد عن طريق الميكروفون . وتنقل السماعات الموضوعة بالشرفة الدعوة إلى الصلاة إلى الأماكن البعيدة : الله أكبر .. الله أكبر ..

ويستجيب المصلون للحضور فرادى وجماعات ، وهم في الغالب من كبار السن ومتوسطي الأعمار ، ولكن يوجد أيضاً عدد من الفتيان والفتيات . ويصطف الجميع وراء الإمام محرم : الرجال في الصفوف الأولى والنساء في الصفوف الأخيرة .

وأرض المسجد مغطاة بالسجاجيد التي أهداها المصلون للمسجد ، وهي عادة ما تكون فخمة وغالية . ويوجد منها بالمسجد عدد كبير بحيث أن بعض الأماكن مغطاة بثلاث قطع منها .

ويؤدي الإمام محرم ملاحظة بأنه تم في الآونة الأخيرة تشييد عدد لا بأس به من المساجد الجديدة وإجراء تجديدات شاملة في عدد من المساجد الأخرى . ويعود هذا ، أولاً وقبل كل شيء ، إلى سخاء المسلمين في هذه المنطقة وإلى رغبتهم في أن تكون لديهم مساجد جميلة ذات تصميم

حديث ومجهزة بأفضل التجهيزات وقد تلاحظ أن المسلمين بالقرى والمدن يتنافسون في تشييد المساجد وتجديدها .

وينصح الإمام محرم نفسه وزملاءه قائلاً لهم بأنهم لابد وأن يتركوا بأن عمل الإمام ليس يسيراً كما يتوقعون وإنما هو أكثر مشقة مما يتوقعون ، ولكنه عمل هام وحيوى . وإذا أدخل الله حب هذه المهنة في قلب الإمام فإنها ستصبح سهلة على نفسه حبيبة إلى قلبه ولن يرضى عنها بديلاً . وهو ينصحهم بأن يعيشوا من أجل الإسلام لا أن يتعيشوا ويتكسبوا من الإسلام ، وبذلك سيكونون بإذن الله راضين في الدنيا والآخرة . ولو أنهم استحوذوا على شباب المسلمين ووجهوهم إلى الخير وحببوه لهم لأدوا رسالة المسجد على خير وجه .

الداعية الإسلامى أحمد سمائلوفيتش

من الحتم علينا كلما تذكرنا الدكتور أحمد سمائلوفيتش الرئيس السابق للمشيخة الإسلامية بالاتحاد اليوغسلافى سابقاً وأستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية بكلية الدراسات الإسلامية بمرايفو أن نسرع بالترحم عليه وبإسداء الشكر له على ما صنعه وأنجزه خلال حياته للمسلمين وللإسلام فى جمهورية اليوسنة والهرسك . ويفعل ذلك على الدوام أهل البلدة الذين لمسوا على الطبيعة وأحسوا فى الواقع بنشاطه وإنجازاته . ومن أجل هذا بالذات تيقنوا وأدركوا ، أكثر من غيرهم ، فداحة الخسارة وعظم الخطب والمصائب الذى حل بهم نتيجة لرحيل مفكرهم ومعلمهم وأستاذهم وواعظهم ومرشدهم وهاديتهم إلى الإسلام الدكتور أحمد سمائلوفيتش العالم والداعية الإسلامى الكبير .

ويقينى أن أفضل رثاء للدكتور أحمد سمائلوفيتش - رحمه الله وأمكنه فسيح جناته - وأحسن عزاء نوجه لأهل بلده من المسلمين أن نعدد مناقبه وفضائله ونبرز فكره ونوضح أنشطته وإنجازاته ، وأن نشير إلى كتاباته وترجماته ؛ إذ أن كل هذه الإنجازات تتدثر بدثار الخلد وتجعل هذا الداعية يتخذ موقعه الصحيح على صفحات التاريخ .

واعتقادى كذلك أن تسليط الأنواء على نشاط الدكتور أحمد سمائلوفيتش وعلى أعماله ومؤلفاته هو فى الوقت ذاته تسليط للأنواء على جانب ليس بالضئيل من نشاط المسلمين ومن جهودهم فى نشر الدعوة الإسلامية بهذه المنطقة .

وأته لمن العسير حقاً أن نخص مجالاً واحداً بعينه تميز فيه نشاط

وجهد هذا الداعية الإسلامى ، وذلك لأنه كان نشيطاً فى كل المجالات المتاحة أمامه وبإذلاً للجهد والعطاء فى جميع الميادين والمناسبات . ولا يمكن لأى جاحد أن ينكر أن هذه المزايا والفضائل كانت هى الأساس عند اختياره رئيساً للمشيخة الإسلامية ، هذا علاوة على أنه كان المفكر الرائد للمسلمين بهذه المناطق ويتمتع بسمعة طيبة داخلها وخارجها .

وأحمد سمائلوفيتش مولود فى عام ١٩٣٨ بقرية « توكولياتسا » بجمهورية البوسنة والهرسك ، وكان والده يعمل إماماً ومأذوناً شرعياً . وبعد إنهائه للمدرسة الابتدائية فى قرية مجاورة التحق بمدرسة « الغازى خسرو بك » فى سراييفو فى عام ١٩٥٠ وأنهى دراسته بها فى عام ١٩٥٨ . وكان واحداً من أفضل تلاميذها ، وفى السنوات الأخيرة من دراسته بالمدرسة كان يقوم خلال الأجازات الصيفية بمهام الإمامة والخطابة فى أحد مساجد القرية .

وتنفيذاً لمبادرة الرئيس الأعلى للطائفة آنذاك بشأن تدعيم المشيخة الإسلامية بالشباب الذين تلقوا تعليماً عالياً فقد التحق أحمد سمائلوفيتش فى عام ١٩٦٢ بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر . وأنهى دراسته فى الوقت المحدد والتحق على الفور بالدراسات العليا وحصل على الماجستير فى ١٩٧٠ وعلى شهادة الدكتوراه فى عام ١٩٧٤ .

والتحق فى عام ١٩٧٥ بالعمل فى المشيخة الإسلامية ، أولاً كمدير لمكتب رئيس العلماء ثم كرئيس لمشيخة الجماعة الإسلامية وظل بهذا المنصب عشر سنوات . وفى الآونة نفسها تم اختياره للعمل كأستاذ لمادتي العقيدة والفلسفة الإسلامية بكلية الدراسات الإسلامية بسراييفو وظل يمارس هذا العمل إلى أن اختطفه الموت ، غير أن فكره وإنجازاته لم تمت بل خلدت اسمه بعد رحيله .

ويرتبط اسم الدكتور أحمد سمائلوفيتش بالعديد من الأنشطة التى

قامت بها الجماعة الإسلامية وما زالت تقوم بها حتى الآن ولا يمكن تصور وجودها بدونها . ويرجع هذا الارتباط إما لأنه صاحب المبادرة في القيام بهذه الأنشطة وإما لأنه عمل على تطويرها وتحديثها وقدم لها الحوافز المناسبة لكي تكتمب الجماهيرية وتعطى ثمارها الطيبة . وإذا فإنه من قبيل الظلم والإجحاف إغفال الدور التاريخي للدكتور أحمد في تطوير الحياة الإسلامية بالاتحاد اليوغسلافي السابق خاصة وأنه ترك بها آثاراً لا تنمحى من نتائج عمله وثمار نشاطه .

ويرجع إليه الفضل في العمل على تنفيذ العديد من المشروعات العظيمة في الاتحاد اليوغسلافي السابق . فقد تم إصلاح وترميم وتجديد العديد من المساجد القديمة وتشيد الجديد منها . وتم افتتاح كلية الدراسات الإسلامية بمرافو في عام ١٩٧٧ ، وإنشاء المدرسة الإسلامية للبنات « الغازى خسرو بك » في عام ١٩٧٨ ، وتجديد المدرسة الإسلامية بمرافو والانتهاه من إنشاء جامع « زغرب » ومسجد « لوبليانا » ومبنى الجماعة الإسلامية في مدينتى بولاولسليت ، وإقامة فصول دراسية مجهزة بأحدث التجهيزات والمعدات من أجل تعليم وتدرّس الدين الإسلامى .

وعلى الصعيد الدولى ساهم الدكتور سميلوفيتش ، باعتباره رئيساً للمشيخة الإسلامية أو بصفته ممثلاً للجماعة الإسلامية أو على أساس كونه عضواً منتظماً فى العديد من المنظمات الدولية الإسلامية ، مساهمة كبيرة فى مختلف الاجتماعات والمؤتمرات والندوات والملتقيات . وكان ينتهز هذه المناسبات لكي ينقل ويرفع صوت الجماعة الإسلامية . وتمكن فى أكثر من مرة ومجال من الحصول على حق التحدث فى أماكن لم يكن من السهل فيها - على الدوام - الحصول على هذا الحق .

وغالباً ما كان يلقى محاضراته باللغتين العربية والإنجليزية فى هذه

المؤتمرات والاجتماعات ، ولا يتحدث إلا بناء على طلب جمهور المتحدثين أو وفقاً لرغبة جماهير المسلمين . ومن المعلوم أن الدكتور سمائلوفيتش يتحدث اللغة العربية بطلاقة وسلاسة بحيث أنهم كانوا يرحبون به دوماً لإلقاء محاضرات في كثير من الكليات بالعالم الإسلامي .

ويذكر شهود العيان أنه بعد إلقاء محاضراته في الجزائر وفي المدينة المنورة هتفت الجماهير مكبرة بتلقائية وحماس . وفي إحدى المرات بعد إلقائه محاضرة في جامعة المدينة بحضور كبار علماء المسلمين وجه بعض الطلبة طلباً رسمياً لإدارة الجامعة يلتمسون فيه تحديد موعد لحضور الدكتور سمائلوفيتش من بلاده لكي يلقى عليهم سلسلة من محاضراته القيمة عن بعض الموضوعات الإسلامية ، وهذا يؤكد دون شك ما قيل عن صدق كلامه وطلاقة بيانه .

وكان الدكتور سمائلوفيتش مشغولاً على الدوام بالعمل من أجل الإسلام ومن أجل خير وصالح المسلمين في بلاده . وحتى أولئك الذين لا يعرفونه جيداً كانوا يتحدثون عن إنشغاله الشديد ، فلن لم يكن مشغولاً بالكتابة في أحد الموضوعات الإسلامية أو ترجمة أحد عيون الكتب الإسلامية أو بإعداد محاضرة لطلبته في كلية الدراسات الإسلامية ببرايغو ، أو مشغولاً بكل العديد من القضايا الجوهرية فهو مشغول بالحديث مع جماهير المسلمين والاستماع لهم .

وكان يداوم على الذهاب إلى حفلات افتتاح المساجد والمدارس الإسلامية الجديدة ، وعلى عقد الاجتماعات واللقاءات وإلقاء المحاضرات والخطب ودروس الوعظ . ولم يكن عسيراً عليه أن يستقبل أتباع الجماعة الإسلامية في مكتبه بصفته رئيساً للمشيخة وفي مكتبه بالكلية وأن يقدم النصيحة لكل شخص يطلب منه ذلك . ولم يحدث أن تخلف عن أي احتفال أو مناسبة جلية في تاريخ الجماعة الإسلامية أو تخلف عن افتتاح مسجد

أو الاشتراك في اجتماع هام لأتباع الجماعة الإسلامية . ونظراً لأنه كان يلقي التحية والاحترام والتقدير من جانب المسلمين في بلاده فلم يكن قادراً على رفض دعواتهم وطلباتهم بالقيام بزيارتهم .

وتعد الدروس التي كان يلقيها في هذه المناسبات متعة حقيقية فريدة لكل أولئك الذين يستمعون له ، وكانوا يعلمون أنه سيلقى على مسامعهم أموراً جديدة وأن أرواحهم ستستمتع بما يلقيه عليهم من معلومات طريفة ، وستتحسن نفوسهم بما يتلقونه منه من فيض الحماس والأمل . وهذا ليس بالأمر الغريب فهم يدركون أنهم يستمعون لداعية إسلامي جليل ولعالم كبير وأستاذ فاضل ولرجل مثقف نبيل يفيض قلبه بالإيمان الفعلي وباللذين الحقيقي ويوجد مُرح المعارف الإسلامية . وكانوا يسعدون فيما بعد بإعادة مرد نصائحه وتوجيهاته أو تسجيلها على شرائط وتكرار الاستماع إليها بحضور أفراد العائلة والأصدقاء .

وبالإضافة إلى الدروس والمحاضرات التي كان يلقيها في جميع أنحاء جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي السابق في مختلف المناسبات فقد اعتاد الدكتور أحمد سمائلوفيتش ، منذ توليه رئاسة المشيخة الإسلامية في مراهفو ، على إلقاء دروس على المسلمين مرة كل أسبوع في مسجد « البك » خلال شهر رمضان المعظم . وليس أدل على أهمية هذه الدروس من ضيق المسجد بجمهور المستمعين الذين يكتظون في الشوارع المحيطة به من أجل الاستماع بخطبة الدكتور . وحينذاك كان يستمع إليه الصغار والكبار والمتقدمون في السن من الرجال والنساء وأصحاب الحرف والمثقفون والطلبة والتلاميذ وأفراد عائلات بأكملها ، بل والأطراف من ذلك أنه يستمع إليه أشخاص يدينون بديانت أخرى .

وكان هدف الدكتور أحمد سمائلوفيتش من كل هذا خالصاً لوجه الله تعالى ودافعه إيماناً إلى أبعد الحدود . وينبع من كل كلمة يقولها الحب

الإيماني لله تعالى ولرسوله الكريم . وكان يجتهد في التحدث بشكل مباشر بلغة القرآن الكريم وبالحديث النبوى المناسب . وكان رجلاً « قرآنياً » بمعنى الكلمة ، ويسعى نحو تنبيه المؤمنين والمؤمنات إلى تنسيق أعمالهم فى الحياة مع قواعد القرآن الكريم . وهكذا كان الجميع على اختلاف أعمارهم وثقافتهم ومشاربهم ومهنهم يجدون شيئاً يصلح لهم فى دروسه ومحاضراته ، ولهذا كان الجميع أيضاً يرحبون بسماعه والإصغاء إليه .

وخلال حياته القصيرة نشر الدكتور سمائلوفيتش ما يربو على مائتين وخمسين مقالاً ودراسة ، وذلك علاوة على عدة كتب مترجمة من اللغة العربية والصربوكرواتية . ونشر معظم هذه المقالات فى العديد من المجلات الإسلامية بالبوسنة والهرمك . ومن أشهر ترجماته ترجمته لرواية « الدرويش والموت » للآديب ميشا سليموفيتش وقد نشرت بالقاهرة فى عام ١٩٧١ . ثم ترجمته لكتاب مصطفى محمود « حوار مع صديقى الملد » الذى طبع فى سرايفو فى عام ١٩٧٦ وأعيدت طباعته فى عام ١٩٨١ . وكذلك ترجمته لكتاب « المؤتمر الدولى للعمل الإسلامى » الذى طبع فى سرايفو فى عام ١٩٨١ .

إلا أن أهم عمل أكاديمى فى حياته هو رسالته للدكتوراه وعنوانها « فلسفة الاستشراق وأثرها فى الأدب العربى المعاصر » ، ونال عنها درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى فى عام ١٩٧٤ وطبعها دار المعارف بالقاهرة فى عام ١٩٨٠ فى كتاب يقع فى ٧٦٩ صفحة . وتعنى هذه الدراسة بتسجيل الاتجاهات العامة للاستشراق خلال عصوره المختلفة ، واهتمت أيضاً بالنشاط الاستشراقى الذى تغلغل أثره فى ميادين الحياة الفكرية والثقافية منذ أكثر من قرن من الزمان وبلغ أوج تغلغله هذا فى النصف الأول من القرن الحالى ، ومن هنا استمدت هذه الدراسة أهميتها الفكرية والعلمية والفلسفية والدينية والثقافية وغيرها .

وكشفت هذه الدراسة الرائدة عن الدور الخطير الذى لعبه الاستشراق

فى تشنيت الجهود الموجهة لمقاومة السيطرة الأجنبية فى المجالات الفكرية وتبديدها وذلك بإثارة الريب والشكوك والمشاكل والمعضلات التى وزعت جهود العلماء والمصلحين والأنباء العرب ودفعتهم إلى اتجاهات متباينة ومتناقضة فى بعض الأحيان . وشغفت الدراسة بعرض أثر الاستشراق فى الأدب العربى عرضاً موضوعياً مثبتاً جوانب آثاره الإيجابية ومنتقداً جوانب آثاره السلبية . وأكدت الدراسة أن للاستشراق قيمة متشعبة الأطراف لا يمكن إنكار أية منها مطلقاً . ومن هنا يرى الباحث أهمية دراسة الاستشراق دراسة واعية منهجية لإبراز ماله وما عليه فى جميع ميادين نشاطه . وارتأى فى نهاية دراسته أن الأزهر بمنهجه القرأنى وتسامحه الإسلامى هو الوحيد فى العالم العربى الإسلامى المؤهل لأن يفعل شيئاً فى هذا الميدان .

وبالرغم من هذا النشاط المكثف فى مجالات متعددة فقد رحل الدكتور سمائلوفيتش ، الداعية الإسلامى الكبير ، فى صيف عام ١٩٨٨ عن مسرح الحياة فى هدوء حتى دون أن يتمكن من إغلاق المصحف الشريف الذى كان يقرأ منه كل يوم ويتعلم ويفسر ، وتركه مفتوحاً على الآية ٨٤ من سورة الكهف . وكان ينوى ختم القرآن قبل أن ينتقل إلى مسكنه الجديد . وكان من المفروض أن ينهى ختم القرآن فى الثالث عشر من أغسطس ، ولكن ذلك اليوم كان يوم تشييع جنازته .

وهكذا رحل الدكتور أحمد سمائلوفيتش فى سكون ، ولن ينمى العديد من المعجبين به والمقدرين له نشاطه وفكره فى مجال الدعوة الإسلامية .

شهر رمضان

شهر رمضان له مكانة خاصة في قلب كل مسلم من المسلمين في البوسنة والهرسك الذين يتعرضون في الوقت الحالي لأعنى حملة نفسية شرسة . وهو بالنسبة لأغليبيتهم هو شهر الصوم والعبادة والحياة الإسلامية الثرية المكثفة . ومن هنا كان من الطبيعي أن يتهج كل مسلم ابتهاجاً حقيقياً بشهر رمضان وأن يستعد لاستقباله استقبالاً يليق به وبمكانته ، وأن يتهيأ لصيامه وللحصول على أكبر قدر من فيض بركاته وحسناته .

ويعرف المسلمون في البوسنة والهرسك معرفة جيدة أن رمضان هو شهر الصيام والرحمة والذكر والعبادات وأنه شهر يفيض بالخيرات والبركات أكثر من أى شهر آخر ولذا فهم ينشطون في هذا الشهر الكريم الذى تنفتح فيه جميع أبواب الرحمة والمغفرة أملاً في أن يستفيدوا من تلك الخيرات وتلك البركات التى يمنحهم إياها الله جل شأنه .

وبعد انهيار الشيوعية في يوغسلافيا ونتيجة لضغوط التيارات الديمقراطية أظهرت وسائل الإعلام شيئاً من التحرر وظهرت - على غير توقع - البرامج الدينية في التلفزيون بعد أن كانت شيئاً محرماً تماماً . ونقل التلفزيون بعض وقائع الاحتفالات الرسمية بمناسبة الأعياد الدينية .

والحقيقة أنه تجرى استعدادات هائلة من أجل شهر الصوم في كل منزل من منازل المسلمين في البوسنة والهرسك الذين يتجاوز عددهم المليون والنصف المليون . فقبل حلول هذا الشهر المبارك ببضعة أيام

تجرى عمليات هائلة ومكثفة لتنظيف المساجد وتجديدها وإعادة تنظيمها . وهذا يمرى بشكل خاص على تلك المساجد المهجورة التى لا تقام فيها الصلوات إلا خلال شهر رمضان أو التى يقل التردد عليها فى غير شهر الصوم . وعادة ما يقوم الناس بهذه الأعمال طوعية وتطوعاً ، وغالباً ما تقوم بذلك فتيات القرية أو المدينة التى يقع فيها المسجد .

ويتميز هذا الشهر الكريم بالعديد من مظاهر وأشكال العبادات والحياة الإسلامية ، وبعض منها مرتبط ارتباطاً وثيقاً برمضان ، وبعض منها يتكثف القيام به فى هذا الشهر المبارك . فقبيل بداية رمضان بثلاثة أيام تقريباً تبدأ فى بعض المناطق بالبومسة والهرسك ما تسمى « بالمقابلة » وهى تلاوة للقرآن بصوت عال فى المسجد بمعرفة أكثر من قارئ وحافظ للقرآن . وتستمر هذه التلاوة القرآنية طوال شهر رمضان ويتم ختمها قبيل ليلة السابع والعشرين ، أى فى السادس والعشرين من الشهر . وتبدأ « المقابلة » فى بعض القرى والمدن مع بداية شهر الصوم وتنتهى فى اليوم قبل الأخير أو الأخير منه وفقاً لعدد أيامه .

ويتم ، بقدر الإمكان ، اختيار وتكليف أفضل قراء القرآن وحفاظه من أجل إتمام هذه التلاوة القرآنية . وهذا هو السبب فى الإقبال الكبير على حضور هذه التلاوة القرآنية المعممة « بالمقابلة » طوال كل أيام رمضان . وتجرى تلاوة القرآن فى أكثر من مكان بالمدن الكبرى وفى أوقات مختلفة من اليوم ، ابتداء من السحور وحتى الفجر وقبل الظهر وبعده وقبل العصر وبعده . وفى أماكن أخرى تبدأ تلاوة القرآن بحيث تنتهى قبل تناول طعام الإفطار . والشائع أن تلاوة القرآن تتم فى أغلب الأحوال بعد الانتهاء من صلاة العصر . وقد استقر فى ذهن ووعى الصائمين من المسلمين فى البومسة والهرسك أن الحضور والانصات إلى هذه التلاوة القرآنية يدخل فى نطاق العبادات ويثاب المرء عنه ثواباً كبيراً . ولذا فلن المساجد تكتظ

بأعدادهم الغفيرة أكثر من أى وقت آخر ، وفى أحوال كثيرة تمتلئ بهم أفنية المساجد .

وفى مدينة سرايفو عاصمة البوسنة والهرسك التى يتركز بها عدد كبير من المسلمين تجرى التلاوة القرآنية فى الأوقات التى ذكرناها . وفى بعض المساجد ، مثل مسجد البك ، تجرى أكثر من تلاوة فى اليوم الواحد فى أوقات مختلفة . وفى مسجد الغازى خسرو بك تجرى التلاوة القرآنية قبل الإفطار بساعة واحدة .

ومن غير المعروف على وجه التحديد متى تم إدخال نظام التلاوة القرآنية فى رمضان بالشكل الذى يجرى به فى المدن البوسنية . ولا يوجد أى ذكر له فى وصيات الوقف القديمة ، وهذا يعنى أن هذا النظام يرجع إلى تاريخ حديث أصله غير معلوم ، بل ولا يوجد نظام مماثل له فى عديد من الدول الإسلامية .

وفى حين من الأحيان كان يتم الإعلان عن بداية ورحيل شهر رمضان فى البوسنة والهرسك بإطلاق المدافع ، أما اليوم فيتم الإعلان عنهما بأساليب مختلفة . فبعد الإعلان عن بدء رمضان يتم إشعال القناديل على مآذن المساجد عند صلاة المغرب . وكان يستمر إشعال القناديل طوال شهر رمضان فى نفس الوقت من كل يوم لإرشاد الصائمين بأن الصيام اليومى قد انتهى وأنه بإمكانهم تناول طعام الإفطار ، ويتم الاحتفال بعملية إشعال القناديل بطريقة بهيجة .

فقد كانت تنملك الأطفال المسلمين فى القرى والمدن سعادة خاصة وهم ينتظرون حلول وقت طعام الإفطار أمام المساجد بينما يقف المؤذن على المنبذة قبيل حلول الموعد بنص ساعة لكى يعد القناديل ، ويقوم المدفعى بتنظيف ماسورة المدفع وحشوها بالطلقة . هكذا كانت تضى الحال حينما كانت القناديل تعمل بالزيت والغتيل وعندما لم تكن قد ظهرت

بعد الإضاءة الكهربائية في المساجد . وما أن يحل وقت المغرب بالضبط حتى يؤذن المؤذن لصلاة المغرب وفي الآونة نفسها ينقل القناديل إلى الجانب الخارجى من شرفة المئذنة . ويقوم المدفعى بعدما يكبر المؤذن لأول مرة بإطلاق المدفع ، ويصبح الأطفال فى صوت واحد : اشتعلت القناديل ، ويهرول الجميع إلى منازلهم وهم يطلقون نفس الصيحات .

وبعد مضى فترة وجيزة بعد آذان المغرب وإشعال القناديل وإطلاق المدافع تخلو الشوارع تماماً من الكبار والصغار ومن عابرى السبيل . وتنتشر فى جميع الأحياء والشوارع رائحة طعام الإفطار ويسود سكون وهدير غير مألوف فى منطقة السوق . وبعد صلاة المغرب والإفطار تستعيد الشوارع والأزقة نشاطها وتواصل منطقة السوق ضجيجها وصخبها . ويستمر الحال على هذا المنوال لفترة طويلة فى الليل تتخللها فترة انقطاع لأداء صلاة العشاء والتراويح فى المساجد .

ومن العادات الثابتة طوال شهر رمضان عقد دروس الوعظ فى المساجد . ومن خلال هذه الدروس يجرى الحديث عن الإسلام ومبادئه وتعاليمه ويتم التعرض لمختلف الموضوعات من حياة المسلمين ، وخاصة ما يتعلق منها بالعبادات . ويحدث هذا يومياً فى أغلب الأحوال ، بالنسبة للنساء أولاً ثم بالنسبة للرجال بعد صلاة الظهر . وفى المدن الكبرى يتم إلقاء دروس الوعظ فى أماكن عدة وفى مساجد عديدة . وفى بعض الأحيان يتم إلقاء دروس رمضان بعد صلاة التراويح فى قاعات الاطلاع الخاصة بالمسلمين وفى دور الأنشطة الاجتماعية وداخل المنازل .

وفى أغلب الأحوال يتم تكليف الطلاب القدامى بالمدارس الإسلامية وكلية أصول الدين وغيرهم لإلقاء هذه الدروس والمحاضرات . وهذه عادة ذات تاريخ قديم نسبياً . فقد كان من المعتاد أن يقيم هؤلاء الطلاب

خلال شهر رمضان في بعض الأماكن التي يعيش فيها المسلمون ، وهنا يقومون بأداء جميع الأعمال الدينية الإسلامية مثل تلاوة القرآن وأداء صلوات التراويح وإلقاء دروس الوعظ والتفقه في الدين وما إلى ذلك في المساجد . ويحصلون في مقابل أدائهم لهذه الأعمال على مكافآت نقدية أو عينية من سكان القرية أو المدينة ، الأمر الذي يفيد الكثيرين منهم ويعينهم على الوفاء بالتزاماتهم ومصاريفهم خلال فترة الدراسة . وكان هذا أمراً هاماً للغاية بالنسبة لبعض الطلاب لأنه في معظم الأحوال يمثل المصدر الوحيد المأمول لاستكمال تعليمهم ودراساتهم .

وعادة ما يتم في رمضان بالبويسنة والهرسك إعداد ولائم الإفطار التي تتم دعوة الأقارب والأصدقاء والجيران إليها ، وعلى الأخص الوالدان إذا كانا يعيشان بعيداً عن أولادهما . وغالباً ما يتم ذلك في النصف الثاني من رمضان . وهذه الولائم للإفطار تمثل متعة خاصة بالنسبة لأولئك الذين يعدونها ويحضرونها . ويتم في بعض الأماكن إعداد موائد إفطار مشتركة وجماعية للصائمين العاملين بالخارج طوال شهر رمضان . وقد اشتهرت تلك الولائم التي تم إعدادها منذ سنوات بنجاح كبير في مدرسة الغازي خسرو بك في سرايفو . وقد أصبحت هذه الولائم للإفطار تقليدية وتمثل بالنسبة للمشاركين فيها بهجة كبيرة ومتعة رمضانية متميزة .

ومما يذكر أن بعض أهل القرى من المسلمين يبدأون من اليوم الخامس عشر من شهر رمضان عملية الإفطار المشترك لأهل القرية جميعهم عند أحد سكان القرية أو في باحة المسجد ، ويستمر هذا الإفطار اليومي المشترك إلى وقت حلول العيد . وفي مدينة سرايفو ، على سبيل المثال ، يتم تقديم طعام الإفطار إلى المقرئين الذين يقيمون فيها طوال شهر رمضان ويقومون بتلاوة القرآن وأداء صلاة التراويح في مساجدها ، وكذلك إلى العرب الذين يأتون من أجل أداء الحج عن الغير ويمكنون في سرايفو أصياف رمضان وتلاوة القرآن في المساجد . ويقوم بتقديم طعام الإفطار الأغنياء والنسك وأهل الكرم من سكان سرايفو .

وعند الحديث عن رمضان وعاداته في البومنة والهرسك لابد من التطرق أيضاً إلى الحديث عن جلسات رمضان . وعادة ما تكون جلسات موسعة يتم عقدها في المنازل بعد الانتهاء من تناول طعام الإفطار المشترك ، وتجمع الأقارب والجيران والأصدقاء . ويتم فيها في أغلب الأحيان الاستماع إلى آيات القرآن الكريم سواء عن طريق القارئ أو شريط التسجيل أو جهاز الاسطوانة ، وإلى التواشيح الدينية وما شابه ذلك . ويتم فيها في بعض الأحيان لقاء محاضرات دينية ارتجالية مرتبطة بهذه المناسبة أو قراءة التواشيح الدينية وإنشاد قصائد المدح النبوي وقصائد عن الشخصيات الإسلامية المشهورة وما إلى ذلك . كما يتم الاحتفال بليلة القدر بنفس الأسلوب .

وتوجد في البومنة والهرسك عادة الاعتكاف التي استنها النبي عليه الصلاة والسلام . فيقوم الإمام والمؤذن ومن يرغب في ذلك في الاعتكاف الذي يبدأ من عصر اليوم العشرين وينتهي بعد صلاة العصر في اليوم الأخير من رمضان . وفي العادة يقوم الأثرياء من المسلمين بإعداد واحضار طعام الإفطار والسحور لأولئك المعتكفين ولغيرهم من الضيوف والمسافرين . وفي بعض الأحيان يتم تقديم الطعام أيضاً للمدفعجية الذين يطلقون المدفع في وقت الإفطار والسحور .

ومن المعتاد أن يعتكف شخص واحد في كل مسجد في المكان الواحد بغض النظر عن عدد المساجد الموجودة . وفي مرايفو يعتكف عدة أشخاص في عدة مساجد . ويتم الاعتكاف طوعية مع علم وموافقة الأجهزة المختلفة بالمشيخة الإسلامية ولكن دون تقديم تعويض مادي من جانبها .

مدينة ترافنيك

تعد مدينة ترافنيك من أقدم المدن في وادي نهر لاشفا ومركزه التاريخي ، وهي واقعة عند سفح جبل فلاشينش بارتفاع ٥١٤ متراً عن سطح البحر . وتشتهر المنطقة المحيطة بها بمساحات شاسعة من الغابات والمراعي الجبلية التقليدية التي تنتج نوعاً مشهوراً من الجبن يسمى جبن ترافنيك (أو جبن فلاشينش) .

وقد نشأت مدينة ترافنيك في موقع مناسب للغاية في وادي ضيق لنهر لاشفا ، وهذا الوادي يعد هو حلقة الاتصال الطبيعية بين نهر فرياس من الغرب ونهر البوسنة من الشرق ولذا فلن له أهمية كبيرة من الناحية الإستراتيجية ومن ناحية حركة المواصلات . وهكذا فلن مدينة ترافنيك التي تعتبر أكبر منطقة سكنية بهذا الوادي تقع في مفترق هام للطرق والمواصلات الأمر الذي يشتمل على أهمية عظيمة بالنسبة لتطور المدينة ونموها وتقدمها . ومن ناحية أخرى فلن للموقع الجغرافي أهمية لا مثيل لها بالنسبة لوجود المدينة ولتطورها الاقتصادي . وفي وقت من الأوقات كان هذا الموقع الجغرافي يناسب مؤسسي المدينة من أجل حمايتها ، وفيما بعد منح نفس هذا الموقع الجغرافي أفضلية للغزاة من أجل السيطرة على كل المنطقة المحيطة . وبوجه عام فقد مكنت الأحوال الطبيعية الملائمة والثروات المتنوعة للمنطقة من الحفاظ عليها عبر الأيام والمسنين .

وكانت منطقة ترافنيك آهلة بالسكان منذ خمسة آلاف عام قبل الميلاد أى في العصر الحجري الحديث . وتواجدت هنا حينذاك مناطق سكنية

وامتدت في جميع الاتجاهات في وادي نهر لاشفا وفرعيه بيلا وجروفيتسا . واستخدم سكان هذه المنطقة الأحجار والأسلحة الحادة والأدوات المختلفة . ومنذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد وحتى الحقبة الرومانية كان يستوطن هذه المنطقة الأيلير الذين اختلطوا في عام ٤٠٠ قبل الميلاد تقريباً بالكلت وشكلوا معهم السكان الأصليين لهذه المنطقة . وبقيت من هذا العهد الكثير من القلاع المحصنة التي كانت تستخدم للدفاع لأن القبائل الموجودة كانت كثيرة التقاتل فيما بينها .

وتعد الفترة الرومانية هامة أيضاً بالنسبة لمنطقة ترافنيك . وبعد الإستيلاء على شبه جزيرة البلقان احتل الرومان وادي نهر لاشفا وأقاموا فيه الكثير من المناطق السكنية . وبسبب موقع منطقة ترافنيك كملتقى للطرق وبسبب ثرواتها الطبيعية فقد ازدهرت قيمتها وأهميتها وأثر هذا بالتالي على تطورها ونموها الاقتصادي . ولعدة قرون أخذ الرومان يستخرجون الذهب من رمال نهر لاشفا . وكان يقوم بهذه الأعمال العسيرة العبيد الذين كان الرومان يستخدمونهم كقوة عاملة . وعن طريق استيطان السلاف الجنوبيين في شبه جزيرة البلقان في القرن السابع الميلادي حدث امتزاج بين السكان الأصليين وبين العناصر السلافية .

ودخلت مدينة ترافنيك في القرن الثاني عشر ضمن الدولة البوسنية . ومنذ ذلك الحين نجد أول المعلومات المسجلة عن منطقة ترافنيك . وأصبحت دوقية لاشفا حينذاك إحدى الوحدات الإدارية التابعة للدولة البوسنية ، وشملت المنطقة التي تحمل نفس اسم النهر ، وهي منطقة ترافنيك الحالية .

ومن المؤكد أن اسم مدينة ترافنيك مستخرج من كلمة « ترافا » ومعناها العشب أو الكلأ وذلك لأنه كان يقيم في هذه الدوقية الموظف الذي كان يقوم بتحصيل ضريبة الكلأ من كثير من أصحاب قطعان الماشية الذين

كانوا يسوقونها للرعى بهذه المنطقة . ومن اسم محصل ضريبة التّلا « ترافارنيك » يُفترض أنه نشأ اسم ترافنيك بالنسبة للمنطقة السكنية الموجودة حينذاك .

ويتم ذكر المدينة بهذا الاسم لأول مرة في التاريخ في عام ١٤٦٣ م . حينما دخلها السلطان العثماني محمد الثاني بجيشه الذي توقف هنا لفترة وجيزة بالقرب من أسوارها عند عودته من غزوته الناجحة وهو في طريقه إلى اسطنبول .

وخلال فترة الوجود العثماني نمت ترافنيك بحيث أصبحت مركزاً عسكرياً ، وكانت الحامية العثمانية المتواجدة بها آنذاك تمثل نقطة انطلاق لغزوات أخرى صوب الجنوب الغربي . كما كان يوجد بها مستودع هام للأسلحة والذخيرة يتم تزويد الحاميات العثمانية الأخرى . وفي الوقت الذي ضعفت فيه قبضة الدولة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان يتم بالقلعة الموجودة في ترافنيك حبس المتهمين السياسيين وأصحاب الاقطاعات والقواد العسكريين ، الذين تم فيما بعد إعدام كثير منهم .

وفي المنطقة القديمة من المدينة جرى إنشاء عدة مباني من أجل الجيش ، وفي المنطقة المنخفضة عنها اتسعت المدينة بحوانيت الحرفيين من أجل احتياجات الجيش والمتاجر والمساجد والحمامات والمباني الأخرى . وتعاظمت أهمية مدينة ترافنيك في البوسنة وأصبحت مقراً لإقامة الوزراء وولاة السلطان منذ عام ١٦٩٩ وحتى عام ١٨٥١ . وكان خليل باشا تشومو قد نقل مقر الوزارة من سرايفو إلى ترافنيك حيث أقام بها سبعة وسبعون وزيراً تركوا العديد من الآثار الهامة بالنسبة لماضيها . ومن هذه المدينة كان يتم حكم ولاية البوسنة كلها خلال مائة وخمسين عاماً تقريباً تتخللها فترات انقطاع قصيرة . وبفضل دورها في الحكم والسيطرة تطورت المدينة بحيث أصبحت مركزاً تجارياً وحرفياً كبيراً تصل إليه

السلع من فيينا والقسطنطينية وتريستا وفينيسيا ومن المدن الأخرى ، كما كان يتم تصدير المشغولات اليدوية من هنا إلى أماكن كثيرة بالبويسنة والبحر الأبيض المتوسط .

وفي أوائل القرن التاسع عشر فتحت هنا قنصلية لها كل من فرنسا (فى عام ١٨٠٧) ثم النمسا (فى عام ١٨٠٨) . وهكذا أصبحت ترافنيك أول مركز ذيلوماسى للبويسنة والهرسك ومقرراً للطرق والمصالح بين الشرق والغرب ، وميداناً للاتصال المباشر بين حضارتين مختلفتين اختلافاً كبيراً . وهذه الحقبة من تاريخ المدينة وصفها الأديب ليفو أندريتش وصفاً مؤثراً فى روايته المشهورة « تاريخ مدينة ترافنيك » وقصة « فيل الوزير » .

وفى تلك الفترة تطورت المدينة الواقعة بجانب نهر لاشفا ، وعلى الأخص منذ أواخر القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر . وبجانب النهر نشأ الشارع الرئيسى وأقيمت معه سلسلة من المباني الهامة : المسجد المزركش ومساجد أخرى بلغ عددها حوالى سبعة عشر مسجداً ، والحمام العمومى والمدارس الإسلامية والمحلات الشاملة الكبيرة والفنادق وصنابير المياه العمومية وأبراج الساعات وغيرها من المباني .

وبجانب نهر لاشفا أيضاً تم إنشاء مقر الوزير وهو عبارة عن مبنى ضخم به عديد من الغرف الواسعة ويشتمل على كل وسائل الراحة المتاحة فى ذلك العصر . وكان يعيش فيه الوزير مع حاشيته . وفى هذا المقر كان يتم عقد جلسات الديوان لأصحاب السلطة ، وفى هذه الجلسات كانت تصدر القرارات المصرية بالنسبة للبويسنة والهرسك كلها .

وفى عام ١٨٥١ حينما نقل الوزير عمر باشا لاتامس مقر الوزير من ترافنيك إلى سرايفو أصاب الكماد المدينة وانخفضت أهمية السوق الذى

كان يزود الوزير وحاشيته وعدداً كبيراً من الموظفين باحتياجاتهم . ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية القرن التاسع عشر بدأ السكان وعلى الأخص أصحاب الحرف والتجار يرحلون عن المدينة . ومع رحيل الوزير وحاشيته إلى مدينة سرايفو انخفض النمو المستقبلي للمدينة إلى وقت وقوع الأحداث المصيرية الجديدة التي أعقبت الاحتلال النمساوي المجرى فى عام ١٨٧٨ . ولم تظل ترافنيك بمنأى عن التغيرات التى حدثت فى مجال العلاقات الاجتماعية واحتلت ثانية مكاناً بارزاً فى نواصة الأحداث الجديدة . وعقب الاحتلال النمساوي المجرى للبوسنة والهرسك فى عام ١٨٧٨ وقعت تغيرات هائلة بهذه المدينة .

وفى أواخر القرن الماضى وبداية القرن الحالى ظهرت فى ترافنيك أول الإمكانات الصناعية ، فقد أقيم مصنع للدخان فى عام ١٨٩٣ ، ومصنع للكبريت فى دوتسا على نهر لاشفا فى عام ١٩٠١ ، ومصنع للمنتجات الخشبية فى منطقة توريه فى عام ١٩١٢ . وفى أكتوبر عام ١٨٩٣ وصل إلى المدينة أول قطار ، وفى عام ١٩٠٦ أضاعت بها أول المصابيح الكهربائية ، وأقيمت بها المدارس والمؤسسات الصحية وخلافه . وأصبحت المدينة مرة أخرى مركزاً لمنطقة البوسنة والهرسك واكتسبت سمات المركز العمرانى الحديث .

ومدينة ترافنيك حافلة بالآثار التاريخية والإسلامية الهامة . ومنها المسجد المزركش (أو السليمانية) . وهو أول مسجد شيده بهذا المكان الغازى أغا فى عام ١٧٥٧ وجدهه تجديداً كاملاً تشاميل أحمد باشا ولذلك سُمى « بالتشاميلية » . وأقيم أسفل منه محل كبير شامل به سبعة وعشرون حانوتاً وصنابير عمومية للمياه حول المسجد . وتخصص ليجار الحوانيت من أجل صيانة المسجد والحفاظ عليه . وفى أثناء الحريق الذى نشب فى عام ١٨١٥ احترق المسجد وقام بتجديده سليمان باشا سكوبلياك وأمر بزخرفة جدرانه الخارجية ، ونسبة إلى اسمه فقد جرت

تسمية المسجد « بالمليمانية » أو بالمسجد المزركش نسبة إلى زخارفه .

ويتميز المسجد بوجود مؤذنته على الجانب الشرقي بدلاً من الجانب الغربي ، وبأنه توجد بها - وفقاً لبعض المعتقدات - عدة شعرات من لحية النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أهداها إلى المسجد سليمان باشا سكويلاك باعتبارها وساماً عسكرياً حصل عليه من السلطان نظير خدماته العسكرية الجليلة . وعلى مقربة من هذا المسجد يوجد جسر حجري يعبر نهر لاشفا ، وهو مشيد في عام ١٥٩٠ .

وهناك أيضاً برج الساعة المشيد أمام قلعة المدينة ويرتفع عالياً فوق السوق الموجودة بالمنطقة المنخفضة . ومن المقترض أنه تم إنشاء هذا البرج في القرن السابع عشر ولكن بمرور الزمن أصابه التآكل والشيخوخة ولذا جرى إصلاحه وتجديده تجديداً شاملاً في عام ١٨١٥ ، وهذا هو ما تشهد به الكلمات المكتوبة بأعلاه . وفي أثناء الحريق الكبير الذي نشب في المدينة في الثالث من سبتمبر عام ١٩٠٣ أصيب البرج بأضرار بالغة واحترق سطحه الخشبي وتوقفت ساعته عن العمل . وتم تجديده في فترة ما بين الحربين العالميتين وذلك لاستخدامه في عمليات الإطفاء . وفي عام ١٩٦٤ تم ثانية تركيب ساعة به . وسميت المنطقة السهلية الموجودة حول البرج « بالمصلى » وذلك لأن أفراد الجيش كانوا يستخدمونها بالفعل كمكان للصلاة .

ونجد في المدينة أيضاً مسجد « بنى » (أى المسجد الجديد) وهو يعتبر من أقدم المساجد المصانة في المدينة نظراً لأنه مشيد في حوالي عام ١٥٤٩ . ومن المرجح أنه قبل ذلك كان مشيداً في نفس المكان. مسجد آخر أقدم منه ولكن لم يتم الحفاظ عليه . أما مسجد « بنى » فهو مشيد من الأحجار ولذلك تم الحفاظ عليه وصيانته . وفي وقت الحروب الكبيرة كان

يستخدم كمستودع للذخيرة . ويوجد بالمسجد أيضاً مدفن قديم للغاية تم فيه دفن العديد من الشخصيات العثمانية البارزة . ويبرز هنا ضريح عبده باشا الدفنتارى الذى يرجع إلى عام ١٧٨٥ .

ومن الآثار الهامة كذلك منزل حافظاديتش ، وقد شيده فى عام ١٨٥٨ الطبيب المجرى الدكتور لوكنتاى الذى توالجى بمدينة ترافنيك بعد إخضاع الثورة المجرية فى عام ١٨٤٩ . وحصل هذا الطبيب على حق اللجوء لدى العثمانيين بالمدينة وتخصص فى حقل الطب وظل هنا لمدة عشرين عاماً كاملة . وهذا المنزل مشيد فى شكل رومانى معدل ، وقد سُمى بمنزل حافظاديتش نظراً لأن عائلة حافظاديتش أصبحت مالكة له قبل عام ١٨٧٥ .

أما مسجد الحاج على بك فقد شيده محمد باشا كوكافيتسا ما بين عامى ١٧٥٧ و ١٧٥٩ بجانب مقر إقامة الوزير . وقد سُمى المسجد باسم حاج على بك لأنه بعد حريق عام ١٨٥٠ جنده تجديداً كاملاً خلال عامى ١٨٦٥ و ١٨٦٦ الحاج على بك حسن باشيتش بأمواله الخاصة . وعلى الحائط الغربى للمسجد تم تشييد ساعة شمسية فى عام ١٨٦٦ . وهى فى الوقت الحالى تعد الساعة الوحيدة من هذا النوع فى البوسنة والهرسك . والكتابة الموجودة على المسجد باللغة التركية عبارة عن مدح فى مسجد المسجد .

وفى أوائل القرن الماضى ، وبالتحديد فى عام ١٨١٧ أقام سليمان باشا سكوتلياك برجاً للساعة بجانب المسجد . وفى عام ١٨٢٢ تم تركيب جرس بهذا البرج . وخلال الحريق الذى نشب بهذا الجزء من المدينة فى عام ١٨٩٥ أصيب برج الساعة بإصابات بالغة إلا أن الحاج على بك حسن باشيتش قام بتجديده واشترى له جرساً جديداً من النمسا . وفى عام ١٩١٧ تم نزع هذا الجرس لاستخدامه فى أغراض أخرى . ومنذ ذلك الحين

وحتى تجديد البرج وشراء آلات جديدة للساعة فى عام ١٩٦٤ لم يعمل برج الساعة .

ومن بين الآثار التى ترجع إلى العهد العثمانى وجرى الحفاظ عليها حتى الآن ضريح الوزير أمام فندق أورينت . وفى الضريح الأيمن المشيد فى حوالى عام ١٧٤٧ يرقد جثمان موسين عبد الله باشا الذى جرى تنصيبه أربع مرات وزيراً فى ترافنيك ، ويرقد كذلك جثمان جلال الدين باشا الذى يعد من أكثر وزراء ترافنيك قسوة وشدة . وفى الضريح الأيمن الذى تم تشييده فى حوالى عام ١٨٠٠ يرقد رفات الوزير بريشان مصطفى باشا . وفى كلا الضريحين توجد توابيت حافلة بالنقوش الشرقية وشواهد للقبور تعد من الروائع التى قام بنحتها فنانو القسطنطينية ونقلت إلى هنا .

ومن المعروف أنه ولد بهذه المدينة فى التاسع من أكتوبر لعام ١٨٩٢ الأديب ليفو أندريتش الحاصل على جائزة نوبل للادب فى عام ١٩٦١ . وتم تجديد منزل مولده فى عام ١٩٧٤ بحيث أصبح يمثل مثلاً نموذجياً للمنزل البوسنى القديم . وخلفه يوجد فناء واسع ، ووفقاً للتقاليد السائدة آنذاك فقد تمت إحاطته بسور حجرى مرتفع .

ويوجد بالطابق الأرضى من المنزل معرض للطبعات الأولى لايفو أندريتش باللغة الصربوكرواتية وباللغات الأجنبية ، وكذلك الأشياء الخاصة بالاستعمال المنزلى اليومى . وتمت فى الطابق الأرضى أيضاً إقامة معرض للصور الخاصة برحلته إلى ستوكهولم بالسويد وبالاحتفال بتسليمه الجائزة .

وحجرة العمل الخاصة بالأديب مجهزة بالحاجيات الشعبية الأصلية من مدينة ترافنيك . وفى الطابق الأول توجد مكتبة ثرية بمؤلفات الأديب باللغة المحلية وترجمات لها باللغات الأجنبية وكذلك المقالات النقدية

والدرامات عن أعمال الأديب باللغة المحلية واللغات الأجنبية . وبعد وفاة الأديب تحول المنزل إلى متحف تذكاري له وأصبح معبداً حقيقياً للأدب يزوره كل يوم العديد من المحبين والعاشقين والمعجبين والمقررين لأدبه وأعماله .

وتوجد بالمدينة أيضاً المكتبة القومية التي تحمل اسم إيفو أندريتش وبها ما يزيد على أربعين ألف كتاب موجودة في متناول يد القراء وفي خدمة المترددين على المكتبة . وهناك مكتبة للأطفال في مبنى خاص . وكتب هذه المكتبة القومية في متناول يد سكان القرى النائية بفضل المكتبة المتنقلة التي تنقل هذه الكتب إلى هؤلاء القراء .

جسر على نهر درينا

جمهورية البوسنة والهرسك ثرية ثراء غير عادى بالجسور الحجرية المشيدة فى فترة وجود الأتراك العثمانيين بهذه المنطقة . والجسور الحجرية هى الوحيدة التى استطاعت أن تقاوم الزمن وظلت باقية حتى يومنا هذا بينما جميع الجسور القديمة المشيدة من الأخشاب تحطمت وانهارت .

ويعتبر الجسر الحجرى بناء معمارياً يتألف من مجموعة من العناصر المعمارية التى تعد نتيجة منطقية للأغراض التى تم تشييد الجسر من أجلها وللامكنات المعمارية المتوافرة . وهو كذلك محصلة نهائية لأفضل الحلول المتاحة القائمة على تكثيف أفضل التجارب السابقة . ومن جسر إلى جسر كانت الأحوال المتميزة والظروف الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية تدفع مصمم الجسر ومشيده لأن يعد تصوراً لحل معين وأن يبحث ، وهو يمزج بين هذه العناصر ، عن أنسب العلاقات فيما بينها التى ترضى الموقف الراهن . وهكذا كان لكل جسر من الجسور تميزه وشكله وروحه .

وتتوفر فى كل جسر حجرى العناصر الأساسية التالية : الأساس والأعمدة والقباب والأسوار الأمامية وحشو الجسر والتيجان والحواجز الأمامية والعناصر التكوينية والمعمارية والإضافية .

ومن الجسور المشهورة فى البوسنة والهرسك جسر موستار القديم الذى يثير إعجاب كل زائر بجماله وفتنته وروعته . ولا يقل عنه جمالا

الجسر المقام على نهر جييا ، وجسر « العنزة » المقام فى مدخل مدينة سراييفو ، وجسر أرسلان أغا عند بلدة ترييينا والجسر المقام فى كليتمى عند تشابلينا وجسور كثيرة أخرى تنتشر فى ربوع البوسنة .

ولكن من المؤكد أن أجمل هذه الجسور هو الجسر الحجرى الكبير المقام على نهر درينا . وهو جسر ثمين فى بنائه فريد فى جماله ولا تملك مثيلاً له مدن تتفوق على مدينة فيثيجراد تفوقاً كبيراً فى الثراء والتجارة . وقديماً كان يقال أن المملكة كلها ليس فيها إلا جسران اثنان من هذا الطراز . وقد نشأ الجسر فى ذلك المكان الذى دعت الحاجة وأوجبت الضرورة إلى عبور نهر درينا منه .

ومنذ قداماء الرومان وعبر كل العصور الوسطى كانت هناك أهمية حيوية لإقامة مثل هذا الجسر وتزايدت الأهمية بانضمام البوسنة وصربيا إلى الامبراطورية العثمانية . والحق أن هذا الجسر هو العمر الوحيد الدائم المضمون على المجرى الأوسط والأعلى من نهر درينا ، وكان هو المعبر اللازم الذى يربط بين البوسنة وصربيا ، ويربط من خلال صربيا بين البوسنة ومناطق أجزاء الامبراطورية العثمانية حتى اسطنبول .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن رحلة السفر عبر طريق القسطنطينية بما فيها المرور على هذا الجسر لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا . والجسر نفسه باعتباره بناء استراتيجياً اكتسب أهمية بالغة فى جميع اللحظات العصبية لتاريخ الشعوب اليوغسلافية . ففى خلال الثورة الصربية الأولى فى أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية ظل جسر فيثيجراد نقطة استراتيجية غاية فى الأهمية حدث من أجلها صراع بين مصالح القوى المتعارضة ، ولذلك أصيبت القيمة الثقافية والتاريخية والمعمارية لهذا الجسر تحت ضغوط الغليانات الاجتماعية . ونفس هذه الأهمية وتلك القيمة الكبيرة للجسر هى التى كانت تدفع إلى إعادة إصلاح أجزائه المحطمة بعد كل هدوء يعقب أى غليان اجتماعى .

وعند الجسر نفسه وعلى الضفة اليمنى من نهر درينا يقع مركز مدينة فيشيجراد وسوقها الشرقي الذي يمتد جزء منه في السهل ويثوى جزء آخر على منحدرات الربى . وفى الجهة الأخرى من الجسر ، وعلى طول الضفة اليسرى ، ينسبط سهل مالوهين وبه ضاحية سكنية تنتشر ديارها حول الطريق المؤدى إلى مراهفو .

وتوجد بين هذا الجسر وبين حياة سكان مدينة فيشيجراد رابطة حميمة عمرها قرون . ومصير هذا الجسر ومصير فيشيجراد بلقا من التداخل أن المرء لا يستطيع أن يتخيلهما منفصلين . قصة نشأة الجسر ومصيره هي فى الوقت نفسه قصة حياة المدينة وسكانها من جبل إلى جبل . كما أن جميع الحكايات التى تُروى عن هذه المدينة ينظمها خط الجسر الحجرى ذى القناطر الإحدى عشرة الذى تتوسطه بوابة كأنها له تاج . وتتشابك الحكايات عن التغيرات والأحداث التاريخية وعن تجارب الجماهير وعن الهزات التى أصابت المدينة وعن مصائر الأفراد . وعلى الجسر أو بجانبه تمر فى تسلسل تاريخى الحياة القلقة المنفعلة للبشر ومصائرهم المضطربة .

وهذا الجسر المشهور بعد أحد الأوقاف الخيرية التى أقامها واحد من أكبر حكام عصره الوزير الأكبر محمد باشا سوكولوفيتش ، وهو - من ناحية أخرى - يعد إنجازاً معمارياً لواحد من أكبر المهندسين المعماريين فى تاريخ فن المعماز المهندس ميمار سينان .

والوزير الأكبر محمد باشا سوكولوفيتش مولود فى أوائل القرن السادس بقريه سوكولوفيتش على مسافة غير بعيدة من مدينة فيشيجراد ، وقد نقل إلى القسطنطينية وهو صغير السن . وبفضل قدراته وكفاءاته ومواهبه وصل إلى منصب الوزير الأكبر . وخلال عهود ثلاثة من السلاطين العثمانيين حكم الإمبراطورية لمدة خمسة عشر عاماً . وقد سقط ضحية للاغتيال فى عام ١٥٧٩ م .

ولم ينس أبداً هذا الحاكم الكبير بلدة مسقط رأسه ولذا فلزته بالإضافة إلى المباني التي شيدها في القسطنطينية ويدرينا وحلب والمدينة. شييد في مسقط رأسه. مسجداً ومساخرة وشبكة مياه . وأمر أيضاً بتشييد هذا الجسر على نهر درينا على نفقته الخاصة وبأحدث المبل الممكنة وأفضل الإمكانيات المتاحة آنذاك . وأوقفه الخيرية منتشرة في جميع أنحاء الأراضي اليوغسلافية .

أما المهندس المشهور ميمار سينان فأعماله تمثل أفضل إنجازات فن العمارة العثمانية في وقت ازدهاره . والمشاريع التي نفذها والمباني التي أقامها تضعه في مصاف كبار المهندسين المعماريين في تاريخ فن المعماري على الإطلاق . وقد أقام في جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف قائمة طويلة من المشاريع والمباني يوجد من بينها ثمانية جسور كبيرة ومن بينها جسر فيشيجراد الذي يعد الانجاز الأخير الذي أقامه سينان من هذا النوع . وهو عمل جمع وكثف فيه الحد الأقصى من خبراته وتجاريه ومعارفه الثرية حتى ذلك الحين وقد بلغ من العمر ثمانين عاماً .

والعناصر المعمارية التي تم منها تشييد الجسر المقام على نهر درينا تكشف عن روح التقاليد الشرقية الثرية وتشكل انطباعاً بالبساطة التقليدية الهائلة . والجسر له إحدى عشرة قنطرة يتراوح قطرها بين ٦,٢٠ و ١٨,٢٠ متر . وينبسط خلف الجسر واد رحب يتموج وكان الجسر قاعدة له . ونظهر في هذا الوادي مدينة فيشيجراد الصغيرة وضواحيها .

والهيكل الرئيسي للجسر محمول على عشرة أعمدة حجرية قوية ذات أحجام غير متساوية . ويبلغ الطول الإجمالي للجسر ثلاثمائة متر ، وعرضه ستة أمتار . وهو مرتفع قليلاً في الوسط ، وهذا أمر مألوف في الجسور العثمانية . ويحيطه من الناحيتين إفريز حجري ارتفاعه متر واحد وعرضه ستون سنتيمتراً .

وتزين وسط الجسر بوابة حجرية عالية بها عبارات تتعلق بمعلومات عن تشييد الجسر . وهذه العبارات عبارة عن أبيات من الشعر نظمها شاعر من القسطنطينية يقال له بديع ، وفيها إشارة إلى اسم مشيد الجسر وأصله ولقبه وكذلك إلى العام الذي تم فيه تشييد الجسر وهو عام ٩٧٩ هجرية ، أى عام ١٥٧١ ميلادية .

والشاعر بديع هذا كان ينظم أشعاراً خفيفة فى مقابل نقود كثيرة . وكان يعرف كيف يفرض أشعاره هذه بمهارة بالغة على أقوىاء هذا العالم الذين يشيدون مباني عظيمة . وبالرغم من العطايا الجزيلة التى كان يحصل عليها الشاعر بديع فقد كان بائساً يتضور جوعاً وفى صراع دائم مع الفقر .

وكتب بديع يقول : هذا محمد بائساً أعظم العظماء وأحكم الحكماء فى عصره . لقد وفى بالعهد الذى قطعه على نفسه ، فأقام برعايته وجهوده هذا الجسر على نهز درينا . وعلى هذا النهر العميق السريع الجريان لم يستطع أن يفعل السابقون له شيئاً . والله أسأل أن يجعل مبناه قوياً متيناً ، وأن يرفل بثوب السعادة ألا يعرف الحزن إلى قلبه سبيلاً ، لأنه ظل طوال حياته ينفق الفضة والذهب فى أعمال الخير . وما من أحد يستطيع أن يقول أن المال الذى ينفق فى هذه الوجوه يذهب سدى . إن « بديع » الذى رأى كل ذلك نظم هذه الأشعار حين انتهى بناء الجسر . بارك الله هذا المبنى الذى بلغ فى جماله الإعجاز .

ويعلو هذا النص عبارات أخرى أحدث تاريخاً تتألف من ستة أبيات شعرية كتبها الشاعر « نيهادى » المولود فى سرايفو .

وبعد تشييد الجسر نمت مدينة فيشيجراد الموجودة حوله . وخلال القرون التالية استمرت منزلته ومعناه فى حياة سكان المدينة ، وكان معناه وجوه وجوده فى بقاءه ودوامه . فالقمر يكبر ويصغر فوقه والأجيال

تولد وتموت حوله وهو باق لا يتبدل كذلك المياه التي تجري تحت قناطره . ولئن أصابه الهرم فلن شيخوخته كانت تنلف إليه من مقياس زمني أكبر من أعمار أجيال كثيرة بحيث أن العين لا يمكنها أن تبصر تقدمه في السن . ورغم أن مصير الجسر إلى فناء فقد كانت حياته تبدو خالدة لأن نهايته لا يمكن التنبؤ بها .

ويتحدث أوليا شلبي في كتاب رحلاته عن الإصلاحات التي أجريت على الجسر منذ نشأته وحتى القرن التاسع عشر . وحسبما هو معروف حتى يومنا هذا فلن الجسر تواجد في أشد المواقف صعوبة في خريف عام ١٨٩٦ حينما فاض نهر درينا الذي ثبت في وجه أقوى الظواهر المائية الطبيعية كان ضحية لأعمال التدمير خلال الحربين العالميتين . ففي عام ١٩١٤ وفي أثناء انسحاب النمساويين من أمام الجيش الصربي أصابوا بالمتفجرات أحد أعمدته وذلك من أجل إعاقة تقدم أفراد الجيش الصربي . وفي خريف العام التالي (عام ١٩١٥) قام الجيش الصربي لنفس الأسباب بتدمير أحد أعمدة الجسر لاضطراره للانسحاب أمام الهجوم النمساوي .

وبعد عودة النمساويين إلى مدينة فيشيجراد مرعان ما أقاموا هيكلاً حديدياً يسمح بمرور المواصلات على الجزء المحطم . وفي عام ١٩٤٠ تم إجراء تجديدات بهذا الجزء من الجسر وأصيب الجسر مرة ثانية وفي نفس المكان في عام ١٩٤٣ خلال الحرب العالمية الثانية . وأجريت أعمال الإصلاح والتجديد تحت إشراف الهيئة الإقليمية لحماية الآثار بالبوسنة في الفترة من عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٥٢ . ومنذ ذلك الحين والجسر يتلألأ بنوره القديم إلى أن جاء عام ١٩٩٢ حينما أصيب الجسر بإصابات لم يتم تحديدها حتى الآن .

ويعتبر العديد من الخبراء أن أهمية هذا الجسر يمكن مقارنتها بأهمية

المباني التي أقامها كبار فناني عصر النهضة الإيطاليين مثل برامانت وميخائيل أنجلو . ومن المؤكد أن الجسر الذي أقامه محمد سوكلوفيتش على نهر درينا يعد من أعظم آثار فن العمارة في العصر العثماني .

وقد دخل الجسر في مجال الأمثال الشعبية فيقال أنه « صلب كالجسر المقام على نهر درينا » ، أو يقال أنه « دام مثل جسر على نهر درينا » . وهذا المثل الشعبي الأخير يرجح أنه ظهر بعد أحد الفيضانات الكبيرة مثل ذلك الفيضان الذي حدث في نوفمبر عام ١٨٩٦ .

والجسر المقام على نهر درينا هو الشخصية الرئيسية في الرواية المشهورة والمعروفة بهذا الاسم ، التي كتبها الأديب ليفو أندريتش وصور فيها أربعة قرون من حياة مدينة فيشيجراد وجسرها ، تبدأ من القرن السادس عشر وتنتهي بالحرب العالمية الأولى .

وهذه الرواية تعد فيلماً مستمراً لا ينقطع من الأحداث المثيرة . وإطار هذه الأحداث هو مدينة فيشيجراد بمناظرها الطبيعية الخلابة ، غير أن الممرح الحقيقي المشترك لهذه الأحداث هو الجسر المقام على نهر درينا . وهذا الجسر الذي يعبه كاتب الرواية بأنه لا مثيل لجماله ويدهش المرء من وجوده في هذه المدينة الصغيرة البعيدة ، هو المحور الذي يربط أجزاء هذه الرواية الفريدة بعضها ببعض ، وهو كالخيوط الرفيع يربط الأحداث التي تقع بالمدينة وعهودها المختلفة . وهذا الجسر شاهد على انتهاء أجيال ومولد أجيال أخرى ، وكل جيل جديد يحمل معه آمالاً متباينة وأفكاراً متجددة عن الحياة وعن القضايا الكبرى للوجود وعن الهدف من وجود الإنسان في الحياة . وتتغير من عهد إلى عهد حياة المدينة ويتبدل وجهها ويظل الجسر على الدوام ثابتاً يقاوم جميع عواصف الطبيعة وزوابع التاريخ بينما الجسر في وحدته وجلاله وعظمته صامد لا يقهر . وتتابع التغيرات على الجسر بلا انقطاع مثلهما مثل النهر الذي يجري أسفله .

والفصول المختلفة التى تتألف منها هذه الرواية هى كلها أقاصيص تربط بالجسر المقام على نهر درينا . والفصول الأولى لهذه الرواية مخصصة لكيفية بناء الجسر . وبواقعية كاملة تم وصف أساليب السخرة التى استخدمت فى إنشاء الجسر . ويعيد أندريتش الحياة ، نقلاً عن الأساطير وعن الحكايات الشفاهية ، إلى المواقف الحرجة الخطيرة حول تشييد الجسر ، ويرز القصص الخرافية عن الجسر وعن الثورات الخفية لعمال السخرة وعن أنشطتهم التخريبية وانتقامهم العجيب من المسادة الأتراك . وكان أندريتش واقعياً بدرجة غير مألوفة حينما وصف الغضب الشديد لعبيد أغا والانتقام للتركى الفظيع وما تركه من أثر مريع فى نفوس الجماهير الخائفة ومناظر السخرة .

وتحدث أيضاً على هذا الجسر المأسى البشرية الدامية . فخلال الثورة فى صربيا يتم استخدام الجسر ، ذلك الإنجاز المعماري العظيم من الناحية الفنية ، كمكان للإعدام بهدف صب الرعب والفرع فى قلوب ونفوس سكان المدينة فى الوقت الذى يفيض فيه طوفان التاريخ بالأحداث كما يتسبب الطوفان الطبيعي لنهر درينا فى فيضانه على الزرع والضرع . وهكذا تحدث الهزات التاريخية وتمر والجسر الحجرى ثابت وضامد فى مكانه معبراً عن زوال الحياة حوله ومضى القرون التى تمر عليه وتضيع فى بئر الأبدية . إن هذا الجسر ، فى تصور أندريتش ، كالزمن . إنه الفيلسوف الروائى الصابر فى هذه الحياة .

وينظرة منأية إلى هذه الرواية التاريخية يمكن التأكيد بأن محورها الأساسى هو الكفاح الأبدى للإنسان ضد السيل الجارف من المصائب ، سواء أكانت فى شكل كوارث طبيعية مثل الفيضانات والحرائق والزلازل ، أم كانت فى شكل بلايا اجتماعية غير متوقعة لا يمكن التغلب عليها مثل الأوبئة والحروب والظلم . ودائماً ما كان أندريتش يفكر تفكيراً فلسفياً

عميقاً بهدف البحث عن أسبابها الدفينة وإلقاء ضوء شامل عليها . وهكذا أصبحت مدينة فيشيغراد بجسرها صورة مصغرة للأحداث الكبرى في العالم . وقد ساق أندريتش كل هذه الأحداث بأملوب قصصي رائع وبسرد تاريخي محكم . وقد نال عن هذه الرواية بعض الجوائز الأدبية .

الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية

من الحقائق المهمة التى تبرز أمامنا باستمرار فى هذا العالم المترامى الأطراف أن اللغة هى الوسيلة المعصرية المتعارف عليها للتفاهم بين البشر ولذا فإنها تتعرض لمختلف أنواع التأثيرات الخارجية على مر الأزمنة والعصور . ومن أنواع هذه التأثيرات الخارجية هو ظهور الكلمات الأجنبية فى لغة من اللغات . ولا ريب بل ربما من المؤكد أن من الأسباب الرئيسية لظهور الكلمات الأجنبية فى لغة من اللغات هو اتصال واختلاط شعبين أو أكثر من الشعوب بأسلوب أو بآخر . ومن أجل كل هذا قرر علماء اللغة أن العنصر الأجنبى - وبالتحديد الكلمات الأجنبية - موجود بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة ومتباينة فى أية لغة من لغات العالم تقريباً وذلك لأنه لا يمكن لأية لغة مهما بلغت أن تعيش بمعزل عن الاتصال بغيرها من اللغات أو أن تعيش بمنأى عن مختلف التأثيرات الخارجية .

ونضيف إلى ذلك أنه ليست هناك لغة حية نظيفة مائة فى المائة ، أى لغة خالية خلواً تماماً من الكلمات الأجنبية . وقد أصبح الآن من المعروف أن كل لغة متطورة أو كل لغة تريد أن ترتدى ثياب العصرية لابد وأن تستعير من أخواتها اللغات الأخرى حسب احتياجاتها ومتطلباتها أى حسب احتياجات ومتطلبات عصرها الذى تحيا فيه . وكما يحدث بالنسبة لانتقال الناس من مكان إلى مكان فإن الكلمات هى الأخرى تنتقل إلى كل مكان أو بعبارة أصح من لغة إلى أخرى . ولا شك أن هناك العديد من العوامل والعناصر هى التى تحدد مدى ودرجة تعرض لغة من اللغات إلى تأثير اللغات الأخرى عليها ومن هذه العوامل على سبيل المثال لا الحصر تجاوز

الشعوب واختلاف ثقافتها وتعرضها للاحتلال سواء أكان عسكرياً أم ثقافياً أم اقتصادياً .

ولقد كانت الشعوب اليوغسلافية على اتصال مستمر ودائم بكثير من الشعوب العربية عبر السنين وذلك بسبب الوضع الجغرافى للأراضى اليوغسلافية والدور التاريخى الذى قامت به فى منطقة البلقان . ولذا فإن شعوب هذه المنطقة لم تستطع الإفلات من التأثيرات العربية التى وصلت إلى أماكن عديدة ومترامية ، وتظهر هذه التأثيرات بجلاه فى الكلمات والمصطلحات والتركيبات اللغوية العربية الموجودة فى اللغة الصربوكرواتية وهى اللغة السائدة فى يوغسلافيا سابقاً .

ومن الثابت أن هناك عوامل عدة هى التى شكلت الظروف وخلقت الإمكانات اللازمة لتسلل وتغلغل الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية . ورغم أن الكلمات الشرقية (ويقصد بها الكلمات العربية والتركية والفارسية) قد أخذت تتغلغل بأعداد كبيرة فى اللغات البلقانية وخاصة اللغات السلافية البلقانية مع ظهور الأتراك العثمانيين فى هذه المناطق إلا أنه لا يمكننا أن ننكر وجود تأثيرات لاحقة على هذه اللغات البلقانية من جانب الشعوب العربية . ومن بين هذه التأثيرات تأثير الآفار وهو شعب منغولى كانت له دولة عظيمة فى آسيا الصغرى وشرق آسيا ابتداء من القرن الرابع الميلادى وحتى القرن السادس . وفى القرن السادس انتقل جزء من هذا الشعب المنغولى إلى أوروبا ونزح إلى نهر الدانوب وثبت سلطانه على المنطقة الواقعة بين بحر أزوف (فى شمال البحر الأسود) وحتى شلمسكا (وهى المنطقة الواقعة بين بولندا وتشيكوسلوفاكيا الحالية) وذلك بعد أن أخضع كثيراً من قبائل الهون والبلغار والسلاف ، ولا شك أن ظهور الآفار فى وادى بانون واتصالهم بسكان منطقة البلقان وخاصة السلاف الجنوبيين أدى إلى ظهور بعض التأثيرات التركية التتارية والعربية على اللغات البلقانية .

ولقد كان الباحثون في هذا المجال يقررون إلى عهد قريب أن الحكم التركي لبعض الشعوب اليوغسلافية ، الذى استمر خمسة قرون ، هو المسئول أولاً وأخيراً عن ظهور الكلمات الأجنبية الشرقية وخاصة الكلمات العربية فى اللغات السلافية وفى اللغات البلقانية بوجه عام . ويتصل الأتراك بهذه الشعوب البلقانية أخذ تأثيرهم على هذه الشعوب يشتد وقد ترك هذا التأثير أثراً جلية متبانية فى هذه المناطق وفى لغاتها وثقافتها وكان علماء اللغة يدرجون الكلمات العربية الموجودة باللغة الصربوكرواتية تحت اسم الكلمات التركية . ومن المفهوم أن سبب هذا الخطأ هو غياب ونقص الأبحاث المتخصصة التى تدرس بشكل خاص موضوع الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية وتأثير العرب على شعوب البلقان .

إلا أننى خلال بحثى فى هذا المضمار برهنت على أنه كانت هناك على مر القرون وقبل احتلال الأتراك لهذه المناطق اتصالات عديدة تمت بين الشعوب العربية وبين الشعوب اليوغسلافية . ومما لا شك فيه أن هذه الاتصالات والعلاقات قد تركت آثارها على اللغة أيضاً . وقد أثبتت خلال بحثى بالدليل القاطع أن هذه الاتصالات بين العرب وبين الشعوب البلقانية ومن بينها الشعوب اليوغسلافية سابقاً بدأت منذ عهد الخلفاء الراشدين . ولا شك أن هذه الحقائق الجديدة المدعمة بالأدلة التاريخية تنحصر النظريات السابقة .

وأعتقد أن هذا الأمر يحتاج إلى وقفة متأنية نشرح فيها كيف تمت هذه الاتصالات والعلاقات بين الشعوب العربية وبين الشعوب اليوغسلافية التى لم تكن معروفة فى ذلك الحين بهذا الاسم وإنما كان يطلق عليها اسم «السلاف الجنوبيون» . وكان هؤلاء السلاف الجنوبيون موجودين فى الامبراطورية البيزنطية أو بعبارة أصح نزع هؤلاء السلاف إلى شبه جزيرة البلقان ابتداء من القرن السادس الميلادى . وقد رأى الامبراطور البيزنطى أن يجند هؤلاء السلاف فى جيشه حتى يسد العجز الموجود فى

جيشه نتيجة لعدم وجود العدد الكافي من الجنود البيزنطيين . وتحول السلاف الجنوبيون إلى قوات تحارب مع البيزنطيين وترد هجمات العرب المتكررة .

والأهم من ذلك أن السلاف الجنوبيين لم يحاربوا قط مع البيزنطيين وضد العرب بل حاربوا أيضاً مع العرب وضد البيزنطيين . وتذكر كتب التاريخ أنه في عام ٦٦٥ م . وفي عهد القيصر البيزنطي قسطنطين الثاني (٦٤١ - ٦٦٨ م .) انتقلت وحدة عسكرية بيزنطية قوامها خمسة آلاف جندي من السلاف الجنوبيين إلى صف القائد العربي عبد الرحمن واستوطنت سوريا .

وتحكي كتب التاريخ كذلك أنه قد جرت معارك دموية على الحدود بين الامبراطورية البيزنطية وبين الدولة الإسلامية في عهد الأمويين والعباسيين . وقد استمرت هذه المعارك والحروب ثمانية قرون اشترك فيها السلاف الجنوبيون مع المسلمين ومع البيزنطيين . وحتى بداية القرن العاشر الميلادي تقريباً كانت تتكرر كل عام تقريباً الهجمات من الجانبين ويتم أسر الجنود وتبادلهم . ومن المؤكد أن كل هذا يؤدي إلى حدوث اتصالات مباشرة بين العرب وبين السلاف الجنوبيين وإلى تبادل الاتجاهات الروحية والأفكار وأسباب الحضارة والثقافة . ولا يخفى على أحد تأثير كل هذا على اللغة .

ونضيف إلى ذلك الهجمات العربية على بحر الادرياتيك والتي استمرت في الأخرى قرنين كاملين على فترات متقطعة ثم الدور الذي قام به التجار الفاطميون في نشر الثقافة والحضارة وكذلك اللغة العربية . ولا ننسى كذلك اشتراك السلاف الجنوبيين في الحروب الصليبية .

ثم بعد كل هذا أتى الأتراك إلى الأراضي اليوغسلافية سابقاً وجنوباً معهم نظاماً اجتماعياً وإدارياً جديداً وحملوا معهم كذلك عناصر الحضارة

الثقافية العربية والإسلامية . وقد كلفت الامبراطورية التركية بحق تقوم بدور الوسيط والناشر لعناصر الثقافة العربية بين السلاف في منطقة البلقان كلها وقد قام بنقل هذه العناصر كل شخص تقريباً ابتداء من الجندي والتاجر وعن طريق رجل الدين والحجاج وكذلك عن طريق الولاة والحكام ورجال القلم بوجه عام . وخلال حكم الأتراك لهذه البلاد ظهر العديد من الأفكار والتصورات والمؤسسات والمصالح فدخلت بأسمائها دون تغيير في اللغة الصربوكرواتية . ويمكننا الآن أن نؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الأتراك ثبتوا عناصر الحضارة والثقافة العربية والإسلامية التي كانت موجودة قبل غزوهم للأراضي اليوغسلافية وأضافوا عليها الكثير . وكان التأثير عميقاً لدرجة أن كثيراً من العناصر الشرقية مازالت موجودة حتى الآن وبعد مرور فترة طويلة من الزمن على انتهاء وجود الأتراك في هذه المناطق .

ومن المؤكد الآن أنه كانت هناك ثلاث سبل تعد هي السبل الرئيسية التي تم عن طريقها نشر وانتشار هذه الكلمات الشرقية واتساع استخدامها لدى جماهير الشعب الصربي والكرواتي وعلى الأخص لدى سكان البوسنة والهرسك حتى يومنا هذا . وكان السبيل الأول هم أهل البلاد من المسلمين الذين يجيدون اللغة الصربوكرواتية والذين تعلموا في القسطنطينية ، وبعد عودتهم من دراستهم لم يكن بإمكانهم التخلص من تأثير اللغتين العربية والتركية عليهم . وابتدعوا في أعمالهم ونشاطاتهم في مختلف المجالات الثقافية والدينية نوعاً من اللغة الوسيط بين اللغتين العربية والتركية وبين لغتهم الأصلية الصربوكرواتية بحيث أنهم كانوا يستخدمون بالنسبة لكثير من المعاني الكلمات العربية والتركية والفارسية بعد تطويعها لروح وتطور اللغة الصربوكرواتية .

ورغم أن اللغة التركية من حيث أصلها وتركيبها تختلف اختلافاً عظيماً عن اللغة العربية إلا أن اللغة التركية قد أخذت من اللغة العربية

الكثير من الكلمات والتعابير وأضافت عليها البوائى واللواحق التركية أو حورت وغيرت فى معانيها وفى نطقها . وانتقلت هذه الكلمات بتغيراتها وأشكالها الجديدة إلى اللغة الصربوكرواتية ، واستخدمها اليوغسلاف وعلى الأخص أهل البوسنة كما هى أو ربما أضافوا عليها أيضاً البوائى واللواحق الخاصة باللغة الصربوكرواتية أو استخدموا بجانبها الأفعال المساعدة مثل يكون ويضع ويفعل إلخ . ولا شك أنهم كانوا مضطرين إلى ذلك لجهلهم النسبى بلغتهم الأصلية . فهم بجانب تعلمهم اللغات العربية والتركية والفارسية فى القسطنطينية لم يكن بإمكانهم أن يدرسوا فى نفس الوقت أيضاً لغتهم الأصلية . ومن هنا أتى عجزهم وعدم قدرتهم على إيجاد كلمات من لغتهم الأصلية تناسب وتعبر عن كثير من الأفكار والتعابير التى تعلموها باللغات المذكورة .

وقد ظهر نشاط هؤلاء الأفراد الذين تعلموا فى القسطنطينية فى المدارس الدينية وفى الكتاتيب وفى المواعظ والدروس الدينية المختلفة . وكان التلاميذ بهذه المدارس وكذلك المسلمون المحليون الذين كانوا غالباً ما يستمعون إلى دروس الوعظ - هم همزة الوصل ، وكانت عن طريقهم تتغلغل الكلمات العربية وغيرها من الكلمات الأجنبية وسط طبقات الشعب العريضة وتطبعت هذه الكلمات بطابع الكلمات الصربوكرواتية .

ولابد أن ننوه فى هذا المضمار أن اللغة العربية كانت هى الناقل الرئيسى ووسيلة التعبير الأساسية عن الثقافة الإسلامية بوجه عام . ولذا فلن تأثيرها على اللغة الصربوكرواتية انتشر واتسع فى كل مكان تقريباً وحتى خارج نطاق الدين . ولا ينبغي أن ننسى أن اللغة العربية هى لغة الإسلام وهى بالتالى لغة كل من اعتنق الإسلام . وبذلك أصبحت اللغة العربية إلى حد ما فى متناول جميع المسلمين بغض النظر عن قومياتهم وعن ثقافتهم . ومن المرجح أن عدداً من الكلمات العربية الموجودة فى اللغة الصربوكرواتية وخاصة تلك الكلمات التى تتعلق أساساً بالحياة

الدينية للمسلمين وبالدين الإسلامى وشعائره وأسماء المسلمين وألقابهم - دخلت إلى اللغة الصربوكرواتية مباشرة من اللغة العربية .

وفيما يتعلق بالعامل الثانى فمن الحقائق العامة المعروفة أن الشعر والنثر والتراث الشعبى باللغة الصربوكرواتية تتوفر فيه بغزارة الكلمات العربية خاصة والكلمات الشرقية بوجه عام . ولم يكن جامعو التراث الشعبى وكذلك أولئك الذين كانوا يشتهرون بأنهم شعراء يقرضون شعراً مماثلاً للشعر الشعبى - يدافعون عن تطهير الشعر والتراث الشعبى من هذه الكلمات المستعارة واستبدالها لإحساسهم أنها ليست بالغربية عليهم . ونظراً لشدة تعود عامة الشعب على هذه الكلمات ومسط الشعر الشعبى كانوا دائماً ما يتغنون به فقد أصبحت هذه الكلمات كالملح والبهارات للطعام أى أنه لا غنى ولا بديل عنها مطلقاً . ومن الطبيعى أن مثل هذا الشعر الشعبى قد أثر أيما تأثير فى اللغة اليومية لعامة الشعب .

ومما لا ريب فيه أن بعض اللغات الأوروبية هى السبيل الثالث الذى دخلت عن طريقه بعض الكلمات العربية إلى اللغة الصربوكرواتية . ومن هذه اللغات الانجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية وغيرها . ومن المعروف أن هذه اللغات الأوروبية تقبلت خلال القرون الوسطى عدداً من الكلمات العربية التى تم نقلها عن طريق مختلف العلوم مثل علوم الفلك والرياضة والكيمياء والطب وغيرها . والكلمات التى وردت عن طريق هذه اللغات قليلة ومحدودة الاستخدام ولها مميزات خاصة . وقد كثرت الدراسات المتخصصة فى هذا المجال الذى يبرز فضل اللغة العربية والعرب على لغات العالم .

وهناك قضية تستحق المناقشة ، فمن المعروف أن التعصب أو التحمس للغة القومية يدفعان ويحثان أهلها إلى تطهير لغتهم من الكلمات الأجنبية . وتتوقف قوة هذا التطهير وشدته على ما إذا كان الأمر يتعلق

بمحاربة تأثيرات أجنبية مفروضة بالقوة وبمحاربة تأثيرات تهدد اللغة القومية أم أن الأمر لا يتعدى كونه تأثيراً سلبياً طبيعياً للغة أجنبية على اللغة القومية .

وفى هذا المضمار لابد أن نبرز حقيقة هامة وهى أن موقف رجال اللغة وعلمائها حيال الكلمات العربية والتركية أكثر تساهلاً وتسامحاً من موقفهم حيال الكلمات المستعارة الأخرى المأخوذة من اللغات غير السلافية وذلك خلال عملية تطهير اللغة الصربوكرواتية من الكلمات الغريبة المستعارة . وعلماء اللغة الصربوكرواتية ورجالها أمثال فوك وياجيتش وماريتش كانوا أنفسهم يستخدمون الكلمات العربية والتركية فى أبحاثهم ومؤلفاتهم ، ومن الطبيعى أن موقفهم حيال مثل هذه الكلمات كان يختلف اختلافاً بئناً عن موقفهم حيال الكلمات الأجنبية عامة والكلمات الألمانية خاصة . والسبب الأساسى لذلك يرجع إلى أن اللغة الصربوكرواتية كانت تتطور وتنمو بحرية تحت الإدارة التركية . هذا علاوة على أن الأتراك خلال سيطرتهم على الأراضى اليوغسلافية لم يكتفوا كثيراً بعبادات أهلها ولا بلغاتهم ، ولم يتم فرض الكلمات التركية أو العربية بالقوة أو بتدبير معين . ووجود هذه الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية لم يثر أى احساس بالمهانة أو الضيق لدى جماهير الشعوب اليوغسلافية بحيث أنها كانت تتساهل وتتسامح مع الألفاظ العربية والتركية التى يوجد لها بديل مناسب فى اللغة الصربوكرواتية ويستمر هذا التساهل حتى فى اللغة الأدبية الفصحى وفى لغة الأدب المنشور .

ومن الغريب أن الباحثين كانوا فى الجمهوريات اليوغسلافية السابقة يدرجون الكلمات العربية باستمرار ضمن الكلمات التركية ويتناسون أن اللغة العربية هى الأصل . ويرجع السبب الرئيسى فى ذلك إلى نقص الأبحاث والدراسات العلمية الجادة التى تهتم بالكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية . ولكن لابد أن ننوه هنا على الفور أنه بدأت فى السنوات

الأخيرة فحسب تظهر محاولات علمية جادة من جانب مجموعة من الشباب المتحمس للعلم وللحقيقة رغبة منهم فى إلقاء أضواء الحقيقة على هذا الموضوع .

وأهم الأبحاث الجادة التى قامت بدراسة الكلمات التركية بما فيها الكلمات العربية هو قاموس المصنف المشرق المعروف عبد الله شكاليتش وعنوانه « الألفاظ التركية فى اللهجات الشعبية والأدب الشعبى لمنطقة البوسنة والهرسك » . وكما نرى من عنوان هذا القاموس فإنه لم يركز إلا على الأدب الشعبى بينما هناك العديد من المصادر الأخرى التى تفيض أيضاً بالألفاظ العربية . والأمل معقود على أن يقوم المؤلف بإستكمال هذا النقص .

وحسب ما ذكره مؤلف هذا القاموس فهو يحتوى على ٦٥٠٠ كلمة منها حوالى ٣٨٠٠ كلمة من أصل عربى ، ومن هذا يتبين لنا أن أكثر من نصف الكلمات الأجنبية كلمات عربية الأصل . وعلاوة على هذا فقد قام المؤلف بجهد مشكور فى تنقيح قاموسه وإضافة بعض الألفاظ الأخرى التى اكتشفها وهذا بالطبع يزيد من قيمة وأهمية هذا القاموس .

وخلال بحثى فى رسالة الدكتوراة عثرت على حوالى ١٢٩ كلمة عربية غير موجودة بقاموس شكاليتش المذكور أو فى أية كتب أو أبحاث تتعلق بهذا الموضوع . وقد أوردت كذلك أمثلة على كيفية استخدام الكتاب والأدباء من مختلف المناطق اليوغسلافية لهذه الكلمات . وهذا العدد وإن كان قليلاً فى حد ذاته إلا أنه يفتح الباب أمام الباحثين لتعميق الأبحاث والاستزادة من الدراسات فى هذا المجال .

ولا شك أن بعض النماذج والأمثلة للكلمات العربية الموجودة فى اللغة الصربوكرواتية سيعطى القارئ الفاضل صورة أحسن .

abn	مأخوذة من كلمة عباءة
	ولكنها هنا فى البومنة تطلق على نوع من القماش
	المحلى أو على الجبة المصنوعة من هذا القماش
adulat	عدالة
adat	عادة
ad'ajip	عجيب
ad'zam	غير عربى . فارسى
ad'zala	عجلة . سرعة
afijon	أفيون
berikat	بركة
bid'at	بدعة
bil'ahl	بإلله
bil'halr	بالخير
bismilla	بسم الله
bulbul	بلبل
cafle	كافر
cafurija	كافور
catip	كاتب
cefini	كفن
cemal	الكمال
cenfa	(الكنيف) دورة المياه - المراحيض
cefen	كتان
cebab	كباب
cevs	كشف
cibur	كبر . فخر

kitab	كتاب
kufari	كفار
kufur	كفر
kup	كوب
kurs	مأخوذة من كلمة كرمى وتعنى منبر الوعظ فى الجامع
daima	دائماً
daira	دائرة
dal	حرف الدال
dara	مأخوذة من كلمة طرح وتعنى ورق التغليف
dava	دعوة
def	الذف
dahlet	دهشة . بدهشة
dekika	دقيقة
dell	دليل . مرشد
derdza	درجة
ders	درس
dikat	دقة . عناية
din	دين
divit	نواية . محبرة .
džabija	جانبى الضرائب
džahil	جاهل
džals	جائز
džedval	جدول
džefu	من كلمة جفاء وتعنى المشاجرة والخلاف
džakalet	جهالة

džemat	جماعة
dženaza	جنازة
džerah	جراح
džerida	جريدة . صحيفة
džerima	غرامة
dževab	جواب
dževiz	جوز
džihad	جهاد
džilde	مأخوذة من كلمة جلد

وتعني السندان الذي يسند عليه صانع
الأحذية والنعال عند الإصلاح

džili	غلاف . جلد
džina	جنس
džube	جبة
džuma	صلاة الجمعة
džunup	الجنب . غير الطاهر
chalya	أهالي
ahli-kitab	أهل الكتاب
amor	أمر
emir	أمير
amri-lahl	أمر الله
erbeir	مأخوذة من كلمة أربعين

وتعني حالياً الفترة الأولى من الشتاء
وهي تستمر ٤٠ يوماً ابتداء من ٢٢
ديسمبر وحتى ٣١ يناير .

erzak	أرزاق
eser	أثر
esmer	أسمر
esap	من كلمة أثواب وتعنى الملابس والثياب
esrar	أسرار
estagfirullah	أستغفر الله
estja	أشياء
esraf	أشراف
evkaf	أوقاف
evlad	أولاد
evsat	أوسط . متوسط
faiz	فائظ
fajda	فايدة
fakir	فقير
falake	الفلقة . سوط الضرب
fani	فانى
farz	فرض
fasik	فاسق
fazla	فضلة
felah	فلاح
fen	فن . نوع
ferik	فريق . قائد الفرقة
fesad	فساد
feth	فتح
fid'ja	فدية

fikh	فقه
fil	فيل
fitilj	فتيل
frka	فرقة
gaflet	غفلة
gajret	غيرة
garet	غاراة
gusul	غسل ويقصد به غسل الميت
habib	حبيب
hadis	حديث شريف

أول قاموس صربوكرواتي - عربى

اللغة العربية متواجدة فى بعض جمهوريات يوغسلافيا سابقاً منذ دخول الإسلام إليها عن طريق الأتراك العثمانيين فى أوائل القرن الرابع عشر . وتعمقت جذور هذه اللغة خلال حقبة مديدة من سيطرة الامبراطورية العثمانية على هذه المناطق امتدت لما يقرب من خمسة قرون ، وساعد على ذلك أن اللغة العربية هى لغة الإسلام الذى حمل لواء نشره فى تلك المناطق الأتراك العثمانيون . وساهم أيضاً فى إنتشار اللغة العربية آنذاك وجود شبكة واسعة من المؤسسات التعليمية الإسلامية من كتاتيب ومدارس ابتدائية وإعدادية إسلامية ودور للمعلمين وغيرها . واللغة العربية هى كذلك لغة الثقافة والحضارة الإسلاميتين .

ومنذ ذلك الحين أصبحت اللغة العربية هى الوسيلة الرئيسية لاكتساب العلوم وبلوغ أرفع المناصب السياسية والاجتماعية والأدبية . ومن الطريف أيضاً أنه تم عن طريق اللغة العربية الحفاظ على قدر هائل من التراث الثقافى والأدبى لشعوب يوغسلافيا سابقاً ، ولشعب البوسنة والهرسك بشكل خاص . وهكذا استمر تواجد اللغة العربية فى هذه المنطقة حتى الوقت الحالى بالرغم من إنتهاء سيطرة الأتراك العثمانيين عليها ، وساعد على ذلك أن الدين الإسلامى مازالت - والحمد لله - جذوره راسخة هناك ومازال يعمر قلوب عدد كبير من المسلمين فى البوسنة والهرسك وغيرها من مناطق يوغسلافيا سابقاً مثل صربيا والجبل الأسود وكوسوفو ومقدونية .

وأضحت اللغة العربية فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية ، وعلى الأخص فى العشرين سنة الأخيرة ، فى عداد اللغات التى تلقى اهتماماً عاماً متزايداً على المستوى الجامعى وتحتم الضروريات الثقافية والاجتماعية معرفتها ودرايتها . وهناك فى الوقت الحالى أقسام لتدريس اللغة العربية فى الجامعات فى بلغراد بصربيا وسرايفو بالبوسنة والهرسك ويريشينا بكوسوفو ومكوبلي بمقدونية وغيرها .

ولذا أضفنا إلى كل هذا ما حدث فى الآونة الأخيرة من انفتاح اقتصادى وسياسى وعلمى بين الدول العربية وبين الجمهوريات التى كانت تعرف من قبل باسم يوغسلافيا منذرك لماذا زاد الاحساس منذ فترة طويلة بضرورة وجود قاموس صربوكرواتى - عربى . واللغة الصربوكرواتية هى اللغة الأكثر إنتشاراً فى هذه المناطق .

والحقيقة أنه بالرغم من تزايد عدد المهتمين والدارسين للغة العربية فى البوسنة والهرسك بشكل خاص وفى المناطق لليوغسلافية بشكل عام ورغم طول الحقبة الزمنية التى جرى فيها تدريس اللغة العربية فى مختلف المؤسسات التعليمية بها ، ورغم أنها أصبحت إحدى اللغات الرسمية فى الأمم المتحدة إلا أنه إلى عهد قريب لم يكن هناك قاموس صربوكرواتى - عربى يسد مطالب واحتياجات الدارسين والمهتمين . ولا يخفى على أحد أن القواميس المزدوجة اللغة هى فى الوقت الحالى تجربة مألوفة فى عالمنا المعاصر وذلك لأنه لا يمكن بدونها تصور تعلم اللغات الأجنبية والدخول فى مجال ومدار الاتصالات الثقافية المتشعبة بين أرجاء العالم قريبا وبعيدا . كما أنه ليس من نافلة القول للتنويه هنا إلى دور المعاجم وأهمية اللغات فى تيسير التفاهم ونشر الثقافة والعلوم بين مختلف شعوب العالم وفى تعميق الصلات والتعاون البناء لخير الإنسانية والبشرية جمعاء .

ومن أجل سد هذا النقص الشديد قام بعض الأفراد والمؤسسات بمحاولات متنوعة ولكنها لم تكلل بالنجاح في حينه إلى أن جاء التعاون المثمر بين المشرق د. حسن قلثي والباحث المصري د. كامل اليوسى وأثمر عن ظهور أول قاموس صربو كرواتي - عريب .

ورغم أن هذا القاموس - حسب معلوماتي الشخصية - جاهز للنشر منذ ما يربو على العشرين عاماً إلا أنه تضافرت عوامل عدة على عدم طبعه حتى وقت قريب . وحسب علمي فقد قام المؤلفان بمحاولات عدة لطبعه في جمهوريات يوغسلافيا السابقة وفي مصر ولكن دون جدوى . وأعتقد أنه كان هناك تخوف لدى جهات النشر في البلدين من الأقدام على مثل هذا المشروع على زعم أنه غير مريح من الناحية الاقتصادية . ومن المرجح أنه كانت هناك بعض العوائق المالية والإدارية .

ومن حيث القيمة العلمية والثقافية فإن هذا القاموس يعد مساهمة هامة في مجال دراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية بالبوسنة والهرسك وغيرها من الجمهوريات المتحدة باللغة الصربو كرواتية ، وهي الدراسة التي لا يمكن تصورها وتطورها بدون المعرفة الحقيقية الجادة للغة العربية .

ويشتمل هذا القاموس على ما يربو على خمسين ألف كلمة وتعبير باللغة الصربو كرواتية ويقابلها معانيها باللغة العربية . ويلاحظ أنه تم انتقاء هذه الكلمات بدقة وعناية بحيث يكون المصدر هو الجذر الأساسي للكلمة ثم تتفرع منه مشتقاته تيسيراً للكشف عن الكلمات .

وقد تسلمت مخطوطة القاموس مجموعة عمل من كبار المشرقين بالبوسنة والهرسك . وقامت هذه المجموعة بمراجعة الكلمات الصربو كرواتية والكلمات العربية ودقة المعاني وتطابقها . ومثل هذه الطريقة الحديثة للإعداد والمراجعة تسهل عملية تسجيل وحفظ هذا القدر الهائل من الكلمات والرجوع إليها عند إعادة طبع القاموس مرة أخرى

أو القيام بمشروعات معجمية مماثلة . وهذا يوضح أن الجانب الفني من هذا القاموس يقترب من المتطلبات العصرية لاستعمال المعاجم .

ونظراً لوفاء المؤلفين قبل الشروع فى إعداد القاموس للطبع فلم يتمكن أحد من أعضاء مجموعة العمل من معرفة الأسلوب الذى تم به إعداد واختيار الجزء الاسامى من القاموس ، أى المتعلق بالكلمات الصربوكروانية . ومن المرجح أنه جرى استخدام أحد القواميس مزودة اللغة التى جرى نشرها من قبل كأساس ومرجع ومصدر لكلمات هذا القاموس الموجود بين أيدينا الآن .

وهذا الجزء الاسامى من القاموس يتضمن الكلمات والتعابير بلغة الحديث اليومية ولغة الأدب والصحافة ، ويتضمن كذلك عدداً كبيراً من الأسماء الفنية فى مجالات العلوم الاجتماعية والطبيعية والتطبيقية والفنون وعلوم الدين وغيرها .

ومنذ البداية اتفقت مجموعة العمل الخاصة بالمراجعة على أن تحافظ على النص الذى تركه المؤلفان وتحترمه وألا تقوم بتدخلات وألا تجرى تغييرات جوهرية عليه . ولذا كانت تدخلاتها عامة ونتيجة لذلك فإن الجزء الاسامى من القاموس يحتوى على بضع كلمات قديمة ومهجورة وعلى صيغ غير شائعة الاستعمال وقت ظهور القاموس مطبوعاً . وهناك ملاحظات أخرى وعدم التزام بالقواعد المعجمية .

إلا أن هذه النقائص لا تنقل على الإطلاق من قيمة هذا القاموس خاصة إذا تذكرنا أن هذا هو أول قاموس من هذا النوع فى اليوسنة والهرسك وفى غيرها من المناطق المتحدثة باللغة الصربوكروانية وكذلك فى المنطقة العربية . ورغم هذه النقائص وما شابهها فمن المرجح أن القاموس سيقى بفرضه وسيكون ، على نحو ما ، أسماً رائداً فى المستقبل لقواميس مماثلة أكثر حداثة ودقة .

والدكتور حسن قلشي (١٩٢٢ - ١٩٧٦) صاحب فكرة هذا القاموس وأول منفذ لها بعد من أبرز المستشرقين بالجمهوريات اليوغسلافية السابقة . ويرجع أصله إلى عائلة من عائلات علماء المسلمين بجمهورية مقدونية . وبدأ منذ عامه السادس يجيد اللغة العربية على يد والده . وبعد انتهائه من المدرسة الابتدائية انتظم بالمدرسة الإسلامية العليا في سكوبلي وأنهى ست سنوات من تعليمه الثانوي بها ، ثم قطع دراسته بسبب الحرب العالمية الثانية واستكملها وأنهاها في برشتينا في عام ١٩٤٤ . والتحق بعد الحرب بكلية الآداب بقسم الفيلولوجيا الشرقية بجامعة بلغراد . وبسبب نجاحه الباهر وموهبته الخاصة في تعلم اللغات الأجنبية تم تعيينه معيداً بالكلية . وناقش رسالته للدكتوراه في عام ١٩٦٠ وبعد ذلك تخصص في دراسة علوم اللغة التركية في هامبورج بألمانيا . وقام بتدريس مادة التاريخ في المعهد الألباني ببريشينا . وعند تأسيس قسم اللغات الشرقية بجامعة بريشتينا عمل به أستاذاً متفرغاً وألقى محاضرات في اللغتين العربية والتركية .

وألّف الدكتور حسن قلشي ما يزيد على ثلاثمائة من الأبحاث والدراسات العلمية في مجال الاستشراق والدراسات العربية والأبحاث المقارنة باللغات الألبانية والصربوكرواتية والمقدونية والتركية وبعض اللغات الأخرى . وقد حضر وساهم مساهمة فعالة في عديد من اللقاءات والمؤتمرات العلمية في اسطنبول وصوفيا وميونخ وباريس ونابولي وبراتسلافا وشيكاغو وغيرها من المراكز الثقافية والعلمية وله العديد من الأبحاث التي لم يتم نشرها حتى الآن .

أما الأستاذ كامل البوهي فقد كان يعمل مديراً عاماً لإذاعة القرآن الكريم بالقاهرة ورئيساً لاتحاد الجمعيات الدينية بمصر ، وقد تعاون في إعداد هذا القاموس وتأليفه مع الدكتور حسن قلشي خلال فترة تواجده في

بلغراد لمدة خمس سنوات حيث عمل بها أستاذاً للغة العربية بجامعة بلغراد ، ثم استكملا عملهما بعد ذلك في مصر .

ومما لا شك فيه أن ظهور هذا القاموس الصربوكرواتي - العربي من تأليف الدكتورين حسن قلشي وكامل البوهي يعد حدثاً أدبياً وثقافياً مهماً على صعيد العلاقات الأدبية والثقافية بين الدول العربية والبوسنة والهرسك وغيرها من الجمهوريات اليوغسلافية السابقة المتحدثة باللغة الصربوكرواتية . ومن المؤكد أن هذا القاموس سيسعد جميع أولئك الذين يستخدمون اللغة العربية بطريقة أو بأخرى في أعمالهم أو أبحاثهم أو دراساتهم لعلوم اللغة العربية أو للعلوم الإسلامية مثل طلاب المدارس الإسلامية وكلية الدراسات الإسلامية والأئمة والوعاظ والعاملين بالمشيخة الإسلامية وكذلك أولئك العرب الذين يدرسون في الجامعات المتحدة باللغة الصربوكرواتية .

ولا يتم مطلب الكلام دون التنويه إلى ناشر هذا القاموس ألا وهي المشيخة الإسلامية بالبوسنة والهرسك التي تستحق كل الشكر والتقدير على ما قدمته حتى الآن من كتب جادة ومعاجم فريدة لا غنى عنها لأي باحث يهتم بهذا المجال . كما أنها تستحق كل ثناء وتبجيل لمبادرتها بالبحث في القاهرة عن مخطوطة هذا القاموس وإنهاء كل المشاكل المادية والإدارية المتعلقة بالبده في طبع ونشر هذا القاموس .

وعن طريق المطبوعات ذات القيمة العلمية الكبيرة التي طبعتها المشيخة الإسلامية اكتسبت سمعة الناشر الجاد الهام في مجال الدراسات العربية والإسلامية . وقد لاقت هذه المطبوعات قبولاً طيباً لدى القراء واستحساناً من جميع الأوساط الثقافية والأدبية بالبوسنة والهرسك وغيرها من الجمهوريات اليوغسلافية السابقة .

دراسة جديدة عن اللغة العربية

من المعلوم أن دراسة اللغة الأجنبية تبدأ بالتعرف على نظامها الصوتي وعلى حروف أبجديتها ، الأمر الذى يسهم فى التمكن من نطق حروفها وكلماتها . وعادة ما توجد بالنسبة لهذه المرحلة الأولية من الدراسة كتب مدرسية مناسبة فى علم الأصوات ، أو على الأقل يتم تخصيص باب من أبوابها لشرح الظواهر الصوتية . وهذه هى الحال تقريباً فيما يتعلق باللغات الأجنبية المشهورة ، وفى المقام الأول بالنسبة للغات العالمية . ولهذه اللغات الأجنبية التى تجرى دراستها فى البوسنة والهرسك ما يكفئها من الكتب المدرسية المختصة بعلم الأصوات إلا أن الوضع يختلف بالنسبة للغة العربية .

فبالرغم من اتساع نطاق الدارسين للغة العربية فى البوسنة والهرسك ورغم طول الحقبة الزمنية التى جرى فيها تدريسها فى مختلف المؤسسات التعليمية بالجمهورية ورغم أنها أصبحت إحدى اللغات الرسمية فى الأمم المتحدة إلا أنه تلاحظ وجود نقص بين الكتب المدرسية والمراجع المناسبة لدراسة اللغة العربية وقواعدها ، وعلى الأخص تلك الكتب التى تسد مطالب واحتياجات الدراسة الجامعية . وهو نقص لا يتناسب على الإطلاق مع تاريخ انتشار اللغة العربية فى البوسنة والهرسك . وكان هذا النقص من العوامل التى تؤثر تأثيراً سلبياً على فعالية ونتائج دراسة هذه اللغة .

وفى الواقع كانت توجد بعض الكتب المدرسية التى تهدف فى الأساس إلى سد الاحتياجات التعليمية فى المدارس الثانوية ، وهى فى

معظمها كتب لقواعد ونحو اللغة العربية ولا تزال مستخدمة حتى الوقت الحاضر . وتقدم هذه الكتب التوجيهات الأساسية لنطق الحروف العربية إلا أنها لا يمكن أن تحل محل كتاب يعرض بشكل شامل منظم لعلم الأصوات في اللغة العربية .

ومن الملاحظ ، بوجه عام ، قلة عدد الدراسات والأبحاث في مجال الأصوات الخاص باللغة العربية وذلك إذا ما قورن بعدد الدراسات في اللغة العربية عموماً . وليس من نافذة القول بالتنبؤ به إلى أن العلماء العرب القدامى اهتموا بنظام الأصوات في اللغة العربية ودرسوه وفسروه بتعابير ومصطلحات تعبر عن آرائهم النظرية وعن مستوى الفكر العلمي الذي كان سائداً في زمانهم . إلا أنه لم يكن من الممكن نقل هذه النتائج الخاصة بالأصوات إلى مجال الدراسات العربية في أوروبا في القرن التاسع عشر وذلك بسبب نقص الدراسات الصوتية المتخصصة آنذاك ، وفي المقام الأول نقص الدراسات الخاصة بالحروف المتحركة . وهكذا تلاحظ في أواخر القرن التاسع عشر وجود توقف معين في مجال الدراسات الصوتية الخاصة بنظام الأصوات في اللغة العربية . ويكفي إلقاء نظرة على الكتب المشهورة مثل كتاب النحو الذي وضعه « رايت » أو ذلك الذي ألفه « بروكلمان » للتأكد من النقص السائد في مجال الدراسات الخاصة بالأصوات العربية أو بحثها بطريقة علمية يعول عليها .

ويفضل ظهور بعض الدراسات للأنظمة الصوتية في بعض اللهجات واللغات العامية العربية بدأ توجيه اهتمام أكبر لهذه النوعية من الدراسات المتخصصة بحيث أننا حصلنا في العشرينيات من القرن الحالي على أول دراسة عملية عصرية للأصوات في اللغة العربية تأليف هـ.ت. جارنر . وتمثل هذه الدراسة الصوتية الحديثة أول مؤلف أوروبي في علم أصوات اللغة العربية ، ولذا فقد كان لها أكبر الأثر في إلهام مختلف

الباحثين للقيام بدراسات جديدة تستخدم الأساليب العصرية المتاحة .
وصدورها يمثل أيضاً علامة بارزة في تاريخ الدراسات المتعلقة بعلم
الأصوات في اللغة العربية .

وفي فترة ما قبل الحرب انتشرت الأبحاث الخاصة باللهجات ،
وأصبح مختلف اللهجات العربية في شرق وغرب العالم العربي مادة
لدراسات خاصة . وساهمت المادة الصوتية الوفيرة التي تم جمعها في
تشجيع مواصلة الأبحاث وتكثيفها وتطويرها الأمر الذي سمح بظهور
آراء جديدة في العالم الكبير - المجهول آنذاك - للظواهر الصوتية في
المنطقة المتحدثين باللغة العربية ، وأدى إلى ظهور معارف علمية جديدة .

وتزايدت المعارف في تنوع الأنظمة الصوتية للهجات العربية في
علاقاتها المشتركة وفي علاقاتها باللغة الأم - اللغة العربية الفصحى -
وفي الآونة نفسها قام المستشرقون الأوروبيون بتوجيه اهتمام أكبر
لمختلف الدراسات في مجال علم الأصوات الخاص باللغة العربية .
وخلال الثلاثينيات تزايد الاهتمام بإعداد دراسات عن الآراء الخاصة بعلم
الأصوات والواردة في كتب الباحثين العرب القدامى . واستمر هذا
الاهتمام حتى بعد الحرب العالمية الثانية .

وسرعان ما ظهرت مجموعة جديدة من الباحثين العرب المعاصرين
الذين تلقوا تعليمهم في المراكز الجامعية الأوروبية والأمريكية ، وقاموا
بالعديد من الدراسات الأصلية الجديدة ذات النوعية المتميزة التي تعد
مساهمة ضخمة في جميع مجالات دراسات اللغة العربية ، وعلى الأخص
في مجال علم الأصوات ، وقدم هؤلاء الباحثون نظريات لغوية
معاصرة في مؤلفاتهم .

وبفضل الإمكانيات التكنولوجية الهائلة التي تقدمها التحليلات
الأكترونية الحديثة وبفضل مختلف الآلات الجديدة في فحص الأصوات

ثم الشروع أخيراً فى إعداد دراسة عن النظام الصوتى للغة العربية الأمر الذى سيعمل على تطوير الدراسات العربية وميعطى نتائج ثمينة غاية فى الدقة .

وقد عمل الدكتور مرجان يانكوفيتش ، مؤلف الكتاب ، لسنوات عدة أستاذاً بقسم اللغات الشرقية بكلية الفلسفة فى سراييفو . وتخصص فى بحث قضايا اللغة العربية الحديثة ، وبالتحديد فى بحث تلك القضايا المتعلقة باللغات العامية فى الوطن العربى عامة وفى مصر بصفة خاصة . وله عدة دراسات رائدة فى هذا المجال . وبذل جهداً مكثفاً مع طلبة المرحلة الأولى من أجل التمكن من نطق الأصوات العربية . واكتسب فى هذا المضمار خبرة طيبة تؤكد ، بما لا يدع مجالاً للشك ، مقدار صعوبة وعظم عملية التمكن من المواد المدرسية فى ظل عدم وجود كتاب مناسب فى علم أصوات اللغة العربية . وكان يتم التمكن من نطق الحروف العربية عن طريق تقليد ومحاكاة المحاضر بينما كانت أذهان الطلبة تفتقد وجود مدخل لعلم أصوات اللغة العربية . وفى كثير من الأحيان يتقن المؤلف بنفسه من عدم صحة نطقهم بل ومن وجود أخطاء فى المعلومات المكتسبة لدى طلبة المرحلة الأخيرة من التعليم . ومن هنا ساد الإحساس منذ سنوات عديدة فى الأوساط الثقافية والعلمية بالحاجة إلى كتاب فى علم الأصوات ، وكان هذا كله دافعاً له لإعداد عرض موجز مناسب لعلم الأصوات فى اللغة العربية وفقاً للنتائج العلمية الحالية .

ويعتبر كتاب « النطق العربى » أول دراسة علمية من نوعها فى مجال علم الأصوات الخاص باللغة العربية . وأعدده مؤلفه مستهدفاً به فى المقام الأول أن يكون مرجعاً للطلبة الذين يدرسون اللغة العربية بالجامعات المذكورة وراعى فيه المؤلف احترام المبادئ الأساسية للتعليم مثل التدرج والوضوح والإجمال فى الانتقاء اللازم عند إعداد مثل هذه الكتب الجامعية . كما راعى من ناحية أخرى الاعتماد على الإنجازات

العلمية المتطورة في هذا المجال . ويمكن القول بأن هذا الكتاب علاوة على كونه كتاباً جامعياً على مستوى طيب فإنه في الآونة نفسها يعد دراسة علمية جادة في مجال الدراسات الاستثنائية في جمهورية البوسنة والهرسك .

ولابد من تقديم موجز لمضمون الكتاب من أجل توضيح هيكله والتعريف بحجمه . فهو يشتمل على ١٤٧ صفحة وتحتل المقدمة خمس صفحات وباقي الصفحات موزعة على النحو التالي : المدخل - ٣٤ صفحة ، الأبجدية العربية - ١٧ صفحة ، نظام أصوات اللغة العربية - ٣٤ صفحة ، نظام الحروف المتحركة ١٦ صفحة ، المقطع وبعض التغيرات الصوتية - ٢٢ صفحة . وفي النهاية يأتي بيان بأسماء المراجع التي استخدمها المؤلف عند الكتابة واستشهد بها خلال عرضه لمادة البحث .

وأول ما يلفت النظر أن الباب التمهيدى الأول المسمى « بالمدخل » يحتل عدداً كبيراً من الصفحات ، فهو يشكل حوالى ربع صفحات الكتاب . وفيه يتحدث المؤلف ، شارحاً ومحللاً ، عن النطق ، وأجهزته والخصائص السمعية للأصوات وإمكانية وصفها وتصنيفها وتقسيمها إلى متحركة وساكنة . وهى كلها معلومات أولية أساسية استهدف المؤلف من الاستفادة فيها أن يشكل لدى الطالب الجامعى والقارئ المثقف الذى يقتد إلى المعلومات العامة فى مجال علم اللغة والأصوات خلفية جديدة تساعد على فهم ومتابعة قضايا ومشاكل علم أصوات اللغة العربية . ويتسم هذا الباب التمهيدى بالتمكن من المادة والتعمق فى شرحها ، وأسلوب المؤلف فيه علمى واضح يتناسب مع مختلف المستويات .

ووفقاً لطبيعة اللغة العربية ولتطورها التاريخى فقد عرض المؤلف بعناية ودقة تاريخ ونظام الحروف باللغة العربية فى الفصل الثانى من

كتابه . وتم تقديم هذا العرض بشكل يرتبط ارتباطاً عضوياً بقضية علم الأصوات الخاص باللغة العربية وما يتصل بها من قضايا تاريخية وثقافية . ويتميز هذا الفصل بالديناميكية ووفرة المعلومات والشمول .

ولا يمكن في هذه العجالة تقديم تحليل مفصل لما ورد بالفصلين الثالث والرابع عن الحروف الساكنة والمتحركة في اللغة العربية . فهذا الجزء يمثل النواة الرئيسية للكتاب وتتوفر فيه أيضاً كمية هائلة من المعلومات الدقيقة الجديدة . وهناك مناقشات تمتد على بضع صفحات لمعالجة الأصوات التي تختلف ، في كثير من الأحيان ، بشأن طبيعتها آراء العلماء والباحثين . وهذه المناقشات تمثل ، حقيقة دراسات مصغرة قام المؤلف بإنجازها في صبر وأناة ومثابرة وطرح فيها ملاحظات طريفة وخواطر مثمرة ، وصال فيها بغزارة علمه وفيض معلوماته وجال فيها بدقته التحليلية وواقعيته الموضوعية .

وبالإضافة إلى ذلك فقد قام بعقد مقارنة بين اللغتين العربية والصربوكرواتية (اللغة الشائعة في البوسنة) . وهناأكدت ميزة جديدة للمؤلف ، فعلاوة على معرفته الجيدة بعلم اللغة العام فقد أثبت أنه يجيد لجادة بصيرة لغته الصربوكرواتية وتراكيبها في ضوء علم وفقه اللغة . كما أنه سلط الأضواء على العلاقة بين الأصوات في اللغتين الأمر الذي ستكون له فائدة عملية ضخمة بالنسبة للطلبة إذ أن كل هذا يمكن الطلبة من فهم الاختلافات والتشابهات الموجودة في النظامين وبالتالي يساعدهم على سرعة التمكن من النطق العربي . وفي الآونة نفسها منكون له نتائج حميدة على صعيد التحليل والتنظير في مجال الدراسة العربية في جمهورية البوسنة والهرسك .

ويشرح المؤلف في الفصل الخامس المقاطع والقوانين الصوتية ويقودنا بها صوب الظواهر المورفولوجية الصوتية وينتهي بالدلالات

الخاصة بالمقاطع الصوتية العروضية التي لم تتم دراستها دراسة كافية حتى الآن . وهو بهذا الشرح يوحى بوجود ديناميكية داخل اللغات وفيما بينها .

وقائمة المراجع المثبتة تبين حجم اطلاعته وكثافة استغلاله لنتائج الدراسات السابقة الخاصة بهذه القضايا في العالم وعند العرب .

ولا شك أن ظهور هذه الدراسة العلمية في الأصوات العربية يمثل خطوة هامة وعلامة ضخمة في تطور علوم الدراسات العربية في البومنة ، كما أن الكتاب سيثرى دوائر الرؤية المعرفية في مجال علوم اللغة ودراساتها وسيعمل على إخراج هذه المناطق - تدريجياً - من عزلتها اللغوية الإقليمية وينمى علاقاتها الثقافية واللغوية مع الدول العربية .

ولا ينبغي أن نغفل أن هذه الدراسة المنهجية الرائدة ستلعب دوراً إيجابياً في تعليم النطق العربي للكوادر بهذه المنطقة الأمر الذي سيسهل تعليم اللغة العربية والتعرف على تراكيبها عن طريق تقديم المادة المعقدة الجافة والخاصة بعلم أصوات اللغة العربية بطريقة علمية جذابة تتحد فيها اتحاداً مثمرأ الخبرات السابقة لعلوم الأصوات الخاصة باللغة العربية واللغات الأوروبية .

الاستشراق

أصبحت قضية الاستشراق والمستشرقين في عالمنا العربى من القضايا الحرجة الحساسة نظراً للتناقض الشديد الناشئ بين أصحاب الآراء فى هذا المضمار ، وذلك لأن أكثر الأقلام التى تناولت هذه القضية كانت متحاملة أشد التحامل على المستشرقين وعلى أبحاثهم ودراساتهم واعتبرتهم رسلاً جندهم الاستعمار وعملاؤه ، وعدت الاستشراق بوجه عام صورة من صور الغزو الاستعماري فى المجالات الثقافية والفكرية والحضارية . كما ارتأى أصحاب هذه الأقلام أن الاستشراق ركيزة للاستعمار فى تقويض أركان الإسلام وتعاليمه وتحقير لمظاهر ثقافته ومعالم حضارته والخط من نظمته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية والجمالية وكل مظاهر الحياة فى المجتمع الإسلامى . وبالتالي وضعوا المستشرقين جميعاً فى مصاف أعداء الإسلام والعروبة والحضارة الإسلامية العربية على أساس أن دراساتهم ما هى إلا مهارات وتحامل على الإسلام والمسلمين .

وعلى النقيض من ذلك أخذت أقلام أخرى تكيل المديح للمستشرقين ولأبحاثهم واعتبرت أن الفضل الأول للمستشرقين هو نشرهم لكتبتنا وتنظيمهم لمخطوطاتنا فى وقت كنا فيه فى غاية التخلف ولولا تلك الأيدى البيضاء التى نشرت ثروتنا الأدبية التى فقدت أصول معظمها ولم تصل إلينا إلا ترجماتها لما توصلنا إلى معرفتها ومعرفتنا بتاريخ أبنائنا ولما كنا وقفنا على درجة حضارتنا ومركز بلادنا فى العالم .

وكان كل فريق من هذين الفريقين المتناقضين يورد الأدلة القاطعة

والأمثلة الماطعة مدعماً بها موقفه ، ويستخدم التعميمات فى آرائه وأحكامه بحيث تزداد القضية تعقداً وغموضاً . إلا أنه ظهرت فى الآونة الأخيرة أقلام لا تناصر ولا تعادى هذا الرأى أو ذلك ، أى أقلام وسط ، لا تتعصب ولا تنفعل وضعت نصب أعينها هدفاً وهو أن ترسم للقارئ العربى صورة واقعية دقيقة علمية عن الاستشراق والمستشرقين وعن أبحاثهم ودوافعهم واتجاهاتهم ، وعن جهودهم ونتائج دراساتهم .

ولإيماننا منا بهذا الطريق الوسط الذى يعد هو الطريق العلمى الوحيد للوصول إلى نتائج حقيقية مضمونة سنحاول على المسطور التالية أن نرسم صورة مصغرة للجهود المتواضعة التى يقوم بها المستشرقون فى البوسنة والهرسك فى هذا المضمار ، والموضوعات التى تثير انتباههم والمشروعات التى تشغل بالهم وتفكيرهم .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن تعليم اللغة العربية ، باعتبارها لغة الثقافة والحضارة الإسلامية ، بدأ لدى سكان البوسنة والهرسك مع بداية اعتناقهم للإسلام وانتشاره فى أراضيهم اعتباراً من القرن الرابع عشر الميلادى . ويقبولهم للإسلام ديناً اتجهوا بمحض رغبتهم وإرادتهم إلى الثقافة الشرقية وتقبلوا العديد من عناصر الثقافة والحضارة الإسلامية العربية . وحيث أن اللغة العربية كانت آنذاك فى أغلب الأحوال هى الوسيلة الرئيسية لاكتساب العلوم ويلوغ أرفع المناصب السياسية والاجتماعية والأدبية فقد كان على الراغبين فيها أن يجيدوها إجادة تامة .

ومن هنا فإننى أرى أن البداية الحقيقية للاستشراق فى البوسنة والهرسك هى مع بداية اعتناق سكانها للإسلام وذلك نظراً للاهتمام غير العادى الذى أبدته بالآداب العربية وعناصر الثقافة والحضارة الإسلامية العربية . وقد استمر هذا الاهتمام طوال فترة وجود الأتراك العثمانيين بهذه المنطقة حتى القرن السادس عشر الميلادى . ولذا فإننى لا أوافق

أصحاب الرأي القائل بأن الاستشراق فى هذه المنطقة قد بدأ فى العقد الثالث من القرن العشرين ، لأن الحقائق التاريخية وأنشطة المستشرقين تؤكد عدم صحة هذا الرأي .

وهنا كان يتم إنشاء المدارس والكتاتيب الإسلامية لتعليم اللغة العربية والقرآن وتعاليم الإسلام ، وبالتالي كانت اللغة العربية هى اللغة الأساسية فيها . هذا علاوة على انتشار المكتبات العامة والخاصة التى كانت تحتوى على مختلف الكتب والمراجع باللغة العربية وباللغة البوسنية المحلية وبعض اللغات الشرقية الأخرى .

واعتباراً من النصف الثانى من القرن التاسع عشر تم خلق الظروف اللازمة والملائمة من أجل المعالجة العلمية والنقدية للعناصر الشرقية المتوافرة بغزارة مع التراث الثقافى والتاريخى للبوسنة والهرسك . وبالفعل تم إجراء عدد من الأبحاث والدراسات فى مختلف المجالات قبل الحرب العالمية الأولى واعتبرها النقاد المؤرخون بداية مرحلة جديدة من مراحل تطور الاستشراق العلمى بهذه المنطقة . ثم شهدت فترة الخمسينيات من القرن الحالى ، أى بعد الاستقلال ، انطلاقة حقيقية للاستشراق وذلك بعدما تم إنشاء المؤسسات والمعاهد التعليمية والعلمية المتخصصة فى مجال الاستشراق .

وتعبير الاستشراق العلمى هنا لا يمكن أن يعنى علماً واحداً بل إنه يشمل مجالات متعددة من البحث العلمى وتساهم علوم مختلفة ، بشكل أو بآخر ، فى هذه المجالات . والمادة المشتركة لاهتمامها هى الشرق أو الدوائر الحضارية المرتبطة بالشرق بوجه عام والمرتبطة بالمنطقة العربية بشكل خاص .

والمستشرقون بالبوسنة والهرسك يهتمون بوجه عام بالموضوعات والمشاكل التى تجذب انتباه مختلف للمستشرقين فى جميع أنحاء العالم ،

إلا أنه ينبغي أن نشير إلى التغلغل التدريجي للنظريات العلمية الحديثة وللأساليب المرتبطة بعلوم اللغة في علم الاستشراق الذي أصبحت له فواعده وأسسها العلمية المنهجية . ومن هنا أصبح المستشرق بالبوسنة والهرسك في القرن العشرين يختلف تمام الاختلاف عن المستشرق الأوروبي في العصور الوسطى .. ذلك المستشرق الأوروبي الذي كان يمارس الاستشراق كهواية بسبب انجذابه للشرق بسحره وأسراره ومميزاته الحضارية الخاصة أو يمارسه بدافع من تعصب ديني أو قومي .

وقد مرت حركة الاستشراق في البوسنة والهرسك وما جاورها من الجمهوريات اليوغسلافية سابقاً عبر مراحل تطور ونمو متميزة منذ بدايتها متعرضة في بعض الأحيان لعدد من التغيرات الطبيعية . ويمكن القول بأن أول مستشرق بوسنوي بالمعنى الحديث ، أي أنه عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية ، هو صافيت بك باش أجيشتش (١٨٧٠ - ١٩٣٤ م) . وهو شاعر ومترجم ، أنهى كلية الفلسفة في فيينا ثم حصل على الدكتوراة في الفلسفة عام ١٩١٠ . وكان يجيد اللغة العربية وبعض اللغات الشرقية ويترجم منها إلى لغته . وعمل لفترة من الفترات كمدرس للغة العربية في المدرسة الثانوية العليا بمرافو ، كما أصدر واشترك في إصدار بعض المجلات الأدبية . وبالإضافة إلى أنشطته الأدبية المتعددة فقد تعرض بالبحث لدور السلاف الجنوبيين في الأدب العربي . وقد عرض خلاصة ونتائج في كتابين هامين : البشائفة في الأدب الإسلامي (سرافو ١٩١٢) ، الأعلام في سكان كرواتيا والبوسنة والهرسك في الامبراطورية التركية (زغرب ١٩٣١) . وما زالت أعماله في مجالات الدراسات الاستشرافية الإسلامية مفيدة للغاية بالنسبة للأجيال الحالية .

ومن المستشرقين البارزين الممتمشرق فهيرم بيرقثاريفيتش (١٨٨٩ - ١٩٧٠) وهو بوسنوي وقد دعى في عام ١٩٢٥ لإنشاء قسم الاستشراق بجامعة بلغراد . واشترك في إصدار بعض الدراسات العلمية

الدولية مثل دائرة المعارف الإسلامية باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية ومعجم تقاليد المسلمين . ومن أهم دراساته : اللمة لأبي كبير الخزالي (باريس ١٩٢٣) ، ديوان أبي كبير الخزالي (باريس ١٩٢٧) ، رستم وسهراب (بلغراد ١٩٢٨) ، قضية نصر الدين خوجة الرومي (بلغراد ١٩٣٤) ، تأثير الشرق على جوته (بلغراد ١٩٣٨) وغيرها من الدراسات والأبحاث . وهو يعد بحق أكبر المستشرقين وأوسعهم علماً وعلى الأخص في مجال الفيلولوجيا الشرقية . وهناك بالطبع عدد كبير من المستشرقين الذين اجتهدوا وبذلوا جهداً أكاديمياً وقاموا بإعداد بعض الدراسات الاستشرافية الهامة بالنسبة للوساط الثقافية والأدبية في البوسنة والهرسك والدول المجاورة .

وقد جابه الرعيل الأول من المستشرقين بعض المعادين للاستشراق خاصة في فترة الحكم الشيوعي . وبالرغم مما قمنه المستشرقون في البوسنة والهرسك من أبحاث ودراسات ذات مستوى علمي جيد إلا أنهم أبدوا في بعض الأحيان ضيقاً ونفاد صبر نظراً لما كانوا يلاقونه من معوقات متعددة وجابهاونه من مشاكل مفتعلة ، الأمر الذي أفقدهم في بعض الأحيان الأمل في ازدهار الاستشرق العلمي وجعلهم يقنعون باعتبار علم الاستشراق علماً مساعداً لخدمة التاريخ القومي . وحسب رأيهم فقد كانت المهمة الوحيدة الموكلة لعلم الاستشراق هي المعالجة الأولية للمادة التاريخية ، أو بعبارة أدق إصدار وترجمة المصادر اللازمة لخدمة الأبحاث والدراسات التاريخية .

وفي المرحلة التالية حينما نجحت حركة الاستشراق في مساهرة التطورات العلمية في الاستشراق العالمي بوجه عام ، أخذت تتعرض لهزات داخلية ولهجمات تشكيكية خطيرة على المستشرقين وعلى منطلقاتهم وعلى أهدافهم . ولا ريب أن هذا الهجوم كان مرتبطاً ارتباطاً شديداً بالأحوال السياسية العامة في يوغسلافيا السابقة وبموقف قيادتها من قضايا الاستشراق ككل .

وبالرغم من تزايد الاهتمام بالأبحاث المقارنة وبالدراسات اللغوية في مجال الاستشراق فإن الواجب الرئيسي والهدف الاساسى لعلم الاستشراق في البوسنة والهرسك يظل هو إعداد كتب حديثة سهلة مبسطة لتعليم اللغة العربية ولشرح النحو بطريقة علمية حديثة . أما الاهتمامات الأدبية فهي أكثر اتساعاً وشمولاً ، وتتناول اتجاهاتها ومجالاتها ودرجات الاهتمام بها بدءاً من الدراسات النظرية الأساسية وانتهاء بالأدب التجارى غير الهادف . ومع ذلك فإن أهم التزام للاستشراق يعد هو التمثيل المخطط الجاد لأهم المؤلفات الكلاسيكية والمعاصر مع تقديم الإطار المناسب لفهمها وتقبلها .

ولابد من الإشارة إلى أن علم الاستشراق في البوسنة والهرسك منصب على الدراسة الشاملة للتراث الثقافى الشرقى الروحى والمادى ، الذى يعد باعتراف الجميع عنصراً خصباً لا يمكن إغفاله من أجل فهم الشخصية الحضارية للإنسان في البوسنة والهرسك .

والاستشراق بمعناه الشامل الواسع يساهم في سد حاجات ورغبات المثقفين بالبوسنة والهرمك ، وعلى الأخص الشباب منهم ، في التعرف على المجتمعات الشرقية وعلى حضاراتها وثقافتها ودياناتها وفلسفاتها . ومن الحتم هنا التنويه إلى أن مجتمع البوسنة والهرسك بجميع طبقاته أثبت أنه في حاجة ماسة إلى العمل المنظم الجاد في مجال الدراسات الإسلامية القائمة على أساس علمى ، وهى مهمة تحسن القيام بها مجلة « الفكر الإسلامى » التى تصدرها فى سرايفو باللغة الصربوكرواتية رئاسة الجماعة الإسلامية منذ عام ١٩٧٩ .

وهناك اهتمام غير عادى بدراسة التراث الألبى المكتوب باللغات العربية والتركية والفارسية في البوسنة والهرمك . كما أن هناك رغبة جارفة في دراسة « الأدب الأعجمى » المكتوب باللغة المحلية ولكن

بحروف عربية . وتم بالفعل الشروع فى عمل جرد منظم وفهرسة حديثة ومعالجة نقدية من ناحية المضمون لهذا التراث الضخم ، وهو أمر يعد فى حد ذاته على قدر كبير من الأهمية ، وعلى الأخص من ناحية النتائج التى تحققت حتى الآن وقد أحرز هذا النشاط العلمى والثقافى تقدماً ملحوظاً فى منطقة البوسنة والهرسك واتخذ طابعاً أكاديمياً جاداً لى أن أصبح مشروعاً قومياً ضخماً عاماً جابه ويجابه وسجابه الكثير من المشاكل والمعوقات .

ويجرى فى الوقت الحالى إتمام العمل الذى تم الشروع فيه وذلك باشتراك أكبر عدد من المتخصصين على أن يتم التركيز على المعالجة النقدية والبيبلوجرافية المستفيضة للوثائق الأدبية والمؤلفات والمؤلفين مع القيام بدراسة مقارنة ، وهكذا يتم خلق الظروف اللازمة للدراسات المتعمقة فيما بعد على المستويين الخاص والعام .

وليس هناك أدنى شك فى أنه يلزم الكثير من العمل الجاد المسئول من أجل تجاوز التناقضات الداخلية بين المستشرقين فى البوسنة والهرسك ، ومن أجل إضفاء نوع من التناسق والاستقرار على هذا العلم ، ومن أجل توحيد مبادئ الدراسات الاستشرافية فيها . ولا بد أن نضع فى الاعتبار أنه يوجد لدى الشباب البوسنى اهتمام بدراسة الاستشراق بوجه عام وبدراسة اللغة العربية بشكل خاص . وهنا من الحتم ذكر الانطباع الذى تملكنى بعد أن تابعت وتبينت هذا الاهتمام - بأن الشباب يقبل فى أغلب الأحوال على دراسة اللغة العربية من أجل دوافع عملية شبه مادية ، وذلك لأنهم يتلقون عروضاً مغرية للعمل فى مجال الترجمة فى الدول العربية .

وبالرغم من معرفة المستشرقين فى البوسنة والهرسك للغة العربية منذ ما يزيد على ستمائة عام وبالرغم من عددهم الكبير إلا أن المؤلفات العربية المترجمة فيها ضئيلة نسبياً . وفى البداية تمت ترجمة قصائد من الشعر العربى الجاهلى وبعض مقتطفات من حكايات ألف ليلة وليلة

مترجمة عن اللغتين الألمانية والفرنسية . ثم قام فهم سباهو بالاشتراك مع عثمان نوري بترجمة هذه الحكايات عن النص العربي ، وكان يتم نشر الترجمة في أعداد مجلة « بهار » التي كانت تصدر في سرايفو . ولم يتم مطلقاً لإنهاء هذه الترجمة ، وفي عام ١٩٢٥ نشر ما تمت ترجمته من هذه الحكايات في أربعة مجلدات . وكانت حكايات كليلة ودمنة هي أول عمل أدبي تمت ترجمته كاملاً ، ونشرت الترجمة في سرايفو في عام ١٩٥٣ وقد قام بها بسيم قورقوت ، أحد أساتذة معهد الاستشراف . ثم أخذت المجلات الأدبية تنشر ترجمات لقصائد كاملة أو مقتطفات من شعر إمري القيس وزهير وعنترة والمعرى وغيرهم مترجمة عن الأصل العربي أول مرة .

ومن كتب التاريخ والسير تمت ترجمة « حياة محمد » لأبي الفدا (سرايفو ١٩٠٣) ، وكتاب « نظام العالم » (سرايفو ١٩١٩) ، وكتاب « نظام العلماء » (سرايفو ١٩٣٥) ، وكتاب « لماذا تأخر المسلمون وتقدم الآخرون ؟ » لشكيب أرسلان ، وكتاب « الملّة الإسلامية وأوروبا » تأليف عظيم زادة . وحظي القرآن الكريم بعدة ترجمات سواء عن اللغات الأجنبية أو عن اللغة العربية . وهذه الترجمات وما تبعها من تفسيرات للقرآن تستحق دراسة خاصة لما لها من أهمية متميزة .

ومن الأدب العربي الحديث تمت ترجمة مجموعة قصصية لمحمود تيمور ورواية لتوفيق الحكيم عن اللغة الفرنسية . وفي عام ١٩٥٧ نشر كتاب عن الشعر العربي ، وهو أيضاً معد عن ترجمة ألمانية . إلا أن هذه المختارات الشعرية معدة بشكل غير دقيق والاختيارات سيئة للغاية بحيث أنه عند المقارنة لا نجد شيئاً على الإطلاق من الأصل العربي . وعلى العكس من ذلك استمتعنا في الفترة الأخيرة بترجمات رائعة لأبيام طه حسين ولمجموعة قصصية ليوسف إدريس وإرسالة الغفران لأبي العلاء

المعري وبعض أعمال نجيب محفوظ . وهي كلها ترجمات تشهد بالنزق الرفيع لمترجميها ويمتواهم العلمى الرفيع .

ونقوم رئاسة الجماعة الإسلامية بنشاط استشرافى جيد فى مجال الترجمات والدراسات ، وعلى الأخص ما يتعلق منها بالإسلام وقواعد اللغة العربية وتجويد القرآن والتفسير والأحاديث النبوية وما إلى ذلك من كتب هامة تحتاج إليها الجماعة الإسلامية وذلك حتى تسد العجز الكبير فى عدد الوعاظ والمعلمين . كما أن الجماعة الإسلامية تصدر عدداً من المجلات الإسلامية التى تعرض على صفحاتها مثل هذه الترجمات والدراسات بالإضافة إلى معالجة بعض قضايا التراث الثقافى لمسلمى البومنة والهرسك .

ويقوم بدور هام وخطير فى مجال الاستشراف معهد الاستشراف الذى تم تأسيسه فى مرايفو فى يناير من عام ١٩٥٠ . ومن مهامه الرئيسية جمع ونشر وحفظ وبحث المخطوطات والوثائق والسجلات الموجودة باللغات الشرقية ، ودراسة الآداب والفنون الشرقية الموجودة بهذه المنطقة ، وكذلك دراسة التاريخ العام والتاريخ الثقافى للشعوب والقوميات بالبومنة والهرسك خلال فترة الحكم العثمانى مع تطبيق الأساليب العلمية الحديثة وانطلاقاً من العناية بالسماوات والمميزات التاريخية والثقافية لجميع الشعوب والقوميات .

وقد تسلم معهد الاستشراف بعد إنشائه كل المخطوطات والمطبوعات والمواد الخاصة بالاستشراف من مكتبة المتحف الإقليمى فى مرايفو ، وهى تبلغ خمسة آلاف مجموعة تشتمل على ما يربو على خمسة عشر ألف عمل . وهكذا أصبح هذا المعهد من أكبر المعاهد من هذا النوع فى البومنة والهرسك بل وخارجها أيضاً .

إلا أن هذه المجموعة الكبيرة من المخطوطات تحتاج إلى وقت كبير

والى كوالدر متخصصة لفحصها ودراستها . ولم تتم حتى الآن
إلا فهرستها بشكل شبه كامل . وتبين أنها مخطوطات تتعلق بالقرآن
وعلم التفسير والتجويد والقراءات وبالأحاديث النبوية والتعليم الدين
والشريعة الإسلامية والفقه والوعظ والصوفية ، وبالفلسفة والمعاجم ،
وبالعلوم الرياضية والطبيعية ، وبالجغرافيا والتاريخ والسياسة ، وعلوم
اللغة ، وبالمؤلفات الأدبية والموسيقية . وهى كلها مخطوطات على درجة
كبيرة من الأهمية مستسلط الأضواء على كثير من الحقائق الجديدة وتصحيح
كذلك العديد من المفاهيم القديمة .

وفى مجال جمع المادة قام باحثو المعهد بأموريات إلى بعض المدن
بالداخل وإلى بعض الدول الأجنبية من أجل جمع واكتشاف المخطوطات
الهامة . وقاموا بتصوير ما يزيد على مائة كتاب ، وكذلك الحصول على
نسخ من كل القوانين التى تتعلق بالبوسنة والهرسك ابتداء من القرن
الحادى عشر وحتى القرن السابع عشر .

ومنذ العام الأول لإنشائه قام المعهد بإصدار مجلته المتخصصة التى
تصدر مرة أو مرتين فى العام ، ولاقت إهتماماً كبيراً من جانب المعاهد
المتخصصة فى الأبحاث العلمية بالداخل والخارج . وعلاوة على هذا فإن
مضمون الأبحاث التى تم نشرها يعكس المستوى الفنى والعلمى العالى .

ومنذ حوالى اثنا عشر عاماً يعمل المعهد بشكل مكثف من أجل جمع
المادتين التاريخية والأدبية المرتبطة بمنطقة البوسنة والهرسك وذلك
بالاشتراك مع معهد التاريخ والمكتبة القومية ومكتبة الجامعة . كما يجرى
أيضاً تنفيذ مشروع بالتعاون مع معهد الأدب ومع قسم اللغات الشرقية
بكلية الآداب من أجل تجهيز المواد المتعلقة بتاريخ آداب الشعوب
والقوميات بالبوسنة والهرسك . ويشارك المعهد فى مشروع مماثل
بالتعاون مع معهد التاريخ من أجل إعداد المواد الخاصة بالجوانب

التاريخية والميسامية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية خلال فترة الحكم العثماني للمنطقة .

وفى مواجهة هذا النشاط العلمى الضخم لابد وأن تنشأ صعوبات كبيرة ، فتكليف نشر وطبع الدراسات والأبحاث فى تزايد مستمر الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى خفض مكافآت الباحثين . ولاشك أن هذا كله ينعكس إنعكاساً سلبياً على النشاط الكلى للمعهد . كما أن الكوادر المؤهلة فى تناقص مستمر إما بسبب الوفاة أو الإحالة إلى المعاش أو الانتقال إلى وظائف أخرى ، هذا بالإضافة إلى لحجام الباحثين الشباب عن الإلتحاق بالمعهد بسبب انخفاض الرواتب وغير ذلك من الأسباب .

غير أنه من المحتم التنويه إلى أن المعهد بأنشطته وأبحاثه ودراساته قد صحح العديد من المفاهيم والآراء الخاطئة بل ومن الافتراضات التاريخية غير الصائبة حول العديد من قضايا الاستشراق ، وبذلك أرشد المؤرخين إلى الطريق الصحيح فيما يتعلق بهذه القضايا .

ومما لا شك فيه أن الاستشراق فى البوسنة والهرسك له خصائصه واتجاهاته ومميزاته الفريدة نظراً لأنها - أى البوسنة والهرسك - تملك عدداً هائلاً من المؤلفات والوثائق والمخطوطات النادرة باللغات العربية والتركية والفارسية ، كما أن ثقافتها ظلت حتى وقتنا الحالى وثيقة الصلة بالحضارة العربية الإسلامية سواء أكان ذلك عن طريق الأتراك العثمانيين أو بواسطة سبل أخرى . ومن ثم فإن هذا الاستشراق لديه قدرات لا مثيل لها وأمامه امكانيات ضخمة غير مستغلة وبذلك يحق لنا أن نعقد عليه الآمال الكبار وننتظر منه نتائج باهرة .

الجواهر

يعد كتاب « الجواهر » الذى يحتوى على مختارات أدبية من إبداعات المسلمين فى البوسنة وغيرها من بين الكتب التى ينبغى الإشارة إليها والتنويه بها بسبب أهميته كأفضل كتاب من الكتب التى صدرت فى عام ١٩٩٠ ويسبب المكانة التى اكتسبها فيما سبق والتي سيكتسبها فى الفترة القادمة . ويعتبر هذا الكتاب ، فى الحقيقة ، الطبعة الثانية المعدلة التى أعدها إعداداً جديداً الأديب « على إسحاقوفيتش » وأجرى تعديلات على طبعته الأولى الصادرة فى عام ١٩٧٢ . وتم انذاك اعتبار هذا الكتاب حدثاً ثقافياً من الدرجة الأولى وتلقى العديد من كلمات الإطراء والمدح بأقلام أشهر الأدباء والنقاد ، ولقى كذلك ترحيباً غير عادى من جماهير القراء والباحثين .

وكتاب « الجواهر » بمختاراته الأدبية المنتقاة يعد كتاباً طريفاً من حيث اختياراته ووفقاً للأسلوب الذى استخدمه على إسحاقوفيتش فى إعدادة . وترجع طرافته إلى تعرضه لمختلف مجالات الإبداع الأدبى للمسلمين ، ولإلى تضمينه لمختارات من النصوص الأدبية التى أبدعها وألفها المسلمون الموجودون فى مناطق الجبل الأسود والبوسنة والهرسك ومنجق وغيرها من مناطق المسلمين ابتداءً من القرن الخامس عشر وحتى أيامنا هذه .

وهذا العمل الرائد الذى قام به « على إسحاقوفيتش » ينطوى على أهمية بالغة وبالأخص إذا علمنا أن الأمر يتعلق بعمل ضخم كان من الضرورى فيه التعرف على كل الإبداعات الأدبية للمسلمين ، ثم بعد

الدراسة والتمحيص قام المعد باختيار وفصل الجواهر المتلاثلة التي يمكن أن يقدمها للقارئ كنموذج طيب لهذه الإبداعات . ويوجد هنا ، كما منفصل فيما بعد ، ألوان من الأدب المكتوب باللغة الصربوكرواتية وكذلك باللغات التركية والعربية والفارسية ، وهي ما تعرف في البوسنة باللغات الشرقية . وبعض من هذه المؤلفات منقوش على الأخشاب أو الأحجار أو المعادن أو الجدران والجلود والأقمشة والزجاج وما شابه ذلك .

ولقد أثبتت الأيام والمنون أهمية العنصر الأدبي الذي نسجه المسلمون في البوسنة والهرسك على الصعيد الأدبي واللغوي المشترك . ومن المؤسف حقاً أنه لم تتم حتى الآن بشكل كاف دراسة هذا العنصر ، بل وجرى في كثير من الأحيان إهماله وإغفاله على نحو غير عادل . وفي أحوال كثيرة أسيء تقديره ، أو في آخر الأمر لم تتم دراسته على الإطلاق . بيد أنه لا يمكن إعادة الماضي ولا يمكن إنكاره بأى حال من الأحوال . والفيضان الهائل للعناصر الروحية والأدبية للمسلمين مستمر لا ينقطع بدءاً من القصائد الشعبية للمسلمين ومروراً برواية « الدرويش والموت » للأديب ميشا سليموفينش .

وللتزم المعد في إعدادهِ بالمعايير الجمالية والأخلاقية الشديدة ، فنجد في هذه المختارات رسائل إنسانية ودروساً مستفادة ذات مضمون ومعنى إنساني عام . وسعى كذلك إلى تقديم نماذج من هذا الأدب للمسلمين في شكل رأسي . والأهداف المرادة من هذه المختارات هي التي حتمت الالتزام بمعايير قاسية إلى حد ما . وقد لا يكون هذا هو الأسلوب الأمثل في إعداد مثل هذه النوعية من المختارات ، وذلك لأنه بسبب النقص الشديد في الدراسات التحليلية وتحقيق النصوص فلا بد من الدفاع عن هذه النصوص الأدبية المتنوعة في مواجهة الزمن الذي لن يؤديها أو يقف

فى صفها على طول الخط . ومع أن هذا أمر لا يمكن تجنبه إلا أنه لا بأس به .

ولم نقل الأبحاث التى جرت كتابتها حتى الآن كل شىء عن العنصر الأدبى للمسلمين . ولا يرتبط بأية آراء منفصلة تواجد العنصر الأدبى للمسلمين فى إطار الآداب اليوغسلافية المكتوبة باللغة الصربوكرواتية ، وفى المقام الأول فى إطار الأدب اليوسنى ، وإنما يعد ضرورة تفرضها الحياة بإعتبارها المصدر الأعلى للمفاهيم والشرعية التى يصبح المرء فى مواجهتها أسيراً وفريسة لأوهامه الشخصية أو الاجتماعية .

ولقد كان من المعتقد إلى عهد قريب أن المسلمين يمثلون الجزء الأكثر عنفاً وقسوة من مكان البوسنة والهرسك ، وأنه لم يقدم أى أحد منهم أية عناصر للحياة الروحانية والأدبية . إلا أنه حدث أمر غير متوقع تماماً . إذ أن الأبحاث الأخيرة أوضحت انه كان يوجد لدى المسلمين البوسنيين منذ أواخر القرن السادس عشر شعر فنى حقيقى ، وأفضل دليل على ذلك هو هذا الكتاب الذى تتحدث عنه هذه المطور .

والى عهد قريب لم يكن من الممكن التخمين على الإطلاق بوجود مثل هذه القصائد . وكل ما كان معروفاً عنها حتى الآن هو بعض الملاحظات والإشارات والشروح غير الوافية . وكان أول من أشار إلى وجود بعض النصوص الأدبية المكتوبة بالحروف العربية وبالله الصربوكرواتية هو الباحث الروسى « ألكسندر جليغرينج » فى عام ١٨٥٩ .

ونكر المستشرق « محمد هانجيتش » فى عام ١٩٣٣ أن المؤرخين العرب والأتراك والفرس قبلوا بكل ترحيب مؤلفات المسلمين من البوسنة والهرسك ومنحوها التقديرات التى تستحقها ووضعوها فى المراتب الجديرة بها ، بينما النقاد والباحثون المتخصصون لم يقدموا على الإطلاق

لمؤلفات المسلمين بهذه المنطقة ما تستحقه من الاهتمام والتقدير .

أما الباحث « أحمد مولى خليلوفيتش » فقد تحدث فى عام ١٩٤١ عن أولئك المسلمين الذين ألفوا وأبدعوا مؤلفات أدبية باللغة المحلية (البوسنية) . وهو يعتقد أن مؤلفاتهم لقيت نفس مصير مؤلفات المسلمين المكتوبة باللغات الشرقية . فى المدارس الثانوية وما شابهها لا يجرى على الإطلاق ذكر النشاط الأدبى للمسلمين بالبوسنة وكأنه لم يكن موجوداً البتة . بل والأدهى من ذلك أنه حتى أولئك الذين يحاضرون عن تاريخ الأدب فى هذه المنطقة لا يعرفون ، فى كثير من الأحيان ، شيئاً عن هذا النشاط الأدبى الخاص بالمسلمين ، وحتى فى الجامعات لا تتم دراسة مؤلفات الأدباء المسلمين البوسنيين ، إلا أنه من المحتم التنويه إلى أنه حدث تغير فى الآونة الأخيرة . حقيقة أنه تغير حثيث وغير كاف ولكنه تغير على أى حال من الأحوال . ولاشك أن الأسباب عديدة ومعقدة ، ومن أبرزها أنه يتم فى الأغلب إعتبار المسلمين أمة وفئة اجتماعية وهذه قضية شائكة لم يتم حلها حتى الآن .

ومن المعلوم أن الإبداع الأدبى لأى شعب من الشعوب ليس أمراً عابراً ولا يمكن أن تزيله الصدفة المحضة أو ألد الأعداء . ولا تستطيع القوة أو الصدفة أو السنون أن تعمل على تعتيم وحجب الانجازات الأدبية لأى شعب حصل على مكاسب مادية واقتصادية حينما انتصر على الظلام والجهل والبربرية . ويظل هذا الانتصار على مر القرون أمانة لدى الأجيال التالية والأزمان الآتية .

تتألف هذه المختارات من ستة فصول مستقلة . وفى الفصل الأول الذى يحمل عنوان « قصائد القلب » يتم عرض مختارات من الشعر الشعبى للمسلمين . ويشمل هذا الفصل عدداً كبيراً من القصائد التى

اشتهرت لدى جماهير الشعب والتي من الممكن سماعها بصوت المنشدين الشعبيين للألحان الشعبية .

ويرى النقاد أن هذا الفصل الأول من أهم أجزاء المختارات وأكثرها قيمة وذلك لأنه يشمل الإبداع الشعبي الذي يتم فيه تكثيف الخبرات الثرية لطبقات الشعب العريضة . وعلى صفحات هذا الفصل توجد قصائد نشأت في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، وتوارثتها فيما بعد الأجيال الشابة وتم الاعتناء بها والحفاظ عليها . ومن المحتم التنبؤ هنا إلى أن نشر مثل هذه المختارات يعد أسلوباً جيداً للحفاظ على كثير من هذه الإبداعات الشعبية .

ولم يغفل معظم النقاد في كتاباتهم الأهمية الكبرى للشعر الشعبي . ورغم أنه لم يتم التيقن بشكل علمي دقيق من مكان وزمان ظهور الملاحم الشعبية المتميزة إلا أنه من المعلوم أن منطقة البوسنة والهرسك ، وهي أكثر الأقاليم نقاوة من الناحية القومية ، لعبت دور في الاعتناء بالقصائد الشعبية الملحمية والغنائية والحفاظ عليها . وحينما أيقظ فوك كرادجيتش الاهتمام العلمي والأدبي بالثروة الشعرية لشعب البوسنة والهرسك ولما شرع في جمعها تبين أن أكبر وأفضل جزء من القصائد الشعبية محفوظ في البوسنة . وهذه الحقيقة يمكن اعتبارها دليلاً لا يحصى على أنه يوجد بين سكان الريف غير المتعلمين في منطقة البوسنة بشكل خاص اهتمام فني وتقاليد قوية للإبداع الأدبي كشرط أساسي هام للتطور الثقافي . وهذه التقاليد الخاصة بالأدب الشعبي الشفاهي شكلت قاعدة صلبة أقيمت عليها - عن عمد أو غير عمد - الكلمة المعاصرة للأدب في البوسنة والهرسك .

واكتسب الشعر الغنائي الشعبي الذي تطور بوجه عام في المدن الكبيرة والصغيرة للكثير من السمات الشرقية وعلى الأخص في اللغة

واللحن . وتتضح بشكل متميز فى القصائد العاطفية آثار الحساسية ورقة الشعور الشرقية التى تغلغلنا عميقاً عبر هذا الجنس الأدبى إلى نفوس اليومنيين وإلى أدبهم ، ولذا فهى متواجدة على نحو متفاوت لدى جميع كتاب القصة والرواية . ومن الطريف وليس من قبيل المصادفة أن هذا الخط بارز بشكل أكثر قوة لدى القصاصين المسلمين لأن الجزء الإسلامى من جماهير الشعب كانت له صلات مباشرة بالشرق الإسلامى .

ويبلغ الشعر الشعبى للمسلمين أعلى مدى له فى القصائد الملحمية . والقصائد التى تشملها صفحات هذا الفصل تقدم بتعبير فنى نادر عرضاً للظروف التى كانت تعيش فيها الأسرة المسلمة ، وتعرض روايات ومآسى كاملة حافلة بالصراعات والفواجع .

ويعبوره عن طريق القصيدة الشعبية إلى المجال الروحى لأوروبا استوعب شعب البومنة فى القرن التاسع عشر كل القيم المرتبطة بالثروة الشعبية . ونكر الباحثون الغربيون أن القصيدة الشعبية التى تتحدث عن المرأة تحمل بين ثناياها كل جمال الشعر الغنائى الشرقى والعربى . واكتشف باحثو الأدب فى أوروبا كل قيم الشعر الشعبى البومنى وأشاروا إلى مميزاته الأخلاقية والقومية والأسلوبية . ومن المؤكد أن هذا الشعر الشعبى ساهم مساهمة كبيرة فى تشكيل الإيمان بالقوة الإبداعية للشعب البومنى ، وفى نضاله من أجل الحفاظ على لغته الشعبية . وقدم هذا الشعر أفضل الأشكال والصيغ فى مجال الأسلوب واللغة فى فترة الرومانسية ، ويتأثيره على شعراء البومنة أصبح فى الآونة نفسها أفضل مصدر لتاريخ هذه المنطقة .

وبينما انتقلت القصائد الدرامية إلى التراث الأدبى فقد حافظت القصائد العاطفية على استمراريتها فى البقاء وعلى الأخص فى منطقة البومنة ومازالنا نتجابه الزمن الحديث ونقاوم التشوهات إلا أن مقاومتها

فى تناقص واضح . ويمثل الخلاف الجوهرى بين القصيدة العاطفية والقصيدة الدرامية أن الأولى تخلو من الأحداث فى طورها المتميز ومسيرها الديناميكي ، أما الثانية فتصور الأحاسيس المؤلمة التى تركها حدث أو تصرف .

والقسم الثانى من المختارات يشمل نماذج من الحكايات الشعبية للمسلمين كتعبير نثرى شفاهى ، وقد أثارت الحكايات اهتمام الجانب الأكبر من الباحثين وتغلغل إلى جميع الأماكن التى يقطنها البشر : إلى الأكواخ الجبلية البدائية وإلى منازل الأثرياء الواقعة على مفترقات الطرق المزدهمة فى المدن ، وإلى القصور المنعزلة للنبلاء ، وإلى جميع الأماكن الأخرى التى يتجمع فيها الناس ويقيمون معاً . وتتغلغل الحكايات الشعبية فى الوقت الحالى فى المدارس والمكتبات ومن المرجح أنها ستحتفظ بسحرها وحلاوة سردها فى الأزمنة التالية .

وتعد الحكاية الشعبية كشكل أدبى وكأسلوب للتعبير أكثر انفتاحاً وحرية ، أو بعبارة أفضل ، جنساً أدبياً أكثر مرونة . ويمكنها أن تستوعب قدراً من المحتويات المتنوعة والمضامين المتباينة يفوق ما تشتمل عليه القصيدة الشعبية الملحمية والغنائية وتستوجب مطالب أقل فى مجال الصياغة والتعبير . وهذا يعنى أن هيكلها وإطاراتها أكثر اتساعاً ورحابة ، ويتم من خلالها طرح المطالب بحرية أكثر وبالتالي فالقصاصون يشعرون بحرية نسبية أكبر .

وتوصف مناطق البوسنة والهرسك والجبل الأسود بأنها بمثابة الخازنة الرئيسية للثروة الشعبية البوسنية من قصائد وحكايات جادة وفكاهية . وفى هذه المناطق كان يعيش أفضل المنشدين والرواة ويقومون بتسلياة الجماهير الشعبية . وتنفوق هذه المناطق على بقية المناطق المجاورة الأخرى من حيث قوة تعبيرها وجمال وثراء لغتها فى الإبداعات الأدبية .

ويؤكد جامعو الحكايات الشعبية في البوسنة أن الحكايات الخاصة بالمسلمين تحمل خصائص الأسلوب الشرقي ويشير مضمونها إشارة جلية إلى أن أصلها ومنشأها من الشرق . ومن المؤكد أنه قد تم خلال رحلات التجارة إلى الشرق أو الذهاب إلى الحج نقل مثل هذه الحكايات .

وتتنسب إلى نفس الأصل الحكايات العديدة والطرائف الخاصة بنصر الدين خوجة ، وهو شخصية مشهورة لدى البوسنيين ويعد صورة مطابقة لشخصية جحا العربي . ويتم حتى يومنا هذا مرد الكثير من طرائفه ونوادره والاستشهاد بالأمثال الشعبية المرتبطة به وبحياته . وبذلك دخل نصر الدين خوجة إلى معظم المجموعات القصصية الشعبية الفكاهية ، ويتم في كثير من هذه القصص الإحساس بالحياة الشعبية المسيرة وبالألام التي تجثم على صدور الناس .

ويقدم لنا الفصل الثالث مختارات من الملاحم الشعبية التي تتغنى بالأبطال المسلمين ويطولاتهم . ومما لا شك فيه أن الشعر الفنائى والحكايات الشعبية والملاحم تشكل في الحقيقة جانباً متميزاً وهاماً من هذه المختارات التي تم فيها تقديم الإبداعات الشفاهية للمسلمين التي ترجع جذورها إلى القرون الوسطى .

وتؤكد المراجع التاريخية أن شعب البوسنة كانت لديه ملاحم شعبية في القرن السادس عشر . وبالرغم من أن المنشد الشعبي كان يطلق العنان لخياله إلا أن أغلبية قصائد المسلمين وغيرها من القصائد لها جذور تاريخية معروفة وذلك أولاً بسبب انقسام الشعب من الناحية الدينية وثانياً لاختلاف تبعيتهم من امبراطورية لأخرى .

وفي أثناء معارك الحدود المستمرة خلال الحكم العثماني لهذه المناطق ، ربما حتى منتصف القرن الثامن عشر ، احتفظت القصيدة بعلاقاتها بالواقع الحياتي . ولكن مع استقرار الأحوال على الحدود

لم تنفصل أيضاً الملحمة عن الحياة وغيرت تدريجياً دورها . ومن المرجح أن تطور الملاحم الشعبية للمسلمين أخذ يبعدها عن شكلها الأصلي وأصبحت تلقى اهتماماً وعناية من الطبقات العليا في المجتمع .

وقد لاحظ الباحثون أن هذه الملاحم ، من حيث لغتها ومقاطعها وترتيبها ، مماثلة للقصائد الملحمية الشعبية في المناطق المجاورة الأخرى . وبالرغم من ذلك فهي تختلف عنها في أشياء وتتميز عنها في أشياء كثيرة . وفيما عدا بعض الملاحم التي لا يرد فيها ذكر النساء فيمكن القول أنها كلها حافلة بالرومانسية الجديدة . وترتبط موضوعاتها بالقتال والمبارزة من أجل النساء ، وبالزواج وبحفلات الزفاف وبالهجوم على مثل هذه الحفلات ، وبخطف الفتيات ودفع فدية الأمرى من الأبطال وإهداء الفتيات لهم ويرد الظلم والانتقام وما شابه ذلك .

والفصل الرابع من المختارات يضم الشعر البرنامى الشرقى ، وهو فرع أدبى طريف ، حيث تم تقديم المسلمين على اعتبار أنهم جزء من الثقافة الاستشرافية . والأمر هنا يتعلق بمؤلفات الذين ألفوا وكتبوا باللغات التركية والعربية والفارسية . وهنا نجد القصائد الغنائية الانطباعية عن مدينتى سرايغو وموستانر ، وعن الحب والسعادة والألم والمعاناة ويسيطر على مختارات هذا الفصل الشعر الذى يحمل طابعاً دنيوياً ودينياً صوفياً ، وتوجد هنا أيضاً قصائد الغزل ومدح الحياة وقصائد العشق الإلهى .

ومنذ الأيام الأولى لدخول الإسلام فى منطقة البوسنة كان يتلقى العلم فى المدارس الإسلامية المحلية وفى مثيلاتها بالقسطنطينية العديد من المسلمين وحصل كثيرون منهم بأعمالهم وأنشطتهم على أماكن بارزة فى الأدب والاستمراق الإسلامى . وتنكر الأبحاث بيانات عن حياة ونشاط حوالى مائة وثلاثين شاعراً وأديباً ، ونشرت أجزاء أصلية ومترجمة من قصائدهم وأعمالهم الأدبية . وفى عام ١٩٣٤ صدر كتاب آخر تحدث فيه

مؤلفه عن حياة ومؤلفات مائتين من الشعراء والعلماء المسلمين ، وأفسح فيه مجالاً أكبر للمؤلفين في علوم العقائد والتاريخ واللغة . ويعد العصر الذهبي للأدب المتمثلة بالشرق في منطقة البوسنة خلال القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر ، إلا أن هذه الأدب تمكنت من تحقيق استمرارية حتى القرن العشرين .

وبجانب الأدب الشعبي والإبداع باللغات الشرقية يظهر فرع ثالث لأدب المسلمين في البوسنة والهرسك حتى عام ١٨٧٨ وهو نشاطهم الإبداعي الأدبي باللغة الصربوكرواتية والمكتوب بالحروف العربية ، وهو ما يسمى بالأدب « الهامايو » . وهذا الاسم يعد تحريفاً لكلمة أعجمي .

ويعتبر هذا اللون من الأدب ظاهرة إقليمية قومية ظهرت في المناطق التي وقعت تحت تأثير الأدبين والثقافتين العربية والتركية . وتجلت هذه الظاهرة بشكل واضح حينما أخذ مسلمو البوسنة والهرسك يستخدمون في مراسلاتهم الشخصية اللغة البوسنية المحلية المكتوبة بحروف عربية . ولم يكن يتم تعلم هذه اللغة في المدارس ولكن كانت تنتقل من جيل إلى جيل . وتم فيما بعد استخدام هذه اللغة في كتابة الكتب الدينية الأساسية والحفاظ على بعض من المخطوطات .

وفي وقت ازدهار أدب المسلمين باللغات الشرقية (التركية والعربية والفارسية) وفي فترة الانتقال من القرن السادس عشر إلى القرن السابع عشر حينما ظهر أهم الأدباء المسلمين الذين يرجع أصلهم إلى هذه المنطقة لم يكن هناك أحد يقرض الشعر أو يبدع أدباً باللغة الشعبية البوسنية . وهذه الفترة من انحسار الإبداع الأدبي باللغة الشعبية تمثل فترة ازدهار للإبداع الأدبي باللغة الشعبية المكتوبة بالحروف العربية من منتصف القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر . إلا أن هذا

الأدب الأعجمي يتخلف من الناحية الأدبية تخلفاً بعيداً من حيث جودته الشعرية وتنوع أجناسه ومستوى مضامينه عن الإبداعات الأدبية المكتوبة باللغات الشرقية التي تعد تالية لها تاريخياً وزمنياً .

والمسبب في هذا يرجع في المقام الأول إلى أنه لم يكن يقرض الشعر ويمارس الكتابة الأدبية باللغة الشعبية إلا أشخاص متوسطو التعليم يمتلكون قدرات إبداعية ضئيلة ولم تكن لديهم معرفة بالإبداعات الأدبية للأدباء الشرقية التقليدية بحيث يمكنهم على الصعيد الإبداعي نقل واستيعاب قيمها الأدبية عند التأليف والإبداع باللغة الشعبية . ومن الواضح أن نقص التقاليد الأدبية الأصلية باللغة الشعبية وعدم معرفة الإبداع الأدبي للشعوب السلافية المجاورة المنغلقة من الناحية الدينية في منطقة البوسنة والهرسك جعلت الأدب الأعجمي من حيث أفكاره وموضوعاته ومضامينه يعتمد على الشكل التعليمي الديني للأدب الشرقية الموروثة ، وكذلك على الشعر الشعبي للمسلمين في الشكل والتعبير مع تبسيطه إلى حد أن يصبح كلاماً دقيقاً جافاً خالياً من الشاعرية .

والأدب الأعجمي يمثل أهم عنصر في الحفاظ على السمات اللغوية المميزة للبوسنة وعلى ثقافتها . وفي فترة سيادة الأدب الجديد كان الأدب الأعجمي معيّن لا ينضج يستمد منه القراء ما يطفئ ظمأهم الأدبي ، وفي فترة الحكم العثماني كان حارساً على الخصائص الروحية لهذه المنطقة .

وفي النهاية نصل إلى الجزء الأخير من مختارات الجواهر الذي يعد قريباً بشكل خاص من قلب وعقل القارئ المعاصر . وهذا الفصل الأخير يشمل مختارات من الأعمال الإبداعية للأنباء المشهورين من هذه المنطقة والذين كانوا يبدعون ويؤلفون في شتى الأجناس الأدبية في القرنين الماضي والحالي .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن الفترة الحاسمة في التاريخ الثقافي

والأدبي للمسلمين هي فترة الحكم النمساوي المجري ، وعلى الأخص السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين . واحتلال الامبراطورية النمساوية المجرية لمنطقة البوسنة والهرسك يعنى بالنسبة للمسلمين أولاً وقبل كل شيء الانتقال من حضارة إلى أخرى وإلى مجال ثقافة آخر وانتهاج أسلوب مغاير للحياة . ولم يكن من الممكن على الإطلاق أن يمضى هذا الانتقال وذلك التغير ببساطة وبسرعة وبدون آلام ومعاناة .

وقبل ذلك ظل المسلمون بالبوسنة لعدة قرون موجودين فى محيط الدائرة الإسلامية الفريدة ومنمحين اندماجاً كاملاً فى المجتمع العثماني الاقطاعي المتميز ، وربطتهم به مئات المصالح والعلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية والخيوط النفسية السمكة والرفيقة . وجاء الاحتلال ليمزق تقريباً كل هذه العلاقات والخيوط وشعروا لسنوات عديدة بالضيق وانعدام الوزن .

وكان أول مسلم يتقبل الظروف الجديدة ويستوعبها هو محمد بك قبطانوفيتش لوبوشاك الذي كان أول من طبع كتبه بالحروف الحالية . وأصدر « رسالة الأخلاق » و « الثروة الشعبية » و « الكنز الشرقي » ، وهذه الكتب حدد اتجاه تطور الأدب الحديث للمسلمين . وكتابه « الثروة الشعبية » يعكس الوعي بالكيان العرقي السلافي للمسلمين البوسنيين . أما كتابه « الكنز الشرقي » فيكشف التأثيرات الثقافية الحاسمة التي شكلت وصاغت الروح الشعبية المتميزة لهذا الكيان . ومن هنا بزغت فكرة الوساطة التي يقوم بها المسلمون البوسنيون بين الحضارتين الشرقية والغربية .

وأصدر قبطانوفيتش فى عام ١٨٩١ مجلة « البوسنى » التي نصح فيها المسلمون بضرورة وحنمية تقبل الثقافة الأوروبية وأسلوب الحياة

الأوروبي . ومن بين صفوف مساعديه فى تحرير هذه المجلة برز فيما بعد حملة مشاغل الحركة الثقافية ومؤسس الأدب الحديث للمسلمين . ويرجع إليهم الفضل الأكبر فى أنهم أصدروا فى عام ١٩٠٠ وما بعدها مجلات أدبية للمسلمين لكى ينشطوا الحركة الأدبية .

ومنذ أن اصطبغ أدب المسلمين فى القرنين التاسع عشر والعشرين بالصبغة الأوروبية مر بتلك المراحل التطورية والتكوينية المتميزة لجميع الآداب الأوروبية من عقلانية ورومانسية وانطباعية وتعبيرية ، وعن طريق التحولات المفاجئة والتطورات المريعة تساوى أدب المسلمين من ناحية توجهاته الأساسية وأساليب صياغته مع آداب الشعوب المجاورة وعلى الأخص فى صربيا وكرواتيا . وإذا كان هذا قد حدث خلال أربعين عاماً من اللقاء مع أوروبا فإنه لا ينبغى أن يثير حيرتنا أو أن يقلل من أهمية هذا التحول غير العادى الذى استمر أيضاً فى فترة ما بعد الحرب العالمية .

وعلى صفحات هذا الفصل الأخير نجد مختارات من إبداعات أشهر الأدباء والشعراء من الرعيل الأول ثم جيل الوسط بل ومن جيل الشباب .

وقد قام « على إسحاقوفيتش » معد هذه المختارات - عن علم وإطلاع - بانتقاء كل ما يتضمن قيمة وله أهمية . وبذلك قدم للقراء فرصة نادرة لمتابعة الإبداع الأدبى للمسلمين منذ المستويات الأولى لاعتنائهم بالإسلام وحتى وقتنا الحالى . وهذا الإبداع متميز وفريد فى كثير من جوانبه ، ولكنه فى كثير من جوانبه أيضاً يدخل فى تاريخ الأدب اليوغسلافى ويتشابه معه ومع إطلاقات الأدب المعاصر بوجه عام . ومن حيث أفكاره وموضوعاته ولغته وأسلوبه فهذا الأدب مشابه للأدبين الكرواتى والصربى ويرتبط بهما كما يرتبط شعب البوسنة بروابط وعلاقات مشتركة مع الشعبين الكرواتى والصربى . وانتقاءات المعد

لها أهمية وهمة كبيرتان لأنه يتواجد فيها أولئك الأدباء وتلك المؤلفات التي نستشعر فيها بالخط الملافي والتبعية السلافية وتتضمن تركيزاً خاصاً على حب الوطن والوطنية .

واستهدف المعد من هذه المختارات من أدب المسلمين في البوسنة وغيرها من المناطق نظم عقد من الجواهر المنثورة بين ذرات تراب العصور والأزمنة ، الضائعة في طيات الإهمال والقصور النسيان .

وتعد هذه المختارات شكلاً متناسقاً متكاملًا تلنقى فيه بالألوان البوسنية المتعددة وتنوع درجاتها . ولا شك أن الأهمية الكبرى التي ينطوى عليها هذا الكتاب هو عدم وجود سوابق مشابهة له على أي نحو ، ولذا فقد اضطر معد الكتاب لأن يقوم بنفسه بعملية الاختيار والترتيب والتصنيف . وهذه النوعية من الأعمال تحمل في طياتها خطراً مزدوجاً . وهكذا كان على معد المختارات أن يجمع عدداً كبيراً من الأعمال وأن يقيمها ويصنفها . وكان عليه كذلك أن يضع في اعتباره الاعتراضات التي تم توجيهها إلى هذا الأدب وأن يصفى الخلافات الناشئة حول ملكيته وإغفاله والامتنانة به من جانب بعض الدوائر الثقافية والأدبية في جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي السابق .

وكان من اللازم مرور فترة طويلة من الوقت لكي يتم إثبات أن أدب المسلمين هو جزء من المكاسب الحضارية لشعوب البوسنة والهرسك مثله مثل الآداب الأخرى ، ولكي يتم التيقن من أن هذا الأدب يشكل ثراءً للحياة في هذه المنطقة وثراءً للمضامين الروحية المشتركة لهذه الشعوب . ويفضل الباحث « على إسحاقوفيتش » وأمثاله من الباحثين السابقين تم تجاوز جميع العقبات والتغلب عليها وحظى أدب المسلمين بهذه الطبعة الثانية من كتاب « الجواهر » المشتمل على مختارات من أدب المسلمين على حقوة جديدة وعلى تأكيد آخر بأهميته على هذه الأرض .

إبداعات المسلمين باللغة العربية

لن يختلف معنى كثيرون إذا اعتبرت أن التعرف على تراثنا الإسلامي يمكنه ، على نحو ما ، أن ينقذنا من أغلال التأخر ويزيل أشواك التخلف من طريق حياتنا ، وأن يزيح النقاب أمام أعيننا عما خفى علينا من كنوز الماضي ومعارفه وبالتالي قد يكشف لنا عن آفاق العصر وطموحاته . وليس من نافلة القول التنويه إلى أن لزاحة ستائر النسيان والإغفال عن تراثنا سندعم هويتنا وشخصيتنا الإسلامية العربية وتدل على وجودنا الحضارى الإسلامى الذى امتدت آثاره إلى أماكن عديدة عبر أزمان كثيرة .

وما زال الكثير من كتب التراث الإسلامى فى معظم أقطار العالم فى حاجة ماسة إلى إحياء التراث ، ، وأقصد بإحياء التراث هنا ضرورة قيام مجموعات متخصصة من الدارسين والباحثين ببعثات دراسية علمية فى جميع أنحاء العالم بحثاً عن التراث الإسلامى بهدف تحقيقه وتمحيصه ودراسته . وهذه أمور ضرورية وواجبة لأننا سنجد فى كتب التراث هذه الكثير من الأمور الأصلية الإيجابية والمعلومات الجيدة المفيدة .

ومن المعلوم أن مختلف المكتبات وإدارات السجلات الموجودة فى جمهورية البوسنة والهرمك تحوى الألوف من المخطوطات والكتب الثمينة التى تغيننا أياً إفادة عند التأريخ لبعض الأحداث الإسلامية التى وقعت فى الماضى وعند دراسة التراث الإسلامى ، وعلى الأخص عند دراسة التأثيرات الحضارية الإسلامية على شعوب البوسنة والهرمك خلال فترة وجود الأتراك العثمانيين بها . ومازالت هذه المخطوطات

والكتب في حاجة إلى جرة المحققين والباحثين وإلى إقدام وتضحيات النافرين في سبيل كشف مكنوناتها والتعرف على محتوياتها .

وقد دأب معظم المؤرخين بجمهوريات الاتحاد اليوغسلافي السابق ، في الماضي غير البعيد ، على إبراز وتضخيم الجوانب السلبية مع تعدد إغفال أو نسيان الجوانب الإيجابية لوجود الأتراك العثمانيين بهذه المناطق . وكان لهذا الإغفال المتعمد أسبابه السياسية وخلفيته الاجتماعية ، وهي أمور أصبحت معروفة جيد المعرفة لمن يتابع مثل هذه الأمور .

بيد أن الحق لا يلبث أن يظهر ومرعان ما يزهق الباطل ، فتلك هي طبيعة الحياة في كل زمان ومكان . ومن هنا نجد أنه ظهر في الآونة الأخيرة بعض الباحثين والمتخصصين الجادين الذين قاموا بوضع الحق في نصابه وتسلط الأضواء على الجوانب السلبية وكذلك الإيجابية لوجود الأتراك العثمانيين بهذه المناطق في حقبة ليست بالقصيرة تجاوزت الأربعة قرون ، من عام ١٤٦٣ وحتى عام ١٨٧٨ .

وقد نوهنا من قبل إلى أن الأتراك العثمانيين قاموا بدور الوساطة والنشر لعناصر الحضارة والثقافة العربية الإسلامية بين السلاف في منطقة البلقان كلها . وتعمقت التأثيرات الإسلامية تعمقاً خاصاً بين سكان البوسنة والهرسك لدرجة أن كثيراً من هذه التأثيرات والعناصر مازال موجوداً حتى بعد انحسار وزوال السيطرة العثمانية .

ووفقاً لما سجله بعض الرحالة الأوروبيين آنذاك فإن ثلاثة أرباع سكان منطقة البوسنة والهرسك كانوا من المسلمين في بداية القرن السابع عشر ، وكان هؤلاء المسلمون أفضل سند للعثمانيين في حكمهم لهذا الجزء من أوروبا ، بل وكانوا في مقدمة الجيش العثماني الغازي ، وبعد انهيار الامبراطورية العثمانية كانوا بمثابة حصن للإسلام في أوروبا .

وربما كان هذا هو أحد الأسباب الرئيسية لما تعرض ويتعرض له مسلمو البوسنة والهرسك من أعمال لا إنسانية بعد تفتت الاتحاد اليوغسلافي .

ومن تلك الجوانب الإيجابية التي يتم في الوقت الحالي تبسيط الأضواء عليها دون وجل ، أن الأتراك العثمانيين ركزوا على إقامة مؤسسات تعليمية مختلفة خرجت العديد من أجيال المثقفين المسلمين من أهل هذه البلاد . ولابد من التنويه في هذا المضممار إلى أن تعلم اللغة العربية استحوذ على دور ريادي على ألسن أنها لغة الإسلام . وكان الآباء من مسلمي البوسنة والهرسك يعتبرون أن من أهم واجباتهم أن يعلموا أولادهم ولو قليلاً من اللغة العربية حتى يسهل عليهم قراءة القرآن وغيره من الكتب .

ونتيجة لهذه الثقافة الإسلامية ألف الأدباء والعلماء المسلمون من البوسنة والهرسك باللغة العربية كتباً في مختلف الموضوعات والمجالات ، ومنها علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والعقائد والشريعة والتصوف ومختلف علوم الدين والتاريخ وأدب الرحلات والشعر وفي علوم اللغة العربية ، ثم الجغرافيا والرياضة والمنطق والوعظ والإدارة الخديمة وتنظيم الدولة والطهارة والحيوانات وغير ذلك من المجالات .

ومن هؤلاء العلماء المسلمين من البوسنة العالم أحمد شمس الدين البرسنوي المراتي المولود في بلدة سراي (أي سرايفو) بمنطقة البوسنة والهرسك . وقد نشأ طالباً للعلوم والمعارف ومستفيداً من كل عالم وعارف ، وأكثر من نشاطه في مجال التحصيل والاستفادة . . ولازم المولى محيي الدين في مدرسة السيدة مهرماه ببلدة سكاदार واشتغل معلماً للوزير محمود باشا المشهور بزال . كما أنه كان عالماً حسن السمعة ، سيرته طيبة وسيرته نقية ، سليم الذهن مستقيم الطبع .

وكان منهمكاً في أعماله ومؤلفاته ومبتعداً عن القيل والقال . وكان يجيد كتابة النثر والمنظوم ، وضليعاً في كلام العرب واللوان الأدب . وتوفى رحمه الله في عام ١٥٧٥م . (٩٨٣هـ .) وهو في عنفوان شبابه يعمل بمدرسة السلطان محمد بمدينة بروسه .

وكتب العالم أحمد شمس الدين رسالتين ، إحداهما في وصف القلم على عادة بلغاء زمانه ، وأخرى في وصف السيف . واختار القلم والسيف باعتبارهما رمزين للعلم والشجاعة وباعتبارهما أساسين جوهريين لتشبيد الدولة وازدهارها .

ومن رسالته في وصف القلم : شجرة تخرج من طور سيناء أصلها ثابت وفرعها في السماء إذا نزل عليها الماء اهتزت وكلما أنت بأثمارها تجددت . يوسف عانقه أخوته عناق الحب وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، قد قميصه من غير طغيان ، سجن وليس له عدوان . تارة تراه وهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ومرة تلقاه كطائر يطير بجناحيه على قفاه .

ومن رسالته في وصف السيف : فياسألني عن أصل ذلك النصل ، استمع لما يتلى عليك في هذا الفصل ، إنه نص قاطع وبرهان ساطع . ذو النون ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت فنادى في ظلمة فاحمة فنبذناه وأنبتنا عليه شجرة قائمة .

ومن بين هؤلاء العلماء العالم الجليل المشهور باسم حسن بن طورخان كافي الأفحصارى . وهو بصير بمسائل الفقه ، ضليع في أصوله النحوية والصرفية وله قدم راسخ في علم أصول الدين ، هذا علاوة على أنه أديب وشاعر . وقد ولد في عام ١٥٤٢م . (٩٥١هـ .) ببلدة أقحصار (أى بروساتس الحالية) . وكان أبوه من المولدين في منطقة اسكندر الرومية ثم ارتحل إلى ناحية أقحصاره . وكان مسيحياً هداه الله إلى الإسلام عند

مجيئ السلطان محمد خان لفتح هذه المنطقة وعاش في الإسلام إلى أوائل سلطنة السلطان سليمان خان . ثم رزقه الله بحسن كافي الذي شرع في تحصيل العلم وهو في الثانية عشرة من عمره . ولما تبصر له تحصيل مبادئ العلوم في بلده ارتحل حمن كافي إلى القسطنطينية وأخذ عن المشايخ والعلماء واشتغل عند كثير من الفضلاء إلى أن تتلمذ على يد الشيخ العالم كمال باشا زاده الذي كان يعمل بالتدريس في بلدة «جنالجة» واستفاد استفادة عظيمة من بحار علمه وأبحاثه . ولما نال حظاً وافراً من العلم ونصبياً كبيراً من جيد الفهم عاد إلى بلدة أقحصار حوالى عام ١٥٧٤م . (٩٨٣هـ .) وعقد لطلبته مجلساً للدرس واشتغل قاضياً بمدينة أقحصار . وفي أثناء الدرس والقضاء شرع في تأليف العديد من الكتب المتنوعة .

ومن هذه الكتب « رسالة في تحقيق لفظ جلبي » وهي دراسة فيلولوجية في مجال اللغة العربية انتهى فيها إلى أن هذا اللفظ يعنى الإنسان العالم الكامل المتدين ، ثم يستغل هذه الفرصة لكي يندد بأصحاب النفوذ السياسى وبحقهم فى الاستحواذ على الخير من وراء مناصبهم . ويطالب باستخدام المعايير الإنسانية عند تقدير الأفراد ، وهكذا نرى أن المؤلف يريد التركيز على رأيه الذى يفيد بأن قيمة الإنسان تقدر على أساس ما قدمه للمجتمع .

وفى مجال البلاغة العربية كتب رسالة « تمحيص التلخيص فى علم البلاغة » ، وهى فى حقيقتها دراسة مختصرة لكتاب القزوينى التلخيص . ثم ألف حسن كافي كتاب « نظام العلماء إلى خاتم الأنبياء » . وفى مجال الدين والشريعة ألف « روضة الجنة فى أصول الاعتقادات » ، وكتب تعليقا على هذا الكتاب بعنوان « أزهار الروضة » ، ثم ألف حديقة الصلاة التى هى « رأس العبادات » و« ونور اليقين فى أصول الدين » الذى يعد تعليقا على كتاب عقيدة أهل السنة للتهالوى . كما ألف كتاب « سمع

الوصول إلى علم الأصول » . وفي مجال المنطق كتب « مختصر الكافي في المنطق » وتعليقاً غير كامل على هذا الكتاب . وهذه الكتب في معظمها مخطوطات محفوظة في مكتبات البوسنة تنتظر الناشر الجري .

ومن أشهر كتبه على الإطلاق كتاب « أصول الحكم في نظام العالم » . وهذا الكتاب يحتوي على مقدمة وأربعة أصول وخاتمة . ويتحدث المؤلف في المقدمة عن أسباب تنظيم هذا العالم بقوله أن الله تعالى لما قدر بقاء العالم ببقاء نوع الإنسان إلى وقت معلوم وبقاء بالناسل وهو بالمعاشرة والتعامل اقتضت الحاجة وجود أسلوب ينضبط به أمر الإنسان على وجه أحسن في جميع الأزمان ، وإذا فإن قماء العلماء وحكام القماء رتبوا الناس على أربعة أصناف . صنف للميف ، والثاني للقلم ، والثالث للحرث والزرع ، والرابع للحرفة والتجارة . وجعلوا التصرف في الكل ملكاً وأمانة .

ومن العلماء المسلمين أيضاً العلامة الشيخ علاء الدين على نده السكتواري البوملي ، وهو مولود ببلدة موستار في منطقة البوسنة اليوغسلافية . وأنهى دراسته الأولى في مسقط رأسه ثم أكملها في اسطنبول . وبعد انتهائه من الدراسة انضم إلى أتباع الطريقة الخلوتية الصوفية عند الشيخ مصلح بن نور الدين الخلوتي . وأخذ منه إجازة بالإرشاد واجتهد عنده إلى أن صار من جملة خلفائه ثم سماح في البلاد لكي يزور المراكز الصوفية المشهورة وكبار مشايخ الطريقة وذلك وفقاً لغادات الصوفييين آنذاك . وأدى فريضة الحج عدة مرات وأقام بمكة فترة من الزمن كتب فيها عدة مؤلفات له .

وبعد وفاة السلطان سليمان في عام ٩٧٤هـ (١٥٦٦م .) عند قلعة سكتوار أقيم في مكان وفاته مشهد وتكية للصوفية ، وتم تعيين الشيخ علاء الدين شيخاً للتكية وحارساً للمشهد . ومن أجل هذا حصل على لقب

شيخ المشهد ، وظل يحاضر في هذه الزاوية العلوم الصوفية والدينية (علوم الظاهر والباطن) . ووزع إجازات الإرشاد على مشايخ مناطق الحدود وهو يعيش عيشة متبذنة متواضعة .

وفي هذا المكان كتب في عام ١٠٠٠ هجرية (١٥٩١ ميلادية) كتابه « مشاكل الفلسفة » . وبعد ذلك بعلم توجه إلى مكة وفقاً لأوامر السلطان مراد الثالث لكي يشرف على إصلاح مقام إبراهيم . ومما ينكر أن هذه المهمة قد أوكلت له بناء على اقتراح درويش باشا المستأري (أى من نفس بلده) الذي كان آنذاك مستشاراً للسلطان وله تأثير عظيم داخل القصر السلطاني . وفي مكة كتب مؤلفه « تمكين المقام » (بمعنى وضع مقام إبراهيم) في عام ١٠٠١ هـ . (١٥٩٢ م .) .

وحيثما تحرك محمد باشا ساتورجي لمواجهة فارادين الكبير دعا الشيخ المسن علاء الدين على دده لكي يرافقه ويقوم بتشجيع الجنود على القتال . وتوجه علاء الدين لأداء فريضة الجهاد وتشجيع الغزاة وتذكيرهم . ولدى عودة علاء الدين من هذه الغزوة الفاشلة توقف في صحراء جويلا أمام مدينة تحمل نفس الاسم واحتفى القهوة واستراح قليلاً أمام خيمة على أفندي سكرتير السردار ، ثم نهض وخرج أمام الخيمة لكي يصلي صلاة العصر . وبعد ذلك بقليل تم العثور عليه ميتاً على السجادة . وكان هذا في بداية ربيع الأول عام ١٠٠٧ هـ . (١٥٩٨ م .) .

وتم نقله إلى سيكتنار ، ووفقاً لوصيته الشخصية تم دفن جثمانه عند قبر الشيخ قاسم الذي كان قد لقي مصرعه عند فتح قلعة سيكتنار . ويحكي المؤرخ إبراهيم البجوى أن علاء الدين قال لأصدقائه في اليوم الذي توفي فيه بعد الرجوع من الغزوة : « كنت أنتظر أن أنال الشهادة في هذه الغزوة ولكن الله تعالى لم يرد ذلك ولا أعرف السبب » . وتوفي في يومه ذلك وتحقق ما كان ينتظره ويتوق إليه .

ويستطرد البجوى قائلاً أنه فى أثناء عودتنا فى أحد الأيام ونحن نركب الخيل معاً ونتحدث عن الظروف فى العالم ، وعلى الأخص عن البؤس وعن المتاعب التى كنا نتحملها فى هذه الغزوة ، أبدت ملاحظة بقولى : عجيب أن هذا المردار ليس له حظ . كل هذا الجهد والمجهود وكل هذه المعاناة والمتاعب وكله يذهب هباء . وعلق على دده على ذلك بقوله : « هذا الرجل له أربعة عيوب : الكبرياء والزهو والاستبداد وحب النفس ، وأى شخص له واحدة من هذه الخصال الأربع السيئة لن يعجبه العمل على الإطلاق ولن يتهيج بأى نجاح . وكيف يغزو ويجلب النصر ويهيج الشعب ذلك الشخص الذى يمتلك كل هذه الخصال السلبية الأربعة ؟ » ويستطرد البجوى معلقاً بأن هذه الكلمات الثمينة قطعت قلبه ولذا فإنه يسجلها .

وكان علاء الدين على دده رحمه الله عالماً جليلاً ، وصوفياً ناسكاً زاهداً ، ومتعبداً مستجاب الدعوة يفتح باليسير . وله مؤلفات حسنة منها كتابه « محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر » ، وقد انتهى المؤلف منه فى عام ٩٩٨هـ (١٥٨٩ - ١٥٩٠ م) . والجزء الأول من هذا الكتاب يعد ، فى الحقيقة ، تلخيصاً « لكتاب الأوائل » لعبد الرحمن السيوطى ، وحذف منه علاء الدين أسانيد الأخبار والزوائد والتكرار وأسماء الكتب المنقول عنها ، كما أضاف علاء الدين أصنافاً من الأخبار والآثار المتعلقة بالأوائل والأواخر استخرجها من الكتب المعتبرة من محاضرات التواريخ كتحفة الألباب وتاريخ الخلفاء وسير الملوك وكنز الأسرار ومسالك الممالك وبهجة التواريخ وتاريخ الحكماء والفقهاء والنحاة وأصول التواريخ وتاريخ الجواهر الثمين فى الخلفاء الراشدين وكتاب المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة وكتاب مزهر اللغة وغيرها من الكتب المتداولة .

وفصول القسم الأول مرتبة فى سبعة وثلاثين فصلاً ، وهكذا على

سبيل المثال يتحدث عن الأحاديث المصدرة بالأوائل من أنواع الأخبار النبوية المحمدية وعن بدء المخلوقات وأوائل الكائنات وعن أوائل الألسنة واللغات ، وعن أوائل الكتب الإلهية ونزولها وعن أوائل الخطوط والأقلام وعن أوائل الأشعار والشعراء وعن أوائل الجهاد ومتعلقاته ، وعن أوائل التنغى والحداء وأوائل الصنائع والحرف .

أما الجزء الثانى فيتحدث فيه المؤلف عن الأحداث الأخيرة ، والسيوطى فى مؤلفه لا يتحدث عن ذلك على الإطلاق . وهذا القسم مقسم إلى أربعة فصول يتحدث عن الأواخر المختصة بحضرة القرآن من أواخر السور ، وعن الأواخر المتعلقة بالخلافة والملوك والدول وطبقاتها ، وعن الأواخر المختصة بأنواع الأواخر ، وعن الأواخر المختصة بدخول الجنان وخروج النيران .

ويحتوى هذا الكتاب على كمية كبيرة من الأخبار والأقوال التى تحتاج إلى تمحيص وتأكد ، إلا أن هذا لا يقلل من قيمة المؤلف وأهميته . كما أن الكتاب مكتوب بلغة جيدة وبأسلوب واضح وجميل . وكل هذا يوضح الثقافة العالية للمؤلف وعلمه فى مختلف المجالات . وقد تم طبع الكتاب مرتين بالقاهرة وعثرت على طبعة لبنانية بالأوقست .

وكتابه الثانى هو « خواتم الحكم » المسمى « حل الرموز فى كشف الكنوز » أو « أسئلة الحكم » ، وهو مكتوب أيضاً باللغة العربية وانتهى منه فى مشهد السلطان سليمان عند سيكتوار فى عام ١٠٠٠ هجرية (١٥٩١ - ١٥٩٢ م .) كما يقول المؤلف نفسه فى المقدمة : « والكتاب يحتوى على ثلثمائة وستين سؤالاً من لطائف الأسئلة الحكمية والأجوبة العلمية من الآى الفرقانية والأخبار النبوية . وكل سؤال منها بمنزلة باب من الكتاب وفصل الخطاب يكشف القناع عن وجوه الحقائق الحكمية العلمية ويسفر اللثام عن أعين الدقائق اللنية » . وكل الإجابات ، تقريباً

مخضبة بالتصوف وأخرجها المؤلف من كتب المحققين من أصحاب الظاهر والباطن كالفتح المكي لابن العربي والانتقان في علوم القرآن للسيوطي وكنز الأسرار للصنهاجي وكتاب المناسبات للإمام النيسابوري وغيره من كتب الكمل والراسخين .

ويحتوي الكتاب على مناقشتين فلسفتين صغيرتين عن الأجزاء المكونة للجسم البشري من وجهة نظر الصوفية . وملحق الكتاب مقسم إلى سبعة أطوار ، ويتحدث عن المشاكل الكونية وعن الفترات الرئيسية في خلق العالم ، وعن حساب الزمن وعن تحرك الأجسام السماوية ، وكل هذا من وجهة نظر الصوفيين وتحت التأثير المباشر لابن عربي .

وتحلى هامش هذا الكتاب بكتاب آخر عنوانه « الأجوبة العرفية على الأسئلة الإيرانية » لشيخ الإسلام بيغداد شهاب الدين أبي الثناء السيد محمود أفندي الآلوسي البغدادي . ويمتدح يوسف صالح محمد الجزماوي ، مصحح الكتابين ، الكتاب بأبيات يقول فيها :

وإبراج لجاهل ولعالم	ذا كتاب به نجاح العوالم
أوضح الحق بالدليل القائم	كم سؤال طوى بنشر جواب
واضحات ما شابها لوم لائم	طرق العارفين فيه تبحت
مسترق لكل طبع ملائم	قد كساه (على دمه) حسن سبك

ولقد ألف كتابه الثالث « تمكين المقام في المسجد الحرام » حينما أرسله السلطان مراد الثالث في عام ١٠٠١ هجرية للإشراف على إصلاح مقام إبراهيم . والكتاب مقسم إلى أربعة أركان (أى فصول) وخاتمة . والركن الأول في سبب نزول الآيات فيه ، والثاني فيما ورد في فضل الصلاة فيه ، والركن الثالث فيما ورد في أسرار المقام ، والركن الرابع في أوائل المقامات ، والخاتمة فيما قيل في محله .

ومن كتبه الأخرى غير المعروفة : أنوار المشارق ، أصول

السباعيات وترتيب العراتب ، الأصول لأرباب الموصول ، مواقف
الأخرة ولطائف الفاخرة ، الرسالة الانتصارية التي يبرز فيها المؤلف
ميزات وفصائل الامبراطورية العثمانية .

ومن المؤكد أنه لا يزال هناك العديد من العلماء والأدباء المسلمين
اليوغسلاف الذين لم يتم إلقاء الضوء عليهم وعلى مؤلفاتهم المكتوبة باللغة
العربية . ونسأل الله العون في أن نتمكن من تقديمهم وإلقاء الأضواء على
مؤلفاتهم حتى يتمكن المتخصصون والمهتمون من تقدير قيمتها العلمية
والفنية والأدبية بهدف أن يستفيد القراء العرب من مضمونها ومحتوياتها .

وعلاوة على هؤلاء العلماء والأدباء فما زال هناك العديد من العلماء
والأدباء من المسلمين في البوسنة والهرسك لم يتم إلقاء الضوء عليهم
وعلى مؤلفاتهم وإبداعاتهم المكتوبة باللغة العربية . وأتمنى أن تسنح لنا
فرصة أخرى لتقديمهم وعرض مؤلفاتهم على القراء حتى يتعرفوا عليها
وعلى محتوياتها والاستفادة - لن أمكن - بمضمونها .

وقد أذهلني أن أقرأ لبعض الباحثين في جمهوريات الاتحاد
اليوغسلافى السابق ما يتم عن تنكرهم لهذه الإبداعات التي كتبها مسلمو
البوسنة والهرسك باللغة العربية في حقبة معينة من تاريخهم ، وينبغي
على الدوام البحث عن أسباب تنكر هؤلاء الباحثين لهذا الإبداع العلمي
والأدبي البوسنى المكتوب باللغة العربية في شخصيات هؤلاء الباحثين
وفى كفاهاتهم ومقاصدهم من هذا التنكر ذلك لأن البعض من هؤلاء
الباحثين قد أقبلوا على البحث في هذا المضمار بقلوب مفعمة بالتعصب
وبأذهان مثقلة بالأحكام المسبقة وبغير خبرة علمية كافية ، ولم ينتبهوا
مطلقاً إلى روح العصر وإلى الظروف المتميزة التي كان يحياها الأديب
والعالم البوسنى ويعمل فيها ويبدع آنذاك .

ولئننى كأى عربى مسلم أرحب بهذه الإبداعات المكتوبة باللغة العربية

بمعرفة مسلمي البوسنة والهرسك وأقلامهم إلا أنني أرفض رفضاً قاطعاً رأى بعض الباحثين المفرضين الذي يرى بأنه ليس هناك ما يمنع من إدراج هذا اللون من الإبداع في إطار الأدب العربي أو العلوم العربية . ويستندون في ذلك إلى ما حدث في الأندلس وإلى اعتبار الأدب الأندلسي جزءاً لا يتجزأ من الأدب العربي ، وهذه قضية أخرى .

والرأى عندي أن هذه الإبداعات العلمية والأدبية كتبها أدباء وعلماء مسلمون من منطقة البوسنة والهرسك باللغة العربية في ظروف تاريخية معينة ولا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال أدباً عربياً أو ضمها إلى العلوم العربية ، وإنما هي إبداعات محلية بوسنية مائة بالمائة . وذلك لأنها - في كثير من الأحوال - تحمل بعض السمات الخاصة بأهل هذه المنطقة . كما أن الموافقة على الرأي المذكور تعد إجحافاً وإهداراً لنشاط هؤلاء الأدباء والعلماء المسلمين من البوسنة والهرسك .

بيد أننا في ختام هذا البحث لا بد وأن ننوه إلى أنه بدأت تظهر دراسات جادة وأبحاث منصفة بأقلام بوسنية وعربية وغربية تضع هذه الإبداعات في مكانها الطبيعي في إطار الآداب والعلوم في البوسنة والهرسك .

الأدب الأعجمى

ويطول الحديث عن التأثيرات الإسلامية العربية على الأدب فى البوسنة والهرسك . وهناك نوع طريف آخر من آداب المسلمين بالبوسنة والهرسك تتجلى فيه التأثيرات الإسلامية العربية على هذا الأدب . ذلك هو أدب « الهامبادو » . وهذه الكلمة تعتبر تحريفاً لكلمة أعجمى .

والأدب الأعجمى فى البوسنة والهرسك عبارة عن أدب مؤلف باللغة الأم أى باللغة المحلية للبلد ، وهى اللغة الصربوكرواتية ، ومكتوب بالحروف العربية . ومن أجناسه الأدبية المشهورة « القصيدة » وهى شعر للمدح أو الرثاء أو شعر دينى ، « والالهيات » وهى شعر دينى خالص ، « والحكايات » وهى قصص دينية أو أسطورية . ومنها كذلك « العرضحال » وهو عبارة عن شكوى أو دعوى أو التماس أو قصيدة سياسية أو رسالة ، « والمحضر » وهو طلب جماعى أو شكوى . وقد استمر هذا الأدب الأعجمى موجوداً منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر .

ويفسر بعض الباحثين هذه الظاهرة بأن المتعلمين تركوا الكتابة باللغة الأم إلى البسطاء الذين لا يملكون حظاً واسعاً من الثقافة ، وكان هؤلاء البسطاء مشغولين أكثر من أفراد الطبقات الحاكمة بهمومهم ومشاكلهم اليومية ويتحملون عبء الحروب المتكررة على الحدود المجاورة للإمبراطورية ونظراً لانشغالهم بهذه الدوامة من الحياة فإن مؤلفاتهم الشعرية كانت نابعة من احتياجاتهم المباشرة فى هذه الحياة وهذه البيئة . ولذا فإن هذه القصائد لا تعكس صراعات عميقة ولا تستند إلى الحركات

الفكرية السائدة فى عصرها . ولغتها تختلط إلى حد كبير بكثير من الكلمات الأجنبية الغربية . وهذا أمر طبيعى ومفهوم إذا أخذنا فى الاعتبار أن الثقافة الشخصية لكتاب هذه القصائد ربما تكون قد أتت من مصادر أجنبية .

ولكن فى بعض الأحيان كان هناك من الشعراء من يثير الدهشة بنقاء لغته وقوة تعبيره الشعرى . وكثير من هذه الأشعار مؤلف على نظام العروض العربى ، أما من حيث مضمونها فغالباً ما تكون أخلاقية وإنسانية ولتعليم الدين وندراً ما كانت تنسم بطابع سياسى . ومن بينها شكاوى واحتجاجات بالشعر وقصائد وطنية وأساطير دينية .

وقد كان محمد بك قبطانوفيتش لويوشاك هو أول الأدباء المسلمين الرواد الذين اطلعوا وعرفوا رأى العام بمؤلفات الأدب الأعجمى . وهو يبدى لنا ملاحظة مهمة تقول أن أغلب الأدباء الذين ألفوا هذا الأدب من الدراويش ورغم أنهم اكتسبوا جل معارفهم وتلقوا كل أدبهم باللغات الأجنبية إلا أنهم لم يخلوا أو يتنكروا للغتهم الأم بل أحبوا حباً جماً مما حدا بهم إلى استخدام لغتهم الأم هذه فى تنميق أفكارهم وتسجيل المواقظ لبنى وطنهم .

ويقرر النقاد والباحثون فى اليوسنة والهرسك أن هذا الأدب يمثل أهم عنصر فى الحفاظ على الخصائص اللغوية وعلى الثقافة آنذاك . وفى الفترة السابقة لسيطرة الأدب الجديد فى اليوسنة والهرسك كان الأدب الأعجمى هو المنبع الذى كانت جماهير قراء الأدب وجماهير المستمعين له تنهل منه لى تطفئ حبها للاستطلاع وتروى ظمأها . وخلال فترة الحكم التركى كان هذا النوع من الأدب هو الحارس على الذاتية الروحية .

وكان الباحث الروسى الكسندر جيلفردنج هو أول باحث أوروبى يلفت النظر فى عام ١٨٥٩ إلى هذا اللون من الأدب . ثم بعده بحوالى

نصف قرن كامل جاء اهتمام الباحثين والنقاد في منطقة البوسنة والهرسك بهذا الأدب على يد جيش كامل وعبر أجيال متعددة . وبالرغم من كل هذا فما زالت الابحاث والدراسات الخاصة بهذا النوع من الأدب قليلة . ولذا يحق لى أن أعتقد وأن أستنتج أن هذه الدراسات لم تقل بعد كلمتها الفاصلة فيما يتعلق بهذا الأدب . هذا علاوة على أنه مازالت توجد كميات كبيرة من مؤلفات هذا الأدب ترقد فى سكون على صفحات المخطوطات والوثائق .

ومع ذلك فهناك من يتعجل الحكم ويرى أن هذا الأدب يتخلف كثيراً من حيث مميزاته الشعرية ومن حيث نوعه ومضامينه ، عن الأدب المكتوب باللغات العربية والتركية والفارسية . ومرجع ذلك أولاً وقيل كل شيء إلى أنه لم يكن يقوم بقرض الشعر وبالكاتبه باللغة الشعبية إلا الأشخاص الذين يمتلكون قدرأ متوسطاً من الثقافة وقدرأ بسيطاً من الكفاءات الإبداعية وكانوا أيضاً على غير علم بالأدب الشرقية الكلاسيكية حتى يتمكنوا من أن يبرعوا فى نقل قيمتها الأدبية وفى استيعابها من خلال إبداعهم باللغة الشعبية . وهناك أسباب أخرى تتمثل فى قلة وضالة التقاليد الأدبية الذاتية الأصيلة بلغة الشعب وفى الجهل بالإنجازات الأدبية لجيرانهم من الشعوب اليوغسلافية ، وهى إنجازات أدبية كانت من حيث روحها وطبيعتها منغلقة من الناحية الدينية . وكل هذه الأسباب وغيرها جعلت هذا الأدب من حيث أفكاره وموضوعاته ومضامينه يعتمد على الجانب الدينى التعليمى من الأدب الشرقية الموروثة ، وجعلته يرتكن من ناحية أخرى على الشعر الشعبى للمسلمين اليوغسلاف من حيث صيغته ومن حيث تعبيره الأدبى مما جعله يقتصر على كونه حكماً جافة صارمة .

ومن أشهر من كتبوا هذا الأدب : صالح جاتييفيتش ومحمد رشدى ومحمد بك قيطانوفيتش لوبوشاك ويوسف بك تشنجيتش وحزمة بونيتش وعبد الرحمن سرى سيكيريتمسا ومحمد الهوائى وسعيد وهاب إلهامى وغيرهم .

ولا يتم مطلب الكلام عن هذا الأدب إلا بتكر بعض النماذج لمشاهير
الأدباء من البوسنة والهرسك الذين كتبوا هذا النوع . وقد وقع اختيارنا
على نموذجين من الشعر أولهما للشاعر عبد الرحمن مري بعنوان
« إذا أردت أن تكون صوفياً » :

إذا أردت أن تكون صوفياً
فلا بد أن تطهر قلبك
وأن تشرك بالله
لا إله إلا الله .

وأن تتدم على نبيك
وأن تعود إلى المعاصي
وأن تكون عبد الله الحبيب
لا إله إلا الله .

العبودية جمال
وعدم الطاعة ذنب
وطلب المقابل عار
لا إله إلا الله .

النية كلها يعرفها الله
يا أيها المتصوف اترك الرياء
واطلب الرضى
لا إله إلا الله .

يقول الكتاب ما بلى
أنه أسوأ من الحيوان
من لا يلتهم بعشق الله
لا إله إلا الله .

استمع إلى أمر الله
وقم كثيراً بتذكر الله
بكل قلبك : يا الله
لا إله إلا الله .

هذه الدنيا ستذهب
وسياتى الملك لأخذ الروح
وسيكون عوننا هنا
لا إله إلا الله .

انظر إلى سرى
إنه يحب كل المتصوفين
وكل يوم وائلة يقول
لا إله إلا الله .

والمعلومات التى بين أيدينا عن الشاعر عبد الرحمن سرى
(١٧٨٥ - ١٨٤٧ م .) ضئيلة للغاية ، فقد ولد الشيخ عبد الرحمن فى
بلدة فوينيتسا بمنطقة البوسنة والهرسك . وكان أبوه يدعى محمد ، وجده
يدعى فضل الله ، وكلاهما كانا يشتغلان بالقضاء فى مدينة فوينيتسا .
ويقال أنه فى زمن جده فضل الله تم نقل مركز القضاء من بلدة كريشيف
إلى فوينيتسا هذه . وقد تعلم عبد الرحمن فى المدرسة الدينية الإسلامية
ببلدته . ولكنه علاوة على ذلك استمع إلى كثير من العلوم على يد الشيخ
حسين زوكيتش ، الذى كان فى ذلك الحين رئيس نكية فى بلدة جيفتشيتش
على بعد ساعتين سيرا على الأقدام .

وحيث أن الشيخ حسين زوكيتش كان كثيراً ما يقد إلى بلدته فوينيتسا
فقد تعرف على القاضى محمد ، ونشأت بينهما صداقة وطيدة مما حدا
بالقاضى إلى أن يوكل للشيخ حسين مهمة تربية ابنه وتعليمه . فأدخل الشيخ

حسين تلميذه عبد الرحمن فى الطريقة النقشبندية ولقبه مرى وكان تابعه الوحيد . وحسب أوامر الشيخ حسين تزوج عبد الرحمن مرى وأسس تكية على أرضه فى قرية أوجلافاك بالقرب من بلدة فوينيتسا ، ويفضل الشيخ حسين أصبحت هذه التكية من أشهر التكايات فى هذه المناطق .

والنموذج الثانى بعنوان « نصائح للابن » من تأليف الشاعر يوسف تشنجيتش الذى يقول :

إذا أردت أن تكون مؤمناً
فلا بد أن تطهر قلبك
وأن تقوم بذكر الله
وأن تتدب على نيوبك
وأن تلتزم بالشرعة
وأن تتركب النيوب
وأن تكون عبد الله العزيز
هكذا يكتب يوسف تشنجيتش
ويقول ويكى
لأنه وعدك
بأن يقول لك الحق يا عبده .

وقد ظهرت هذه القصيدة فى حوالى عام ١٨٦٦م . وسرعان ما أصبحت شائعة بين المسلمين فى البوسنة والهرسك ، وتم طبعها ونشرها عدة مرات نظراً لمضمونها الدينى التعليمى .

وكان الأبناء الذين يكتبون الأدب الأعجمى يستخدمون من الحروف العربية ما يقابل حروف لغتهم المحلية الصربوكرواتية - أو اللغة البوسنية كما كانوا يطلقون عليها آنذاك . غير أننا نلاحظ أن الصواب

لم يحالف واضعى هذا الجدول بالنسبة لما يقابل بعض حروف لغتهم من اللغة العربية .

وبعد فهذه لمحة موجزة عن الأدب الأعجمى فى البوسنة والهرسك قصدنا بها تسليط الأضواء على التأثيرات العربية والإسلامية على الثقافة والأدب فى هذه الجمهورية . ونتمنى أن نتمكن فيما بعد من نشر بعض من نصوص هذا الأدب وذلك استكمالاً للصورة وتحفيزاً للمهتمين بتحقيق التراث بأن يهتموا به وينعموا فى دراسته .

محمد بك قبطانوفيتش لوبوشاك

رائد النهضة الأدبية بين المسلمين

فى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضى ظهر أول جيل من الأدباء المسلمين الذين بدأوا يكتبون بلغتهم الشعبية . وكان على رأسهم الكاتب محمد قبطانوفيتش لوبوشاك الذى يعد الباعث الروحى ورائد النهضة الأدبية بين المسلمين فى البوسنة والهرسك خلال هذه الفترة المتغيرة والحاسمة من تاريخهم . ويرتبط نشاطه الأدبى فى المقام الأول بالعمل على تخليص المسلمين من التأثيرات السلبية وتشجيعهم على التحلى بالأخلاق الإسلامية وبت روح الاستقلالية فيهم مع التركيز على القيم السلافية الخاصة بمنطقتهم .

.. والكاتب محمد قبطانوفيتش مولود فى قرية « فيتيني » بمنطقة البوسنة والهرسك فى عام ١٨٣٩ م . وأنهى دراسته الأولية فى مسقط رأسه ثم واصل دراسته فى المدرسة « الرشيدية » (أى المدرسة الإعدادية) فى موستار حيث تعلم اللغات التركية والعربية والفارسية . واستكمل تعليمه بعد ذلك فى المدرسة الإسلامية الثانوية بقرية « لوبوشكو » . وإبان إقامته بمدينة « ترييني » فى منتصف السبعينيات تصادق مع نائب القنصل النمساوى الذى أثار فى نفسه الاهتمام الأدبى بجمع الإبداعات الشعبية ، وعلى الأخص الأمثال الشعبية .

وخلال فترة الحكم العثمانى لهذه المناطق مارس محمد قبطانوفيتش مختلف المهام الإدارية ، وتولى عدة مناصب بارزة فى الجيش وفى الحياة

المدنية وحصل على عديد من الأوسمة نظير خدماته ونشاطاته . وقام فى أثناء فترة عمله الرسمى بجولة فى أنحاء العالم زار فيها إيطاليا والنمسا والمجر ثم اليونان ومصر وتركيا وبلغاريا ورومانيا . وساهمت هذه الرحلات فى توسيع مداركه وآفاقه وتنمية معارفه الثقافية والأدبية ، ولاشك أنها أثرت - إلى حد ما - على اختياراته السياسية .

وقد أتاحت الفرصة لمحمد قبطانوفيتش ، بإعتباره ممثلاً للشعب فى البرلمان العثمانى ، لأن يتأكد من حتمية انهيار الإدارة العثمانية آنذاك ومن سلبية رجال الشرق فى مواجهة الحضارة الغربية النامية ، ولذا فقد أسرع بالتكيف مع الظروف الجديدة الناشئة عن الحكم النمساوى المجرى بهدف الاستفادة من المكاسب الثقافية والحضارية والدعوة لها والعمل على نشرها بين المسلمين فى البوسنة والهرسك . وشارك نواب الشعب من المناطق المجاورة فى القيام بالعديد من الأنشطة التثقيفية والتعليمية الهادفة إلى إكتساب القيم المحلية وتدعيمها .

ولذا فإن الظهور الفعال والمؤثر لهذا الأديب يعد حاسماً فى سياق الأحداث التاريخية الجارية آنذاك . فقد احتلت الامبراطورية النمساوية المجرية منطقة البوسنة والهرسك فى عام ١٨٧٨ ، وكان هذا حدثاً جليلاً حاسماً أشعر المسلمين بالضياح وأثار بينهم الاضطراب ، وسبب - لفترة من الوقت - توقف الأنشطة الأدبية والثقافية التى كانت قد بدأت تزدهر فى فترة الحكم العثمانى لهذه المنطقة . وفى مثل هذا الوضع النفسى والسياسى والاجتماعى الذى ساد هذه المنطقة انغلق المسلمون على أنفسهم فى مواجهة المستجدات والتأثيرات الخارجية ، ومرت حياتهم الروحية والثقافية بعملية تردد درامية .

وسرعان ما بدأ تنظيم التعليم العام والخاص للمسلمين وأخذت الحياة الثقافية والأدبية تمر بعملية تحول ونضوج من الجمود إلى الحيوية

والنشاط ، ومن العزلة الأدبية والثقافية إلى التفتح والانفتاح على آداب الشعوب المجاورة وعلى الإبداعات الشعبية الأصلية المعبرة عن شخصية الشعب . وتجلت آنذاك أهمية الأنشطة الأدبية وقوة الكلمة المكتوبة وتأثيرها العميق على القراء بهدف أن تعيد الإنسان إلى ذاته ورشده وأن توقفه من سبلاته وتشفى ظمأه الروحي الثقافي ، وأن تشعره فى النهاية بقوته الذاتية من أجل مجابهة الاحتلال للنمساوى الغاشم .

ويزيد من أهمية النشاط الأدبي لمحمد قبطانوفيتش ودوره الريادى فى هذا المضمار أنه استعرض وأوجز وركز فى مؤلفاته على تجارب وانجازات الإبداع الأدبى للمسلمين قبل الاحتلال ، وكذلك على الروح الشعبية الإسلامية . وسعى فى الوقت نفسه إلى شق مسارات جديدة للإبداع ، وإلى الاستفادة من العنصر السلافى الجنوبى الذى يتمتع به المسلمون فى هذه المنطقة ، وإلى التعاون مع الشعوب الأخرى المجاورة المتحدثة بلغتهم .

وفى هذه الظروف الخاصة والتميزة بالنسبة للمسلمين فى منطقة البوسنة والهرسك أصدر محمد قبطانوفيتش فى عام ١٨٨٤ كتابه الأول « رسالة الأخلاق » وهو درس فى المملىك الجميل والمملىك القبيح . وكتب المؤلف على غلاف الكتاب أنه أعد هذه الرسالة للشباب المسلم فى البوسنة والهرسك وزينها بالأمثال الشعبية المحلية والعربية المجلس التعليمى الإسلامى لمنطقة سرايفو ، ووافق عليها رئيس العلماء (أى رئيس المسلمين فى هذه المنطقة) ، وطُبعت فى سرايفو فى عام ١٣٠٠ هـ . (١٨٨٣ م .) على نفقة صندوق العلوم لمنطقة سرايفو . وبلغ عدد صفحات الرسالة اثنتين وثلاثين صفحة .

ولم تتم كتابة اسم المؤلف على غلاف الكتاب وكأنه بدون مؤلف ، ولكن من المؤكد أن الكتاب أعده للنشر محمد بك قبطانوفيتش واستند

فى ذلك إلى كئب مماثلة جرى طبعها باللغة التركية من قبل . وتأكدت هذه المعلومة بعد تقرير استخدام رسالة الأخلاق ككتاب مدرسى فى الكئاتب الإسلامية فى تلك المنطقة .

وشرح المؤلف فى مقدمة كتابه الغرض الذى هدف إليه والمضمون الذى سعى إليه قائلاً : « يتميز الإنسان عن الحيوان بالمعرفة والعقل والفكر ونطق الكلام . ولا يصل العقل البشرى إلى الكمال إلا بتعلم الأمور غير المعروفة من الأشخاص المتعلمين ومن الكتب ، ولا يتم سمو البشرية إلا بتعلى الإنسان بالنبل .

وبشكل متتابع تم عرض المضمون الأساسى لهذه الرسالة من خلال مجموعة من الدروس والمواظ والتعليقات ، وهى كلها مرتبطة بأفكار محددة ذات طابع إسلامى وأخلاقى وتثقيفى تعليمى ، وتتسم بالإنسانية والنبل . وكل كلمة فى الرسالة وكل حرف منها يهدف إلى رفع الروح المعنوية وإلى الوصول للقراء إلى الكمال الخلقى .

ولا يمكننا على الإطلاق أن نعتبر « رسالة الأخلاق » نقاشاً نظرياً مخصاً ، بل هى على العكس من ذلك تعد مرجعاً عملياً للمتطلبات المتعلقة بحسن تربية الأطفال والصغار بوجه عام . وقد عرض الكاتب الدروس فى هذه الرسالة بأسلوب عملى واقعى واضح ومباشر ، ويدوح عقلانية تتفق مع مضمون وروح المثل الشعبى . وقام المؤلف بتبسيط تعريفات الفضائل والدروس المستفادة منها مستنداً فى ذلك إلى قواعد الأخلاق التقليدية والإنسانية العامة ، ووضع لنا على هذا النحو تصوراً عاماً للنبل والإنسانية والأدب .

وفى هذا الإطار الشامل من الأخلاق السامية يمكننا أن نؤكد أيضاً أن الكاتب لم يهدف من رسالته إلى توضيح ما يصح وما لا يصح من المواقف والأمور ، وإنما سعى فى المقام الأول إلى أن تصبح الدروس

والعبر الناجمة عن السلوك الجميل جزءاً لا يتجزأ من وعى الصغير وقاعدة صلبة تقوم عليها عاداته في الحياة . ولاشك أن محمد قبطانوفيتش تعدد استخدام الأمثال الشعبية لأنها تؤثر على الصغار تأثيراً تربوياً مقنعاً . وهدفه النهائي من كل هذا هو أن ينمى عندهم الإحساس بالحب نحو الأشياء الجميلة ، وأن يعمق في نفوسهم الإحساس بالكراهية تجاه كل ما لا يصح . وهذا بالطبع يعكس الحس التربوي المتعاطف لدى محمد قبطانوفيتش .

وتشتمل « رسالة الأخلاق » على أربعة وثلاثين مفهوماً سجل الكاتب أسماءها باللغتين المحلية والتركية وهي : العبادة والعلم والرعاية والكتب والتنمية والنفاق والغيرة والإضرار والتكبر والحمد والتسكع والحيلة وقلة الحياء والسخرية والسباب والكلام القبيح والسرفعة والعجز عن الكلام والتحقير والحقد والضعفينة والصداقة والوفاء وحسن القرين والمجلة والعناد والنظافة والسخاء والبخل وتقديم العون والشفقة وحفظ الصحة والألفة والأدب والاحترام وحقوق الأخوة والعفة والحمية ورعاية حقوق الألفة .

وقد أجمع النقاد آراءهم على أنه لا يوجد في هذه المفاهيم ما هو زائد أو غير ضروري ، ويمكن فحسب ملاحظة اختفاء بعض المفاهيم التي تشغل اهتمام المربي والمعلم في زماننا الحالي والتي تحتل مكاناً هاماً في تربية الصغار في وقتنا الراهن . ومما لا شك فيه أن بعض هذه المفاهيم كان موجوداً آنذاك إلا أن محمد قبطانوفيتش تغاضى عنه لأسباب تكتيكية وتربوية بحتة ، ، ويعمل ذلك في نهاية رسالته بقوله : « ويمكن أيضاً إضافة نصائح جيدة عن الطباع الحسنة وعن الكمال ، إلا أن هذا سيكون عسيراً على الصغار أكثر من اللازم في تعلمه وحفظه » .

ومما لا ريب فيه أن هذا دليل آخر على تمتع الكاتب بالحس التربوي الرفيع ، وذلك لأن رجال التربية يشيرون على الدوام في الوقت الحالي

إلى العواقب السلبية التي تنجم عن انقراض عبء الصغار بالدروس
والمواعظ .

ولم يفقد العديد من المفاهيم المذكورة في « رسالة الأخلاق » فعاليتها
حتى في عصرنا الحالي ، بل ومازال يحتل المرتبة الأولى في قائمة
اهتمامات التربويين . والاختلاف بين عصرها وعصرنا يتمثل فحسب في
تغيير ترتيب الأولويات بالنسبة لبعض هذه المفاهيم . إلا أنه من الواضح
بالنسبة لأي قارئ أن كل هذه النصائح والدروس والمفاهيم ترتبط ببعضها
وتتشابك فيما بينها ، وهي كلها لا تخدم إلا هدفاً تربوياً وأخلاقياً واحداً
وهو بناء شخصية الطفل ، وذلك لأنه عن طريق التربية والتعليم يتحول
الصغير إلى إنسان نبيل صادق ، قوى في خلقه وجسمه ، مزود بالثقافة
الواسعة ومتسم بالفضائل السامية .

ومن الطبيعي أن هذا هو الإنسان النموذجي الذي كان المجتمع آنذاك
في حاجة إليه . وإن نبالغ إذا قلنا أنه نموذج مطلوب أيضاً في المجتمعات
الحالية . وكل هذا يؤكد أن « رسالة الأخلاق » تتضمن قيماً إسلامية تتسم
بصفة الدوام ، وهذا المضمون جعل هذه الرسالة تدخل في نطاق التراث
الإسلامي الثقافي التربوي لمنطقة البوسنة والهرسك .

ومن حديثه عن العبادة ، وهو موضوعه الأول في « رسالة
الأخلاق » ، يمكن استنتاج أن الإنسان ليس مخلوقاً سلبياً يطيع طاعة
عمياء وينتظر من الله جل شأنه حلولاً لكل شيء . بل على العكس يعتبره
مؤلفها مبدعاً صانعاً لمساعدته . إن الله - كما يؤكد المؤلف - خالق كل
شيء ، وعلى الإنسان أن يحمده على ذلك وأن يعبد ، يتحتم عليه أيضاً أن
يفعل الخير على الدوام بمنطق العقل والقانون .

ويلى العبادة مباشرة مفهوم العلم . وكما نوهنا فقد ركز الكاتب في
مقدمة رسالته على المعرفة باعتبارها الشيء الوحيد الذي يستحق ويحق

للإنسان أن يمتلكه . واعتبر قبطانوفيتش أن المعرفة هي إحدى الصفات التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان .

ورغم أن المؤلف في تربيته للمفاهيم في « رسالة الأخلاق » يولي العبادة المكان الأول ، إلا أنه يمنح أهمية كبيرة للعلم فيقول : « إن الإنسان يحتاج إلى العلم أكثر من أى شيء آخر » . أى أنه يعتبر العلم قبل كل شيء وفوق كل شيء .

واحتفاظ المرء بعلمه لنفسه فحسب ولنفعه الشخصي فقط يعنى تحويله إلى رأسمال ميت . ولكي لا يحدث ذلك فقد عرف المؤلف جوهر العلم ومعناه ووظيفته بنصيحته التالية : اكتسب العلم بغرض أن تعرف وأن تفعل الخير ، وتعلمه للآخرين ، وبعبارة أخرى فهو يقصد أنه ينبغي وضع العلم في خدمة الإنسان والخير ، ولا بد من الإلتزام بنقله وتعليمه للآخرين .

وركز المؤلف ، في أكثر من مرة في رسالته ، على احترام شخصية الإنسان . وفي هذا المضمار تبرز ، في المقام الأول ، نصيحته للأولاد باحترام الوالدين والمدرس ومعلم الحرفة باعتبارهم من زراع الخير وصناعه . ويلفت النظر بشكل خاص في هذه الرسالة الاحترام الكبير الذي يوليه المؤلف للمدرس والأهمية البالغة التي يمنحها لدوره .

وفي حديثه المفصل عن دور الوالدين والمدرس يخلص المؤلف إلى أن حق المدرس أكثر قنماً من حقوق الوالدين وذلك ببساطة لأن المدرس يعلم التلميذ وتعليمه لا يقود إلا إلى الكمال . والتلميذ يرى في مدرسه صديقاً وزميلاً مخلصاً ، وفي المقابل يرى المدرس في كل تلميذ رجلاً من رجال المستقبل . وهذا التقدير الكبير لشخصية المدرس وهذا التبجيل لعلمه التربوي ، وهو أمر ندر حدوثه في مجال الأدب آنذاك ، يؤكد أن المؤلف كان على إدراك وعى بذلك العنصر التربوي الذي يقول أنه

لا يمكن توقع نجاح ملحوظ إذا كان هناك ولو قليل من التلوثات في العلاقة بين المدرس وتلميذه .

وقد وضع قبطانوفيتش معلم الحرفة والمهنة في مرتبة مساوية للمدرس ، وهذا يعد اعترافاً منه باحترامه له وتقديره لدوره الهام في التعلم المهني حينما يعلم الصغار مهارة العمل باليد ، ويعد أيضاً في الآونة نفسها تعبيراً من المؤلف عن احترامه للعمل اليدوي بوجه عام . ومما لا شك فيه أن مثل هذه التربية الصحيحة للصغار تساعد على تقييم الأعمال اليدوية والحرف بنفس المعايير التي يقاس بها النشاط الثقافي والأدبي وغيره من الأنشطة .

وكانت الشعوب بالبوسنة والهرسك قد تعرضت لمختلف المحن في الفترة التي أعد فيها قبطانوفيتش ونشر « رسالة الأخلاق » . وفي مثل هذه الظروف ساءت أحوال الطب والعلاج والوعي الصحي . وفي مثل هذا الوضع من التخلف الثقافي كان من المحتم توقع رواج الأوهام والخرافات وما ينجم عنها من عواقب . وعلى سبيل المثال بدلاً من استخدام الأدوية والعقاقير الطبية المناسبة كان يتم من أجل الحفاظ على الصحة وعلاج الأمراض اللجوء إلى الخرافات وإلى مختلف ألوان البدع والإعتقادات والوسائل التي لا تمت بأية صلة إلى الطب وليست لها أية قيمة علمية وعملية . بل على العكس تعرض صحة الإنسان للخطر في أغلب الأحوال .

وبسبب هذه الملاحظات عالج قبطانوفيتش في رسالته موضوع حفظ الصحة بشيء من التفصيل والاسهاب بل واعتذر عن عدم امكانيته ذكر المزيد من التفاصيل نظراً لضيق مساحة الكتاب . والمهم أنه نوه إلى عدم اعترافه إلا بالأدوية كوسيلة مضمونة للحفاظ على الصحة . وأضاف أنه لا يعترف إلا بالأدوية التي يقوم بإعدادها الصيادلة المتخصصون وكل

ما عدا ذلك فهو مرفوض . ولا يمكن في هذا المضمار إنكار الحقيقة القائلة بأن النظرة الواعية لمحمد قبطانوفيتش بشأن الحفاظ على الصحة والواردة بـ « رسالة الأخلاق » قد أثرت تأثيراً إيجابياً طيباً على نشر الوعي الصحي في منطقة البوسنة .

ومن المشكلات المهمة التي عالجها قبطانوفيتش في رسالته الأخلاقية الإسلامية عبارات السب ، وهي مشكلة لها أهمية خاصة بالنسبة للمجتمع آنذاك حيث تكرر استخدامها . وبذلك ارتبطت ارتباطاً عضوياً بالقاموس اليومي للمواطن واكتسبت نوعاً من الشرعية والحق المدني ، بل إن بعض الأدباء عمد إلى استخدامها وإدراجها في أعماله الأدبية . ووصل الأمر إلى حد أن الصغار فقدوا الإحساس بقبحه عبارات السب وأنها تحط من كبرياء الإنسان .

ولا شك أن معالجته لمثل هذه المشاكل تزيد من قيمة رسالته التي حذر فيها منذ سبع ومائة من السنين تحذيراً مكثفاً من تلك الظواهر السلبية التي نخرت في عظام المجتمع آنذاك ، وأثر بذلك تأثيراً إيجابياً على تربية الأجيال التالية ، ولا سيما أن المواقف التربوية التي تطرحها هذه الرسالة الإسلامية تهدف أولاً وقبل كل شيء إلى جعل كل مواطن إنساناً كاملاً .

لقد كان الأديب محمد قبطانوفيتش الوحيد بين مسلمي البوسنة والهرسك الذي لم يستسلم لليأس وإنما دعا إخوانه إلى العمل وإلى التحرك وبذل الجهد ، وتمكن عن طريق القوة الصالحة والكلمة المقنعة أن يبين لهم الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يسلكوه .

ومن المؤكد أن « رسالة الأخلاق » تعد كتاباً مدرسياً مفيداً ومرجعاً تربوياً تعليمياً مهماً في الأخلاق الإسلامية في البوسنة والهرسك . وقام هذا الكتاب بمهمة ووظيفة نبيلتين وساهم في تربية الصغار وفي تقويم الكبار . واستحق الكتاب ، بشكله هذا أن يكون موجوداً في كل منزل بوسني ، كما استحق مؤلفه المزيد من التكريم والتبجيل .

والكتاب الثانى المهم الذى يمثل علامة مضيئة أخرى على طريق البحث الروحى والنهضة الأدبية ينتهج المنهج التعليمى الأخلاقى نفسه . إنه كتاب « الكنز الشعبى » الذى صدرت الطبعة الأولى منه فى عام ١٨٨٧م . على نفقة المؤلف . ويشتمل الجزء الأكبر من الكتاب على مختارات من الأمثال الشعبية والحكم المأثورة مصحوبة فى بعض الأماكن بتوضيحات وتنويهات ، ويتضمن بعض الطرائف الشعبية التى انبثقت عنها الأمثال الشعبية باعتبارها خلاصة مأثورة . ويحتوى الكتاب كذلك بعضاً من القصائد الشعبية من الأديب « الهاميدو » (الأديب الأعجمى) وهو أديب مكتوب بحروف عربية وباللغة المحلية ، ويليه مجموعة من الأمثال العربية والتركية والفارسية المترجمة .

وفى مقدمة كتاب « الكنز الشعبى » يذكر المؤلف بأسلوب تواضع أدباء الشرق الدوافع الجمالية والثقافية والأدبية والاجتماعية الكامنة وراء إصداره لمثل هذا الكتاب ، والأهداف الحميمة التى أراد أن يحققها بنشر مثل هذا العمل الذى ألفه إكراماً لبني جنسه ولوطنه الحبيب .

ويحكى لنا المؤلف فى مقدمة هذا الكتاب حكاية طريفة عن النملة التى أصرت بالرغم من صغرها على الذهاب فى رحلة إلى الكعبة الشريفة مع علمها الأكيد بأنه لا يمكنها الوصول إلى هناك ، ولكنها لا ترغب فى شئ إلا فى أن توجد على هذا الطريق المقدس . ويعقب المؤلف على هذه الحكاية بقوله : « وهذا تقريباً هو نفس حالى مع هذا الكتاب » ، فأنا أيضاً أعلم تمام العلم أننى لم أبلغ بعد الدرجة التى يمكننى معها أن أكتب وأنشر شيئاً مهماً ، ولكن رغبتى فقط هى أن أوجد على المساحة الأدبية ولذا فقد توجهت لجمع هذا الكنز الشعبى .

إن هذه الحكاية الرمزية التى أوردتها المؤلف عن عمد فى مقدمة كتابه هذا توضح كل شئ وتقوض كل دعائم النقاش والجدال اللاحق عن أهمية

محمد قبطانوفيتش كأديب وعن القيمة الإبداعية لمؤلفاته الأدبية وذلك لأنه لم يزعم على الإطلاق في كتاباته أنه أديب . وكان على الدوام مدرّكاً تمام الإدراك لأهمية الأعمال الأدبية والثقافية التي قام بها بالنسبة لأدب وثقافة الشعب الذي ينتمى إليه . أما اعتبار بعض النقاد اللاحقين أن هذه الأعمال ليست على قدر كبير من الإبداع الأدبي فهذا جحود كبير في حق هذا الكاتب .

والحقيقة أنه بالنسبة لتاريخ الإبداع الأدبي للمسلمين ولأعمال الأدبية التي أبدعتها أجيال أدياء المسلمين التالية للأديب محمد قبطانوفيتش فإن كتاب « الكنز الشعبي » باعتباره أول مؤلف أدبي خالص يتم نشره باللغة الأم يمثل قاطعة كاملة من الدوافع الفكرية والأخلاقية والثقافية والأدبية والاجتماعية . وقد أراد المؤلف بكتابه هذا أن يقدم في المقام الأول مثالا جميلاً ودفاعاً قوياً للمسلمين من أجل كتابة وإصدار الكتب بلغتهم الأم . وهدفه نابع من معرفته بالأمثال الشعبية بأفكارها المكثفة الموجزة التي صاغها الشعب ، الأفكار التي يمكن أن توجه الإنسان والأجيال في حياتهم وأعمالهم . ويوضح المؤلف هدفه بطريقة أكثر صراحة فيقول : إذا ما تصرف الجميع حسبما تعلمنا أمثالنا وتوجهنا فما لا شك فيه أن كل شيء سيكون جميلاً وظلياً » .

وهذه الكلمات تبين بجلاء سيطرة الخط الأخلاقي التهنيزي على هذا الكتاب بفرض خدمة بنى وطنه وتنمية جهم للإبداعات الشعبية بلغتهم الأم . والأعمال اللاحقة للأدياء المسلمين ، التي اهتمت على أهداف تعليمية وتثقيفية ، كانت نتيجة طبيعية لهذا الكنز الشعبي . وفي نهاية الأمر فقد كان هذا اللون من الأدب يسعى إلى توجيه المسلمين في عهدهم الجديد من الحكم النمساوي المجرى وإلى إرشادهم إلى سبل تقدمهم وتطورهم الروحي .

وفي عام ١٨٩٦م . أصدر محمد قبطانوفيتش كتابه الثاني بعنوان

« الكنز الشرقى » وهو يشتمل على مجموعة (حوالى ٤٤٩٢) من الأمثال والأقوال المأثورة والحكم العربية والتركية والفارسية استقفاها من كتب المبدعين العرب أمثال : الفزالى ، الفيروزى ، العبادى ، الفارابى ، فخر الرازى ، الزمخشري ، أحمد الميدانى ، ابن الجوزى ، ابن رشد وغيرهم من الكتاب الأتراك والفرس .

والمادة مرتبة وفقاً لأفكارها ومضامينها وكذلك وفقاً للأبجدية . وبالإضافة إلى ذلك يحتوى الكتاب على ثمانين مثلاً من الأمثال التى تبدأ بكلمة « من » ، وعدد كبير من الأمثال الأخيرة يتبع الأمثال الشعبية الخاصة بمنطقة البوسنة والهرسك .

وكما يقول بنفسه فقد أراد قبطانوفيتش بكتابه هذا أن يتعرف اليوغسلاف على الآداب الشرقية ، وبالإضافة إلى ذلك يتم تقديم صورة لشعوب الشرق وعرض ظروفها بقصد تحطيم أوهام بنى وطنه بشأن الثقافة الروحية ووجهات النظر الأخلاقية للشرق الإسلامى .

والأسلوب الحر الذى انتهجه المؤلف فى عرض هذه المادة ، وهو الأسلوب نفسه الذى انتهجه فى كتابه « الكنز الشعبى » ، ينطلق من مبدأ أن الثروة الشعبية لأى شعب من الشعوب هى ملكية إنسانية عامة مشتركة . والأهم من ذلك أن تصل المادة إلى هدفها العلى ألا وهو تربية أفراد الشعب عن طريق الأمثال والأقوال المأثورة والحكم التى تعد ثمرة للخبرات الحياتية وللفلسفة العملية . وبعبارة أخرى موجزة : قطف زهرة من كل بستان . ويعقب قبطانوفيتش على هذا قائلاً : « وليس من السىء أننى نقلت وغرست فى بستاننا هذه الزهور المختلفة . وليزين شعبنا العزيز نفسه بهذه الزهور » .

وقد لاقى كتاب « الكنز الشرقى » ترحيباً وقبولاً من جانب النقاد

باعتباره أول كتاب من هذا النوع : ووصف أحد النقاد قبطانوفيتش بأنه أول باحث أدبي من المسلمين يجلب العصر الحديث إلى بني وطنه ، وبأنه حامل الراية والمناضل في الكفاح الحى من أجل الثقافة والتقدم ، وبأنه الزعيم الروحي للمسلمين الحقيقيين مركزاً على نشاطاته من أجل تدعيم الكتابة باللغة الأم ، وعلى حرصه على عدم الفصل بين أخوة الدم واللغة فى الوطن الواحد بسبب اختلاف الأديان . ووصفت إحدى المجالات الكتاب بأنه نجمة جديدة فى سماء الأدب وعلامة مهمة فى التاريخ الأدبي لهذه المنطقة ، وبأنه سيكون له تأثيره البالغ على الأجيال القادمة من الأدياء وتطورها .

لقد شجع هذا الكتاب على التفكير بشكل عملى فى أن الترجمة من الآداب الشرقية تعد مرحلة من مراحل تطور الإبداع الأدبي للمسلمين فى البوسنة والهرسك ، وفى أن المسلمين بإمكانهم القيام بدور الوسيط بين الثقافتين الغربية والشرقية . وفى المرحلة التالية استمر هذا الهدف موجوداً بشكل مستمر وبالتوازي مع المبادرات الرامية إلى خلق إبداع أدبي بلغة الشعب متشبع بالأفكار الإسلامية وبمضامين من حياة المسلمين فى البوسنة والهرسك .

وبنظرة شاملة عامة إلى كل الأنشطة الأدبية التى قام بها الأديب محمد قبطانوفيتش خلال فترة الحكم النمساوى المجرى فإنه بإمكاننا أن نلاحظ الخط التهديبى التثقيفى المستمر الذى ينبع من اهتمامه بتربية الشباب على أساس أنهم يمثلون العنصر الجوهرى الذى يقوم عليه تقدم أى شعب من الشعوب . وأكبر دليل على ذلك هو إعدادة لرسالة فى الأخلاق الإسلامية .

والحقيقة أن اهتمام قبطانوفيتش بأخلاق الشباب هو فى الواقع جزء من اهتمامه الأشمل ببناء شخصية الفرد وانسجامها وتكيفها مع مختلف

المطالب التي تفرضها الحياة على الإنسان . وهذا يفسر على نحو ما تحيزه الدائم للألوان الأدبية الشفاهية التي تجسد حكم الحياة بأكبر شكل من الإيجاز ، أى تحيزه إلى الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة والحكم . كما يفسر سعيه المستمر إلى الوجود فى رحاب أشجار الحضارة الإسلامية مع الاستفادة من تجارب وخبرات الحضارات الأخرى .

عثمان - عزيز (ثنائى أنبى فريد)

عثمان - عزيز هو الاسم الرمزى لثنائى أنبى فريد نشأ فى مدينة موستار والاسم الحقيقى لهذين الأديبين هو عثمان نورى حاجيتش (١٨٦٩ - ١٩٣٧ م.) وإيفان عزيز ميليتشفيتش (١٨٦٨ - ١٩٥٠ م.). ويمثل تعاونهما فى الإبداع الأدبى واتفاقهما الفكرى ورابطة القلم بينهما نموذجاً فريداً فى الألب بالبويسنة والهرسك وربما فى الألب الأوروبية كذلك . وهذان الكاتبان النبيلان جمعاً بحماس رومانسى و«نون كيشوتى» ، بالمعنى الجميل لهذه الكلمة ، معارفهما وأحاسيسهما وأخضعنا نفسيهما لهذا الاسم المستعار « عثمان - عزيز » ومضيا فى طريقهما صوب الأبدية . وقد ظل اسمهما مسجلاً فى الألب بحروف من ذهب بسبب إصدارهما لأول رواية فى البويسنة والهرسك فى عام ١٨٩٥ ويسبب مزجهما للأصايب الرومانسية والواقعية والطبيعية فى تصوير مدينة موستار وأهلها فى فترة من أخطر فترات تاريخها .

والكاتب عثمان نورى يجيد اللغة العربية وله الكثير من الترجمات من العربية ومن أهمها ترجمته لكتاب عن محمد عليه الصلاة والسلام تأليف أبو الفدا وقد صدر فى سراييفو فى عام ١٩٠٣ ، كما اشترك كذلك فى ترجمة قصص ألف ليلة وليلة . ومن كتبه الدينية المشهورة « الإسلام والثقافة » (فى زغرب ١٨٩٤) و « محمد والقرآن » الذى جرى طبعه مرتين (فى عامى ١٩٣١ و ١٩٦٨) .

أما الكاتب إيفان عزيز فقد درس الحقوق فى جامعة فيينا وكان محرراً

ومؤسساً لبعض المجلات القانونية فى زغرب . وقد اشترك مع عثمان نورى فى إصدار روايتى « بلا أمل » (فى عام ١٨٩٥) و « بلا هدف » (فى عام ١٨٩٧) ، ومجموعة قصصية عن الحياة فى البوسنة والهرسك فى عام ١٨٩٨ . وفى هذه القصص كان هذان الكاتبان لا يحاولان إحياء بقايا الأساليب الرومانسية بل اجتهدا فى أن يرفعا صوتيهما بقدر الإمكان من أجل إصلاح بيئتهما .

ورواية « بلا أمل » تصور محنة الشعب واحتقاره للسلطات الجديدة ، ويسيطر على هذه الرواية التكنيك الواقعى ، الأسود والأبيض ، وهو يتشابه مع أيديولوجية الكاتبين ومع اتجاههما الأخلاقى التعليمى . وتكتظ الرواية بمختلف الأحداث والمصائر وبينما نجد أصحاب السلطة النمساويين والمجريين فى جانب ، نجد فى الجانب الآخر أفراد الشعب وهم يتناقلون الحكايات الهامسة عن ثوار الهرسك . ومن ناحية أخرى نجد « عطل أغا » بقود أفراد عائلته وأصدقاءه ويوجههم صوب الزمن القديم ، بينما « عمر أفندى » يتقبل الأوضاع الجديدة والعهد الجديد فى تنبه وتيقظ ويقدر كبير من التفهم .

وفى هذه الرواية يستعرض الكاتبان أهل المدينة والأغوات والبكرات السابقين وقرء الفلاحين الذين يختبئون فى المناطق الصخرية بالهرسك تجنباً للسلطات الجديدة وخوفاً من جيروت أفرادها ، ثم بعد ذلك يمضون ويتكيفون مع التيار كما يعرفون ويقدررون . ويضع المؤلفان مجابهة متعمدة بين « عطل أغا » المكتتب وبين « عمر أفندى » فيما يتعلق بوجهات نظرهما فى الدنيا وفى الحياة ، فعمر أفندى رجل مستعد لقبول الحلول الوسط مع السلطات الجديدة وهو يدعو لتعليم المسلمين وتأهيلهم ويؤيد الأساليب الجديدة فى الكتابة ملدام لا يوجد أى مخرج آخر سوى ذلك . أما « عطل أغا » فهو رجل متعصب لدينه ورجعى ولذا فهو على الدوام مكتئب النفس مضطرب البال ومصاب بعدم المبالاة ، وهو يرفض

رفضاً قاطعاً أن يذهب ابنه إلى المدارس وأن يخوض فيما لم يخضه أبوه .
ويمرور الزمن يصاب الابن بخيبة أمل ويكثر من الشراب ولعب القمار
ويمضى فى الطريق الذى يقود إلى الهلاك الحتمى ويصل به الأمر إلى حد
الحكم عليه بعقوبة الأشغال الشاقة .

وهناك علاقة ود واضحة بين المؤلفين وبين القارئ فهما يعتبرانه أخصاً
لهما وأنه هو الإنسان الذى يعملان من أجله . ويحكيان للقارئ فى
قصصهما عن حياة الناس ، كبارهم وصغارهم ، فى مختلف المواقف
والظروف . وهما يمتدحان سكان مدينة موستار - وهى بلدتهما -
ويعتقدان أنهم أكثر الناس حكمة فى العالم ويرفعانهم إلى مصاف النجوم ثم
يهبطان بهم بطريقة كوميدية ساخرة ويوجهان إليهم أمر الانتقادات
والذعها .

ويستعرض المؤلفان فى رواية « بلا هدف » معظم المشاكل التى
كانت تجابه المسلمين فى تلك المنطقة آنذاك . وكما نعلم فقد كانت هذه
المنطقة تابعة لحكم الأتراك العثمانيين لفترة تربو على خمسمائة عام ثم
أصبحت تابعة لحكم الامبراطورية النمساوية . وهناك بلا شك فارق كبير
بين الحضارتين والثقافتين ، ومن هنا نشأ صراع روحى فريد بين الإسلام
كدين وبين موجة الثقافة الغربية التى أخذت تمتد إلى هذه المنطقة . ويقوم
المؤلفان بكل صراحة وجلاء بتعرية المجتمع وأفراده والتعمق فى أغوار
مشاكلهم بهدف البحث عن الدواء الناجع . وقد وجد المؤلفان أن الجيل
الحالى من الشباب والذى يمثلته الشاب عادل تعفنت أعماقه وفسدت جذوره
وذلك نتيجة لنشأته فى بيئة فاسدة غير صالحة وتعلمه فى مدارس
لا تخرج إلا كتائب من الماجنين والفسقة ودعاة الظلام يقفون حاجزاً
ومانعاً أمام كل تقدم ونهضة لبنى وطنهم ، وليس لهم من هدف فى النهاية
إلا إهلاك وتحطيم شعوبهم . وليس هناك أمل فى إصلاح هذا الجيل الفاسد
وليس هناك أى نفع أو خير يرجى منه .

ولكن لا يأمن مع الحياة ، ومن أجل هذا يستعرض المؤلفان حلولاً لمشكلات مجتمعهما ، ومن هذه الحلول التطبيق السليم للإسلام ذلك لأن المسلمين انذاك كانوا يجهلون أسس ومضمون الإسلام ولا يعرفون أخلاق الإسلام وفضائله . والسبب في ذلك راجع في الأساس إلى القائمين على أمر الإسلام في هذه المنطقة وإلى من يعلمونه للناس خطأ لأنهم أيضاً يجهلون الإسلام وتعاليمه . ويوحى المؤلفان في روايتهما إلى القائمين على تعليم الدين الإسلامي للشعب بأن « تعليم الشعب أمر عسير ولكنه ممتع » وأنه يلزم لذلك الكثير من الجهد والوقت ولكن هذا الأمر لا ينبغي أن يوقف السعي بل يتحتم أن يزيد من حماس العاملين في مجال التنوير والتثقيف . ومن الطريف أن يطلب المؤلفان في روايتهما هذه الصادرة في أواخر القرن التاسع عشر من المسلمين ألا يقبلوا من الثقافة الغربية إلا كل ما هو طيب وجيد ، وهذا الحل وحده هو الذي بإمكانه أن ينقذ وينتشل مسلمي البوسنة والهرسك مما هم فيه من ضلال وجهل .

ومن القضايا المهمة التي أثّرت على صفحات هذه الرواية قضية العلاقة بين الإسلام وطلب العلم . ويؤكد المؤلفان على لسان أحد الأبطال أن الإسلام يأمر ويحض على طلب العلم والمعرفة أينما كانا ، وأن جماعة الشر هي التي تدنس على الإسلام رفضه للعلم والتعليم وذلك لأنها تريد أن يظل أفراد الشعب في حالة من الظلام والجهل . وفي هذا المضمار يدعو المؤلفان المسلمين إلى العمل بمزيد من الحماس والتضحية من أجل إبعاد الشعب ، وسيكون عملهم وجهدهم هذا أمام العالم كله دليلاً واضحاً وشهادة بينة على أن الإسلام هو دين الحضارة والثقافة والنقد . والعمل من أجل إبعاد الشعب يعني أن يبذل المرء كل ما في وسعه للنهوض به ثقافياً والعمل على إحساسه بالرضى وتمتعه بالرقابية وضمان أمانه وتطوره النامي .

ومن أهم القضايا المثارة في هذه الرواية كذلك قضية الإسلام والقومية

وهي قضية ذات طبيعة خاصة نظراً لتعدد القوميات والديانات في هذه المنطقة . وبناء على المناقشة المستفيضة بين شخصيات هذه الرواية حول هذا الموضوع يمكننا أن نقرر بأن الكاتبين يعتقدان أن الإسلام لا يمنع أحداً من التمسك بقوميته ، أى أن يكون مسلماً فرنسياً أو ألمانياً أو سويدياً حسب ماضيه ودمه ولغته ، وذلك لأن الإسلام ليس ديناً محصوراً ضيقاً .

وفي توضيحهما لأفكارهما التنويرية التثقيفية يتعرض الكاتبان في كثير من الأحيان للحديث باستفاضة عن العرب وعن لغتهم ودينهم وثقافتهم وحضارتهم ، وهما يتحدثان من منطلق الدفاع عن الإسلام ضد كل ما هو مدموس عليه من الجهلة ومن المتاجرين به . ويردان الحق إلى أصحابه حينما يعترفان في معرض المقارنة بين الآداب الأجنبية والآداب العربى بأن كل هذه المعارف مأخوذة عن العرب .

الدغل الأخضر

تعد رواية « الدغل الأخضر » ، الصادرة في عام ١٨٩٨ ، من أشهر الروايات التي أبدعها الكاتب البوسني أدهم مولى عبيدتيش (١٨٦٤ - ١٩٥٤) . وإذا تم الربط بين أحداث هذه الرواية وبين وقائع حياة مؤلفها فسيحصل المرء على انطباع لا يجد منه فكاكاً بأن هذه الرواية ليست إلا تجربة واقعية صادقة حدثت للمؤلف وخاضها بتفاصيلها الدقيقة . وهذا يضيف على هذه الرواية أهمية خاصة .

وإذا تصفحنا الأوراق الخاصة بالسيرة الذاتية للأديب أدهم مولى عبيدتيش فسنجد فيها أنه مولود في بلدة ماجلاي بجمهورية البوسنة التي كانت واقعة تحت الحكم العثماني آنذاك . وقد التحق في مسقط رأسه « بالكتاب » ثم بالمدرسة الرشيدية وهي نوع من المدارس الثانوية للعاملين في مجال القضاء . وبها درس أدهم القرآن ونحو وصرف اللغتين التركية والعربية . وبعد ذلك أنهى دراسته بمدرسة المعلمين . ومارس في سرايفو مختلف الأعمال في مجال التدريس والتفتيش .

واشترك في عام ١٨٩١ في تحرير صحيفة « البشلق » أي البوسني وهي الصحيفة السياسية التي أسسها الأديب محمد بك قبطانوفيتش لوبوشاك من أجل المسلمين . وعلاوة على ذلك كان أدهم محرر ويشترك في تحرير العديد من الصحف والمجلات . ثم تعاون مع زملائه من الأدباء المسلمين في إصدار مجلة « بيهار » (أي الكأس) ، وهي أول مجلة أدبية للمسلمين ، وترأس تحريرها لمدة ست سنوات . وفي عام ١٩٠٣ اشترك في تأسيس جمعية « الغيرة » وهي أول جمعية ثقافية إسلامية ،

وفيما بعد ترأس تحرير الصحيفة الصادرة بنفس الاسم . ومنذ عام ١٩٢٣ وحتى عام ١٩٢٨ وهو يعمل عضواً بالبرلمان . واستمر في الاشتراك في إصدار وتحرير الصحف الهادفة إلى تنوير المسلمين وتثقيفهم .

وكتب الأديب أدهم الرواية والقصة وبعض النصوص المسرحية كما كتب العديد من المقالات التربوية والدراسات . وهو يعد أول كاتب من المسلمين يكتب أدب الرحلات في صحيفة « للشئق » في عام ١٨٩٣ . ومن أشهر أعماله الأدبية : قصص فكاهية (في ١٨٩٣) ، رواية « الدغل الأخضر » (في ١٨٩٨) ، مجموعة قصصية بعنوان « على شاطئ البوسنة » (في ١٩٠٠) ، رواية « الأزمنة الجديدة » (في عام ١٩١٤) وغيرها .

ويمكن القول بأن الأعمال الأدبية لأدهم مولى عبيدنيش ليست إلا انعكاساً للظروف الأدبية المحلية ، وإبداعاته النثرية تنبع من تقاليد الحكايات الشعبية للمسلمين ومن ملاحظات الأديب الشخصية بشأن الحياة العصرية ، وفي كتاباته يقتصر على الموضوعات الراهنة للتطور الاجتماعي والثقافي للمسلمين في البوسنة والهرسك ولا يعالج غيرها . ومن هنا فإن أعماله الأدبية تجمع بين الماضي والحاضر وبين التقاليد العريقة والواقع الراهن للمسلمين في منطقة البوسنة والهرسك إبان وقوعها تحت حكم الامبراطورية النمساوية المجرية . إلا أنه كان يتعاش مع كل هذا تعاشياً شخصياً وكأنه جزء لا يتجزأ من حياته ومصيره . وكتب أدهم عن هذا الاحتلال في سيرته الذاتية : « السماء نظلم والحياة تتوقف ويأتى نأ عن قنوم النمساويين ويكون وقعه كوقع حدوث ثقب في سفينة فتأخذ في الفرق وكان سكانها في نزوة بهجتهم . وقبل ذلك كان هناك إحساس بوجود كابوس في الجو ، وتملك القلق كل شخص ناضج وتم التخمين بحلول حدث جم » .

ورواية « الدغل الأخضر » تتحدث عن احتلال الجيش النمساوي ،

وهى تجربة خاضها المؤلف شخصياً فأصبحت بذلك تجربة ذاتية موضوعية ، تجربة محزنة فى جوهرها وذات مدى بعيد باعتبارها تحولاً وانتقالاً من حضارة قديمة إلى حضارة حديثة واكتشافاً لأفق روحى جديد . وقد استطاع المؤلف أن يعالج هذه التجربة معالجة غاية فى الواقعية فى روايته وأن يطورها تطويراً فنياً مؤثراً .

ومن المؤكد أن الأديب أدهم كان يهدف بأعماله الأدبية إلى أن يقدم لبنى وطنه من المسلمين توجيهات غير مباشرة تتعلق بشئون الحياة وبالأحداث الجارية خلال العهد النمساوى المجرى الجديد فى البوسنة حيث تعاقبت الأجيال وتغير الناس وتبدل أسلوب الحياة واختلفت النظرة إلى المستقبل . وركز الكاتب فى أعماله الأدبية على ضرورة حسن التصرف والتكيف مع الظروف والأحوال الجديدة وبذل المزيد من الجهد من أجل ألا يصاب الوضع الثقافى الاقتصادى والاجتماعى للمرأة بتخلف فى مواجهة إصلاح الأمور والعادات . وهى كلها أمور كانت تتمشى تماماً مع خط الأيديولوجية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التى كانت تدعو لها المجلات والصحف الأدبية بهدف الحفاظ على الوضع الاجتماعى وعلى ممتلكات المسلمين فى البوسنة والهرسك وتأمين حياتهم واستمرار تقدمهم .

وتحكى رواية « الدغل الأخضر » عن وقائع احتلال الجيش النمساوى لمدينة ماجلاى من خلال قصة عن عائلة عمر أفندى الذى ترك وراءه زوجته وأولاده الثلاثة : محمد وأحمد وعلى . ويذكر النقاد أن المؤلف فى وصفه لزوجته عمر أفندى وأبنائها سجل العديد من المعلومات عن عائلته الشخصية ، بينما يؤكدون أن شخصية الابن الأصغر ، على ، ما هى إلا شخصية المؤلف نفسه .

وقد اتخذ الأديب أدهم من بعض تفاصيل حياته وذكرياته مادة

موضوعية لأحداث روايته وربما أوجزها في أفكار طورها إلى مواقف ونظريات تتشابه في عمله الأدبي كله . وهذا يدلنا على صدق المؤلف وعلى خوضه لهذه المواقف في الحياة وعلى معرفته لأبطال الرواية ولأوهامهم وآمالهم ولعثراتهم وتجاهلاتهم . ويبدوننا في بعض الأحيان أنه يريد أن يقدم موعظة معينة أو أنه يدعو لفكرة من الأفكار . ومن الجلى أن المؤلف قد خاض غمار تجربة الاحتلال النمساوى لمدينة ماجلاى بشكل مأساوى وكأنها مصيبة كبيرة أصابت شعبه ويمكن أن تصيب أى شعب وأى بلد . كما أن المؤلف أبرز من جوانب سيرته الذاتية تقديمه للعمل والتعليم والتعلم فنجد أن عليا - الذى يقوم بدور المؤلف - هو الأول دائماً على فرقائه في العلم وأنه كان أول من تعلم لغة المحتل وأول من رحل عن بلده طلباً للامتزاة من العلم .

ومن الطريف أنه من الشخصيات المهمة في هذه الرواية شخصية عربية لم يحدد المؤلف له اسماً ، وكان يملك مقهى صغيراً يسمى بمقهى العربى . وقد حضر هذا العربى إلى بلدة ما جلاى مع سيده الذى أتى به من مكة ، وبعد وفاته أصبح العربى حراً وفتح هذا المقهى الذى كان الشباب يستمتعون فيه بأوقاتهم . ورغم فقر هذا العربى فقد حطم كل ما في مقهاه من معدات وأدوات وذهب مع أحمد ، الشخصية الرئيسية في الرواية ، لى يكافح مع شعب مدينة ماجلاى ضد المحتل النمساوى . واشترك العربى في هذا النضال ببسالة وشجاعة ، وكان على الدوام في المقدمة إلى جانب الراية المرفوعة رغم أن المعارك كانت عنيفة . وفي الختام فقد العربى حياته في كفاحه البطولى المسميت ضد المحتل الشرس ورغم هرب الكثيرين من أهل البلدة نفسها .

وقد كانت هناك محاولات عديدة لدراسة ظاهرة ظهور شخصية العربى في هذه الرواية . ويمكننا القول أنه إذا كان النقاد قد أثبتوا الكثير من جوانب السيرة الذاتية للمؤلف في روايته هذه إلا أنهم لم يتمكنوا

من إثبات شخصية العربي في الواقع . وأنه ليصعب في الوقت الحالي التثبت من هذه الشخصية نظراً لمضى زمن طويل على هذه الأحداث . ولكن إذا نظرنا نظرة متأنية إلى تاريخ حياة المؤلف وإلى أعماله الأدبية أمكننا أن نستشف احترامه للعرب وللفتهم وقرانهم وإسلامهم وإلى كل ما يمت لهم بصلة . ومن ثم يمكننا أن نستنتج أن ظهور شخصية العربي بدون اسم معين في روايته هذه يحمل في طياته رمزاً للكفاح البطولي المستمر ضد المحتل النمساوي المجري . وقد أثبت العربي ذلك بأفعاله فقد كان قلباً وروحاً في جانب الشعب وكافح معه ورافق بطل الرواية كظله الذي لا ينفصل ، وحارباً معاً بشراسة وشجاعة ضد المحتل إلى أن ضحى العربي بحياته في النهاية من أجل استقلال بلده ماجلاي .

وقد حاول الأديب أدهم في روايته الأخيرة « الأزمنة الجديدة » أن يقدم بعض الحلول فيما يتعلق بمشاكل الأرض وزراعتها ، وهو بذلك يواصل خطه التعليمي البراجماتي . فهو في هذه الرواية يدعو إلى الاهتمام بزراعة الأرض وفلاحتها بطريقة حديثة وذلك عن طريق إحضار الخبراء المتعلمين المتخصصين في مجال الزراعة ، الذين سيطبقون أحدث الأساليب التكنولوجية في زراعة الأرض . وفي هذا المضمار يقول المؤلف على لسان أحد أبطاله : إذا لم تفلح الأرض وتزرعها كما يجب فلإنها كراس المال ستبحث لنفسها عن سيد آخر يقدرها ويستحقها . وواضح هنا التركيز على أن يصبح صاحب الأرض بلا أرضه إذا لم يزرعها بطريقة فنية حديثة ، وقد ساعد على ذلك وجود إشاعات عن احتمال صدور قانون الإصلاح الزراعي في حوالى عام ١٩٠٠ .

وفي عام ١٩٧٣ تم من خلال سلسلة « التراث الثقافي » نشر الأعمال الكاملة للأديب أدهم ومن بينها رواية « الدغل الأخضر » التي أثار الانتباه لا فحسب بطموحاتها الأدبية الكبيرة ، وإنما تلفت النظر

أيضاً بشهادتها الواقعية الأصيلة عن أسلوب الحياة في البوسنة وعن
الوعى التقليدى لسكانها وعن عواقب مجيء النمساويين إليها .

وفى عام ١٩٩٢ نظمت الجمعية الثقافية للمسلمين المعروفة باسم
« البعث » فى ملجأى أمسية أدبية مخصصة لذكرى الأديب أدهم مولى
عبدىتش ولأعماله الأدبية . وكان المقصود من تنظيم مثل هذه الأمسية هو
رد بعض من الدين لهذا الأديب الذى فعل كل ما فى وسعه من أجل تنبيه
وتنوير وتثقيف بنى وطنه بكل الوسائل الأدبية المتاحة آنذاك ، ومن أهمها
تلك الأفكار الأدبية التى خلفها والتى قامت فى حينها بدور لا يستهان به فى
هذا المضمار .

وجرى الحديث فى هذه الأمسية الأدبية عن أعمال الأديب أدهم وعن
نشاطاته المتعددة فى فترة الانتقال من القرن الماضى إلى القرن الحالى ،
وجرت الإشارة إلى أنه كان شاهداً على انهيار امبراطورية وقيام أخرى
وعلى انبعاث الروح الحديثة فى الحياة التقليدية لجمهورية البوسنة
والهرسك . وركز المتحدثون فى هذه الأمسية على المجال الواسع
لأنشطة الكاتب أدهم بدءاً بالقيام بالعمل التثقيفى المثابر وعلى الأخص بين
المسلمين وبتعليم الفقراء والموهوبين وانتهاء بإصدار بعض الصحف
والمجلات والاشتراك فى تحريرها .

آيات قرآنية فى رواية بوسنية

يعجب المرء حينما يقرأ فى بداية رواية صادرة فى البوسنة والهرسك ومكتوب باللغة الصربوكرواتية البسملة ثم فقرات مختلفة من الآيات القرآنية الكريمة . إنها رواية « الدرويش والموت » التى ألفها الأديب المعروف ميثا (وهى كلمة تدليل لاسم محمد) سليموفيتش (١٩١٠ - ١٩٨٢) . وقد أحدثت هذه الرواية الرائعة دويماً هائلاً اجتاحت الأوساط الأدبية فى البوسنة والهرسك وخارجها فى المنطقة المتحدثة باللغة الصربوكرواتية ، بل وتعداها إلى أقطار أخرى وتلقاها النقاد والقراء ، على حد سواء بحماس منقطع النظير على الرغم من أنها رواية لم تألفها الأوساط الأدبية هناك . فهى رواية تقع أحداثها فى جو إسلامى دينى متميز ، ويتفلسف أبطالها بمعان دينية ليس من الصعب تقصى منابعها فى الآيات القرآنية . ومن أجل هذا وصفت بأنها رواية إسلامية بوسنية .

والشخصية المحورية فى رواية « الدرويش والموت » هو الشيخ أحمد نور الدين ، وهو الذى يروى لنا أحداثها . وهذا الشيخ درويش منذ عشرين عاماً ، وهو شيخ لتكية الطريقة المولوية وهى من أكثر الطرق اتباعاً . وشرف التكية متمثل فى شخصية الشيخ أحمد وبه أصبحت قلعة للدين الإسلامى ، وبنت وكأنها تحمى البلدة من ألوان الشرور المعلومه والمجهولة .

ولم يكن الشيخ أحمد مختالاً بسبب وظيفته الدينية الرفيعة ، ويمقتضاها كان يرى أنه من الحتم عليه أن يحمى نفسه وغيره من الذنوب ،

وأنة إن يتمكن من التخلي عن هذه الحماية لأنه فيم يكون التدين إذا لم تكن هناك خطايا وصعاب يتحتم التغلب عليها ؟

وتعلم الشيخ أحمد في صغره أن يطيع وأن يتحمل المشاق وأن يكرس حياته كلها من أجل الدين . ولم يكن هناك من يفضلته فيما يتعلق بالتمسك بالدين الإسلامى ، وذلك لأنه كان يعرف على الدوام ما ينبغي أن يفعله . وكانت طريقة الدراويش تملئ عليه طريقة سيره وتصرفاته . وكان على علم بأن أصول الدين ليست باليسيرة ، ومع ذلك فلم يكن هناك فى تصرفاته وشغونه ما يتنافى معها . وكانت له أسرة لا يرتبط بها سوى بقرابة الدم ويذكريات مضت وطفولة ظل يجتهد طيلة حياته فى محو آثارها .

وتم إلقاء القبض على أخيه هارون الذى يصغره بخمسة عشر عاماً ، ويتم إيداعه فى سجن القلعة . وترتبك حياة الشيخ أحمد نتيجة لذلك وتتملكه الحيرة ، فليس بإمكانه أن يسمى ما حدث عدلاً أو ظلماً . وتبدأ رحلة عذابه النفسى وذلك لأنه يعقت الظلم ولا يطيق تحمله ويراه علامة على ضعف الحيلة وسوء التدبير ، بل إنه يعتبره أحد السبل التى تدفع الناس إلى ارتكاب الشرور والآثام .

وحينما أذاق رجال السلطة أخاه سوء العذاب أحس بهذا السوط بلهب ظهره ويذميه . وبعد إعماله لفكره أدرك أن معيار رجال السلطة فى الحكم على الأمور كان قاسياً وشديداً وذلك لأنه يعرف أخاه معرفة جيدة ويعلم أنه ليس على إستعداد لإرتكاب المخالفات . ومع ذلك فهو لا يدافع عنه بالقدر الكافى من الدفاع . ولكنه أيضاً لا يؤيد رجال السلطة فى مسلكتهم القاسى تجاه أخيه . وتهيأ له أن الجميع يريدون إلقاء هذا العبء الفادح على كاهله لكى يجبروه ويدفعوه إلى الإفصاح عن موقفه وتحديده .

وتملك الحيرة الشيخ أحمد نور الدين وتنازعه مختلف الأفكار .
وأدرك تمام الإدراك أن انحيازه إلى أحد الطرفين - أى انحيازه إلى أخيه
أو إلى رجال السلطة - لا يعنى إلا هلاكه .

ومن الطريف أن الشيخ أحمد يروى لنا هذه القصة من وجهة نظره
الشخصية وبالتالي فهو ليس مراقباً موضوعياً محايداً ، وإنما يراقب
الأمر من زاوية شاملة متحركة لا تستقر على حال وأصبح موقف الشيخ
أحمد هو موقف الإنسان الذى تعرض وجوده وكيانه للخطر . ولذا فإن
أهمية القيم تتفاوت وتتباين أمام ناظره ، وتنحصر دائرة اهتمامه
بالضرورة فى تلك المشاكل التى تهم حياة الإنسان عموماً ، أى فى مشاكل
الوجود الإنسانى كله . ومن هنا ، كانت هذه الزاوية تعلق فوق الزمان
والمكان وفوق كل التحديدات فى تصويرها للكفاح الأبدى المتواصل بين
الخير والشر ، بين الحقيقة والكذب ، بين السلبية والإيجابية ، بين كل
ما هو أبدى وكل ما هو عابر .

ويعرف الشيخ أحمد من صديقه حسن بالمسبب الرئعى للقبض على
أخيه وإيداعه السجن . لقد كان أخوه يعرف أكثر مما يجب . ومن سوء
حظ أخيه أنه اكتشف لدى القاضى الذى كان يعمل عنده كاتباً موثقاً به
ملفات ومستندات سرية تثبت أن السلطات تقسو فى معاقبة الأشخاص
الذين يفضحونها ويفشون ما يعرفه جميع الناس ويخشون إعلانة . وكانت
تعد لهم مسبقاً المحاضر والتحقيقات واعتراقاتهم المختلفة بجرائم لم
ترتكب ومطلوب إثبات ارتكابهم لها . وكان رجال التحقيق يعرفون سلفاً
ما سيدلى به المتهم وما سيعترف به وما سيؤدى إلى إعدامه . ويبدو أن
شقيقه قد أطلع أحداً على هذه الملفات السرية وربما ذكر له مضمونها أو
ربما ضبط متلبساً والملفات والمستندات معه . ومن المؤكد أن السلطات قد
خشيت افترساح سرها وتبوع أمرها فأمرعت بالزج به فى غيابات
السجن .

ويكتشف الشيخ أحمد مقدار وهمه وجهله بالعالم الذى يعيش فيه وبالأشخاص الذين يدور فى دائرتهم ، ولذا تملكه الكآبة والضيق . ويسعى الشيخ أحمد إلى إخراج أخيه من السجن ولكنه يفاجأ بمعرفة أن شقيقه قد أعدم منذ ثلاثة أيام ، فيهتز كيانه كله وتتبدل شخصيته تبدلاً كاملاً نتيجة معرفته بكل هذه الحقائق الكامنة وراء إعدام أخيه . وتبين بشاعة وقوة الشر الذى يقدر على كل شيء ويحوم فوق حياة الناس لكى يقتنصها . ودفعه ذلك إلى التأمل والتفكير فى علاقة السلطة بالناس .

وتيقن أن السلطة تتربص بالناس وتقل من إمكاناتهم فى السيطرة على الحياة بكل همومها ومشاكلها . وشرع الشيخ أحمد يفكر فى سخافة الحياة وفى الفزع الذى يملك الإنسان ويستولى على جوانحه وسيطر الخوف والفزع على أفكاره وقراراته . وكل هذا بسبب المصير المفجع المفاجيء الذى تعرض له أخوه . ودفعه هذا إلى الإنطواء على نفسه والابتعاد عن الناس . وأحس بأن الزمن أقوى منه ، وبأنه مغروض على الإنسان - سواء أراد أم لم يرد - أن يفقد كل شيء . وفطن إلى أن كل شيء فى هذه الحياة وهذا الزمان يوحى للمرء بأنه يملك ذاته وبأنه حر فيما يفعل ، إلا أن الحقيقة أنه يعيش طوال حياته أسيراً لقوى الظلام التى تثير فى نفسه الإحساس بالذل والاستياء . ويعتصر الألم نفسه لمرارة هذه الحقائق ، فمن المحتم على الإنسان أن يتخلى عن كل ما يحبه ويهواه لأن الخسارة والاحباط لا مفر من حدوثهما . ولا بد أن يتخلى المرء عن الحب حتى لا يفقده وحتى لا يحطمه الآخرون ، ومن الحتم كذلك التخلي عن أية ارتباطات بسبب احتمالات الحزن والحسرة .

وصارت أفكاره وعواطفه مشوهة ووعيه قاتماً ، وحاصرته الوحدة ، وأحس بالضيق لأنه اكتشف أنه يخون مثالياته ومبادئه . لقد كان يحلم بالثورة حتى ينتقم لأخيه ولذا طالب بالسلطة وبالفعل حصل عليها . وحينما أحس بقوتها ونفوذها سرعان ما اصطبغ بلونها ووقع فى فخاخها

إلى أن تجسدت فى شخصيته فوقع بيده على قرار بإعدام صديقه الوحيد ورفيق حياته حسن .

وفى مواجهة مع النفس أحس القاضى أحمد بمدى انحداره المريع ونقززه من مسلكه ومن العالم والحياة والزمان . إلا أن صديقه حسن ينجح بمحض الصدفة فى الهرب من سجنه ، ويعلم القاضى أحمد بذلك ويتغاضى عن الأمر فيأتى عليه هو الآخر الدور فى ملاقة الموت . ويحل النزاع الأخير وتتحول اللحظات الأخيرة من حياته إلى حشرة إلى صرخة بلا معنى ويتوقف ذهنه عن التفكير وتتحدث غريزته من داخله عن حبها وتشبثها بالحياة .

وطوال قراءتك لهذه الرواية لا تفلت من الإحساس بأنك أمام تجربة حقيقية واقعية لهذا الأديب من البوسنة . وهذا هو ما أثاره النقاد أكثر من مرة . ذلك أن الأديب ميسا سليموفيتش كان من خلال عرضه لشخصية أحمد نور الدين وقضيته المتعلقة بإعدام أخيه يعرض جانباً واقعياً من سيرته الذاتية . فقد تم إعدام شقيق سليموفيتش بمعرفة قوات التحرير اليوغسلافية المسماه « البارتيزان » بتهمة سرقة لبعض الأشياء الخاصة بهذه القوات . وكان ميسا يعلم تمام العلم ببراءة أخيه من هذه التهمة .

ويذكر الأديب سليموفيتش أن هذا الحدث الغريب المفجع كان نقطة تحول خطيرة فى حياة جميع أفراد عائلة سليموفيتش وفى حياته هو بشكل خاص . واشتد وقع الصدمة المفاجئة على نفسه لدرجة أنه فكر كثيراً فى استمرار تأييده للثورة ضد الاحتلال ، غير أنه - بعد تفكير عميق - استمر فى وقوفه إلى جانب الثورة اليوغسلافية التى أخذت تلتهم أولادها .

وتملك الأديب سليموفيتش الرغبة فى أن يسجل بالكتابة قصة أخيه ومأساته إلا أن الكلمات كانت تهرب منه وتخونه . ومن ثم قرر أن ينتقى أحداثاً تاريخية قديمة لكى يعبر بها عن فجيرة أخيه دون أن يتمكن أحد

من المقارنة بين الحقيقة وبين الفن لأنه كان يخشى هذه المقارنة ويخاف من عواقبها .

ومن هنا خطرت بباله فكرة هذا الدرويش الذى يقف وحيداً فى مواجهة جميع الشرور ويعيش حياة مزدوجة ويتألم من أجل هذه الحياة حتى رأى تقاومة هذه الحياة وتقاومة الموت على حد سواء . وظل عشرين عاماً يحمل فى صدره فكرة هذا الدرويش ويتأمل تفاصيلها ويعمقها بالكثير من طاقته الثقافية والعاطفية . وشعر بعد إنتهائه من كتابتها بتعب شديد جعله يعاني من الإكتئاب ومن الإنطواء ويتجنب الناس ويخشاهم .

والرواية مفعمة بالرموز الفلسفية والنفسية التى تشير أساساً إلى هموم الإنسان وعذابه المصيرى فى غزو الحياة والسيطرة عليها . إنها رواية التحليل العميق لطاحونة السلطة ودوامة النفوذ التى يكون الإنسان فى بعض الأحيان ضحية لها ، وفى أحيان أخرى يشترك هو نفسه فى تشغيلها وطلحنها للآخرين .

وهى رواية الفكر والتفكير بلا طموحات فلسفية كبيرة ، وهى رواية المعضلات الأخلاقية أيضاً . كما أنها تعد امتحاناً عسيراً للنقاد ولجماهير القراء الذين يسعون إلى تفسير معانيها الحقيقية وإلى فك رموزها الخفية . وقد وصفها بعض النقاد بأنها رواية إسلامية بسبب بيئتها الإسلامية الخالصة وبسبب كل ما تشتمل عليه من أفكار دينية إسلامية ، وبسبب وجود آيات قرآنية فى حوار الشيخ أحمد مع نفسه ، وبسبب اشتغالها على اقتباسات واضحة من المعانى القرآنية .

وقد وجدت فى سيرة الأديب سليموفيتش ما يفسر معرفته لهذه الآيات القرآنية . فهو مولود فى عام ١٩١٠ عن عائلة مسلمة فى مدينة تودلا بمنطقة البوسنة والهرسك التى يكثر بها عدد المسلمين . وفى حوالى الرابعة من عمره إلحق سليموفيتش بـ « الكتّاب » ، وكان مدرسه هو

الحاج صالح أفندى الذى ترك فى نفسه انطباعاً طيباً للغاية ، فقد كان يترك لهم مطلق الحرية فى الحضور والإصراف وهو أمر يثير بهجة صغار التلاميذ ، ثم أنه لم يكن يفضب منهم على الإطلاق ، ولا يعلب جبينه فى وجوههم ، وكان يتركهم يثيرون الضجيج ويتقافزون بينما هو يضحك لهم بكل صبر مستمتعاً بسرورهم ، لكنه رغم ذلك لم يحظ منهم بالاحترام .

وفى المقابل كان مدرس الدين الإسلامى فى « الكتاب » قاسياً عليهم مما زاد من صعوبة تعلم سليمو فيتش للحروف العربية ، الأمر الذى جعله فيما بعد لا يحب اللغة العربية وحروفها ، غير أنه حينما وقعت فى يده بمحض الصدفة ترجمة للقرآن الكريم تعجب أشد التعجب وتساءل عن الأسباب التى دعت مدرس الدين إلى أن يخفى عنهم مثل هذا النص الرائع .

واستمع سليمو فيتش فى طفولته إلى نوعين من الحكايات . النوع الأول هو حكايات جنته ثم حكايات أمه فى شبابها . ومن الطريف التنويه بأن أمه كانت مسلمة شديدة التمسك بدينها وتلتزم بصلواتها ، لكنها للأسف كانت فى بيتها وحيدة فى هذا المضممار فلم يكن زوجها يجارها فى ذلك . ومن هنا كان سليمو يتش يشعر بأن أمه تعيش فى وحدة عجيبة .

وقد حصل الألب فى البومنة والهرسك بهذه الرواية التى تجرى وقائعها فى بيئة إسلامية ويشتمل حوارها على آيات قرآنية - على كتاب فريد وعلى خبرة إبداعية ملهمة من حيث إحمامها وصياغتها . وكان لدى مؤلف هذه الرواية الرغبة والشجاعة لأن يهبط من برجه العاجى المأمون الذى يقوم فيه بالتأمل الروحى ومطالعة كتب التاريخ ، إلى الأرض حيث يدرس المشاكل البشرية الجوهرية والراهنه على الدوام والمتعلقة بالحياة والموت وبالحب وبالكراهية وبالفاء والخيانة وبالشر والخير . وهى مشاكل فطرية مغروسة فى نفس الإنسان ولم يجد لكثير منها أى حل .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن ميثا سليموفيتش أنهى دراسته بكلية الآداب بجامعة بلغراد . ثم اشترك في حرب التحرير الشعبية ليوغسلافيا ، وكانت السنوات الأربع التي قضاها في هذه الحرب بمثابة إعداد أدبي مكثف لنشاطه الإبداعي بعد الاستقلال . ومنذ عام ١٩٤٦ وهو يعيش ويعمل في سراييفو مدرساً بالمدرسة العليا للتربية ، ثم مدرساً بكلية الفلسفة حيث درس مذهب الواقعية في الآداب اليوغسلافية .

وبالتدرج أخذ سليموفيتش يحتل مكانته الأدبية في منطقة البوسنة والهرسك خاصة منذ صدور مجلة « برازدا » الأدبية في عام ١٩٤٨ م . وشرع ينشر أقاصيصه الأولى التي تعالج موضوعات حرب التحرير والثورة . وبالرغم من أن الأسلوب الواقعي كان هو الأسلوب السائد في الفترة من عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٥٠ فقد تميزت أقاصيصه باهتمامه الشديد بالتعبير الفني وبالحالة النفسية وبهيكل القصة وبجمال أسلوبها . وكان واضحاً آنذاك أن هذا الأديب قد اختار المسبيل الذي سبقه إليه أول حائز من البوسنة والهرسك على جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٦١ ، وهو الأديب إيفو أندريتش الذي كان مغزماً بمنطقة البوسنة والهرسك .

وبعد استقلال يوغسلافيا سابقاً ساهم سليموفيتش في نشاط لجنة تحديد جرائم الاحتلال . ثم تم تعيينه عضواً باللجنة التي كان ينبغي أن تتأكد وتحقق في الاتهامات المنسوبة لبعض الفنانين . وقرر أعضاء هذه اللجنة بما فيهم سليموفيتش أن هؤلاء الفنانين أبرياء . وإثر ذلك تمت إقالة إثنين من أعضاء اللجنة من عملهما ، وطولب سليموفيتش بالرحيل . وهكذا ظل منذ عام ١٩٥٣ بلا عمل ولمدة أربع سنوات متتالية دون أن يعرف أسباباً محددة للإستغناء عنه ، ودون أن يقول أو يفسر له أحد شيئاً ، ولم يستطع سليموفيتش أن يتحدث مع أي إنسان بشأن هذا الموضوع . وقد وصف الأديب سليموفيتش هذا الموقف في رواية « القلعة » حيث

لا يستطيع المرء أن ينطق ببنت شفة والناس يمرون من أمامه كنسمة هواء .

وحاول سليموفيتش البحث عن عمل في أى مكان دون جدوى ، ولم ينجح في الحصول على أى عمل بالرغم من أنه كان يطلب العمل في كل مكان وحتى في الأرياف وذلك لأنه رب أسرة وزوجته لا تعمل . وكان على استعداد لقبول أية وظيفة من أجل هذه الأسرة حتى ولو كان عملاً بدنياً . وبعد لأي قبله مدير المسرح القومى في سرايفو للعمل بالمكافأة معداً درامياً بالمسرح ، فأحس لأول مرة معنى الأمان بحصول المرء على مبلغ من المال في أول كل شهر ، حتى لو كان ضئيلاً .

ولكنه ظل محدود الدخل يعمل ويمارس كل شيء وأى شيء . وكان يحس بالمهانة لكنه لم يسمح لنفسه بل ولم يستطع أن يسمح لها بالتركيز على محافظته على كبريائه . وأخذ يعد سيناريوهات الأفلام وهو عمل جديد عليه لا يعرف عنه شيئاً ، ويعترف هو شخصياً برداءة هذه السيناريوهات وأنه لم يتقن على الإطلاق هذا العمل . غير أنه حصل بمهرجان « بولا » على جائزة عن سيناريو فيلم « الأرض الغريبة » الذى أعده بناء على فكرة لإحدى أقاصيصه .

وتحسنّت أحواله وتوالت عليه الوظائف فعمل مديراً فنياً لشركة « بومنة فيلم » السينمائية ثم رئيساً لدار النشر « سفيتلومت » بسرايفو ثم انتقل إلى بلغراد وتوفى بها كأديب محترف فى عام ١٩٨٢ . ومنذ عام ١٩٥٨ وهو يكرس نفسه للعمل الأدبى وقد بلغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً لكنه كان يعمل بإصرار شديد ، وفى هذه الأثناء درس اللغة وإمكانات التعبير مما ساعده على حسن صياغة أقاصيصه ومؤلفاته وسيطرته على الأساليب المختلفة للتعبير .

ومن مؤلفاته المشهورة . الرجل الممتاء (١٩٤٧) ، الكتبية الأولى (١٩٥٠) ، المسكون (١٩٦١) ، الأرض الغريبة (١٩٦٢) ، الضباب وضوء القمر (١٩٦٥) ، الدرويش والموت (١٩٦٦) ، الفناء ذات الشعر الأحمر (١٩٧٠) ، القلعة (١٩٧٠) ، الجزيرة (١٩٧٦) ، وروايته التي لم يكملها « الدائرة » .

ويحلو للنقاد أن يعتقدوا العديد من المقارنات والمشابهات بين الأدبيين ميشا سليموفيتش وإيفو أندريتش على أساس أن كليهما من منطقة البوسنة والهرسك . وتقود هذه المقارنات النقاد إلى الاستنتاج بوجود جوانب تشابه عديدة بين بطلي رواية « الدرويش والموت » لسليموفيتش ورواية « الفناء الملعون » لأندريتش . وبينما مؤلفات سليموفيتش ترتبط ارتباطاً تاريخياً وأدبياً بعصر وبالعالم محدد ، ألا وهو عالم البوسنة والهرسك ، نجد مؤلفات أندريتش تقف موقفاً وسطاً بين الأسطورة والحقيقة التاريخية . ودائماً ما يركز سليموفيتش على الجانب الأخلاقي في العالم والعصر ، وبذلك تكون الصورة ذات قيمة كبيرة بالنسبة لجميع العصور ، وهي صورة خالية من الحقائق التاريخية . كما أن سليموفيتش يحتم وجود مسافة معينة بين حقائق العصر والبيئة ، وبين شخصيات مؤلفاته . أما أندريتش فيرسم لأبطاله صورة دقيقة في تفاصيلها ، ويحاول بالوثائق تقريب صورتهم من الأصل . ومن أهم مميزات سليموفيتش أنه لا يهتم كثيراً بالأشخاص وبالأحداث التي تشكل تاريخ منطقة البوسنة والهرسك وإنما يحاول أن يستنبط من الحقائق الحية عن الأشخاص حكايات رمزية ذات مغزى أخلاقي .

ومن جوانب التقارب بين الأدبيين أن سليموفيتش يقترب غاية الاقتراب من أندريتش في موقفه الأماسي الذي يتمثل في احترامه للالتزامات العائلية . وهذا هو ما يفصل بين سليموفيتش وبين معاصريه

من الأدباء الذين لا يحترمون على الإطلاق هذه الإلتزامات
العائلية .

أما فيما يتعلق بالاختلافات بين الأدبيين ، فأهمها أن سليموفيتش لم
يكتب على الإطلاق رواية تاريخية تستند إلى الوثائق التاريخية كما فعل
أندريتش في رواية « تاريخ مدينة ترافنيك » التي تعتمد في أساسها على
الوثائق التاريخية وأقوال شهود العيان .

رحلة إلهامى إلى الموت

من المؤكد أن رواية « رحلة إلهامى إلى الموت » تعد من أشهر بل ومن أفضل الأعمال الروائية للكاتب البوسنى رشاد قاضيتش . ومن الجلى أنه كتبها على دفعة واحدة . وهى تبين ، على أفضل صورة ، إمكانات هذا الأديب وقدراته الإبداعية بحيث أن المرء يحزن أشد الحزن لأنه لم يكرس كل حياته للرواية وللعمل الروائى .

وهذه الرواية تعد قصة حقيقية عن عبدالوهاب بن عبدالوهاب الجيتشاوى إلهامى الذى عاش حياة العادل . وكان رجلاً فاضلاً من رجال الدين ، ويعمل إماماً وخطيباً لمسجد فرهاد باشا . وعلاوة على ذلك كان صوفياً متحمساً وشاعراً شجاعاً . وكان يؤلف باللغتين التركية والعربية ، وبلغته الأم التى كانت تسمى آنذاك بـ « البوسنية » . وبالإضافة إلى كتاباته الدينية الملحوظة فقد ترك عدداً كبيراً من القصائد التى يعد بمقتضاها من أغزر الشعراء المسلمين إنتاجاً فى عصره .

وقد ولد إلهامى وعاش فى مدينة جيتشه فى فترة متخمة بالطغيان والظلم والردائل التى كانت منطقة البوسنة ترتجف تحت وطأتها وتنزف دماؤها . وكان الجلالى ، حاكم البوسنة قاسى الطباع ولا يتردد فى اتخاذ قراراته وعديم الشفق . وكان من رأيه أنه لا يفل الحديد إلا الحديد . وهذا هو ما فعله . فقد بدأ يستدعى الأعيان المشتبه فى أمرهم والقائمين بالعصيان . وانتهى الأمر بأولئك الذين أسعدهم الحظ بالنفى ، أما الباقيون فقد انتهوا إعداماً بسيف الجلاذ أو شنقاً بالحبل الحريرى .

ودب الخوف فى البومنة وفى أحشاء الناس . وحينما سئم الجميع من الظلم ظهر إلهامى الذى ثارت مشاعره بسبب مصير بلاده وأهل بلده ورفع صوته ضد أولئك الذين اعتبرهم مسئولين عن المصير السيئ لمسقط رأسه . وأنشد قصيدته المعروفة باسم « حل زمان غريب » . ورغم أن إلهامى المحب للعدالة كان مسلماً صادقاً وصوفياً إلا أنه كانت لديه الشجاعة لأن يندد تنديداً علناً بالطغيان ولأن يقول الحقيقة .

وقصيدة الاحتجاج هذه التى كتبها إلهامى وضعت بصمتها على قدره المؤسف . فقد استدعاه والى البومنى وكان هذا ، فى الآونة نفسها ووفقاً للتقاليد السارية ، يعنى صدور حكم بالإعدام عليه . وكان إلهامى يعلم ماذا ينتظره منذ أن وصله خبر استدعائه . واستدعاه رئيس مدينة ماجلاى وأبلغه بذلك وهو فى غاية التأثر وأفهمه أنه لا يستطيع مساعدته وأن عليه أن يتحرك بنفسه فهو لا يريد أن يطارده أحد لأنه ليس قاتلاً أو قاطع طريق .

وتملك الناس الفرع حينما وصل إلى جيبته نبأ استدعاء إلهامى إلى مدينة ترافنيك . وفى أثناء مروره عبر السوق كانوا ينظرون إليه كما يتم النظر إلى أولئك الذين يتم اقتيادهم إلى ساحة الإعدام . لم يقترب منه أى إنسان ولم يخاطبه أحد . وتظاهر الناس فى السوق بأنهم لا يرونه رغم أنهم جميعاً يشاهدونه ويتابعونه بنظراتهم ، ولكنهم كانوا ينظرون إليه خلسة من الدكاكين والمقاهى .

وكان قلب إلهامى يستشعر سبب استدعاء الجلالى له ويحس ما ينتظره فى ترافنيك ولم يتعشم أى خير . وعزم على الذهاب إلى الجلالى . وبعدما أخذ أهبه ترك المدينة فى عجلة ولم يلتفت وراءه ولم يسمح لمشاعره بأن تصرعه .

وفى طريقه إلى الجلالى التقى بقطاع الطرق الذين مرعان ما تركوه

لشأنه حينما علموا أنه ذاهب إلى الوالى الذى استدعاه ، فقد فهموا ماذا ينتظره هناك . وحاول قطاع الطرق أن يقتعوه بالبقاء معهم لكي يشاركهم أعمالهم أو على الأقل لكي يبقى على رأسه بين كتفيه . ولكنه رفض وانتقد تصرفاتهم وأفعالهم وكذلك أفعال الجلالى ، وتنبأ لهم وللجلالى بالندم أشد الندم على تلك الأفعال .

وسبقته أخباره إلى قرية فراندوك ، ومباد الصمت الجميع لما دخل مقهى الخان الحافل بالناس . وكانوا قد حكوا عن رؤيتهم له فى الطريق التجار وسائقو العربات الذين قدموا إلى الخان . وهناك شخصان من نفس بلدته أسهبأ فى الحديث عن عندياتهما .

وأحسن حمزة أغا صاحب الخان استقبال الإلهامى لأنه كان يعرفه من قبل . وخلال حديثهما حاول حمزة أغا أن يثنيه عن الذهاب إلى الجلالى لأنه لا أحد يجبره على ذلك . واستنكر الإلهامى على نفسه أن يختفى أو يهرب من حقيقته فلم تكن تهمه نفسه لأنه أودعها أمانة لدى الله علاوة على أنه مدد كل ديونه فى الدنيا . والتمس الإلهامى من حمزة أن يسأل ، فى حالة عدم عودته ، عن قبره وأن يضع شاهداً فوقه حتى يعرف الناس مكان القبر .

وخلال هذه الرحلة الفريدة يلتقى الإلهامى بكثيرين آخرين وخلال تحاوره معهم كان يتضح لنا مقدار شجاعة الإلهامى ونبل أخلاقه وعدم خوفه من الموت بل ولهفته للالتقاء به . وكان الإلهامى يريد أن يضع ، بأسرع ما يمكن ، نهاية لهذه الرحلة المثاقفة التى لاقى خلالها معاناة وسقوطاً ونهوضاً وسمواً .

ودخل ترافنيك ، مدينة الوالى ، فوجدها ساكنة صامتة . فمئذ أن جاء الجلالى وسكان مدينة ترافنيك يغلقون منازلهم قبل المغرب ، ولم يكن يهبط إلى السوق إلا المضطر ، بل ولم يكن أحد يخرج من داره . فالخوف

يزحف على ترافنيك نهراً وليلاً . ويمر الناس بالقرب من قصر الوالى فى وجل وفى عجلة ويعينين مسدنتين إلى الأرض . ويتم همساً داخل المنازل والمحلات نكر أسماء من جاءوا بهم ثانية واقتادوهم ، وسرد أسماء من انطلقت من أجل إعدامهم المدافع اليوم أو بالأمس ، وأسماء أعيان البوسنة الذين احتسوا « الشرابات » المسموم . ورغم كل هذه فقد كانت الأخبار الجديدة تصل تباعاً من القلعة ولم يكن من الممكن إخفاء شيء .

واتجه إليهامى مباشرة إلى قصر الوالى ومرعان ما تم إرساله إلى القلعة لكي يبيت فيها .

وحينما التقى بالجلالى طلب منه أن يتلو عليه القصيدة التى استدعى من أجلها . ثم سأله فيما كان يفكر حينما كان يكتب هذه القصيدة وماذا أراد أن يقول من خلال أبياتها . وأجاب إليهامى فى شجاعة بأنه فكر فى الشر والبلاء حينما كتب هذه القصيدة . لقد أنهكت أهل البوسنة الحروب وفيها ضاع ويضيع كثير من أبنائنا وتهلكهم الأوبئة والجهالة تسود وأبيدت العدالة والفقر فظهر التمرد وأعمال قطع الطرق بينما ازدهر الطغيان والارتشاء وسوء الأخلاق . أما أولئك الذين ينبغى أن يكونوا فى المقدمة وأن يحددوا ماهية العدالة ويعملوا على نشرها بدءاً برجال الامبراطور والأعيان وانتهاءً بالعلماء ، فهم يتحنثون بشئ ويفعلون شيئاً مغايراً ويفكرون فى انفسهم فحسب وكل منهم يسرع صوب وجهته دون الالتفات إلى الآخرين . وتحولت البوسنة كلها إلى جرح دامى لا يلتئم .

واستشاط الجلالى غضباً وقال له : أنت يا إليهامى انقضضت على الامبراطورية وقصصيتك الثائرة تنتقل من مدينة إلى أخرى ومن فم إلى فم ، وهى أشد بترأ وخطورة من كل سيف . وبالنسبة للامبراطورية وللسلطان فأنت خطير للغاية مثل أولئك الذين جئت من أجلهم إلى هنا ! بل إنك أشد خطورة لأنك نقى ولا تطلب شيئاً لنفسك ولأن الناس يصدقوك .

وعليك أن تندم يا إلهامى ، وقل ذلك جهاراً وبياناً بحيث يسمعك الجميع .
قم بسحق القصيدة بمثلها ، إنكرها وحافظ على رأسك وإلا فسيتم إعدامك .
سأحزن من أجل ذلك ولكن الامبراطورية والسلطان فوق كل شيء بالنسبة
لى ولا توجد هنا رحمة تجاه أى إنسان .

ولم يهب إلهامى ولم يجبن وفى رده أكد على أنه لا فائدة
للإمبراطورية بدون طمأنينة وسعادة أبنائها . والناس أهم من السلطان
ومن الامبراطورية ، ولن يثبت شيء طيب وسط الدماء . والإنسان هو
أكمل ما خلقه الله وويل لمن يمتنعه .

ويستمر هذا الحوار الممتع الذى أجاد الكاتب فى إدارته . ويجب
الجلالى : يا إلهامى ، لقد حكمت على نفسك بنفسك . إننى حزين من
أجلك . إنك أكثر نقاء وشجاعة من جميع أولئك الذين التفتيت بهم ولذا فأنا
أشفق عليك ولو ترفقت بك لخدعت نفسى ولأصبحت أنت قنوة سيئة
لكثيرين ولذا فلنك لن تغفلت من الموت .

وفى الختام طلب منه إلهامى أن يكون أكثر رحمة تجاه الناس لأن
الشخص الذى لا يملك رحمة تجاه الآخرين لا يستطيع أن يطلبها لنفسه
والرحمة مطلوبة للجميع ، وطالبه بقضاء ليلة واحدة مع أولئك التعمساء
الموجودين بسجن القلعة . كما طلب منه أن يتذكره ويتذكر كلماته حينما
يحضره الموت .

وسرعان ما ذاع نبأ إعدام إلهامى وكان الريح قد نشرته وتقبله الناس
فى خوف وحزن . وزاره حمزة أغا وأقام له شاهداً كما طلب .

وبعد عام تقريباً تسلم الجلالى فرماناً بعزله من ولاية البوسنة ، وفى
الليلة نفسها ساءت حالته الصحية ووافته المنية . وانتشرت الشائعات على
الفور ، فمن الناس من يقول أنه تناول السم ومنهم من يقول أنها لعنة
إلهامى حلت به .

ويلاحظ بوجه عام أن الكاتب البوسنى رشاد قاضيتش يكتب عن آلام الإنسان وكرابه وهمومه ومصائبه ، ويصور أبدع تصوير الظلم الذى سحق المسلمين فى البوسنة والهرسك بل وتعداهم إلى غيرهم من أتباع الديانات الأخرى تاركاً آثاره البشعة وفى كل مرة تكون الآثار أشد عنفاً وقسوة . ولكن لابد على الفور من التنويه على أن رشاد قاضيتش ككاتب إسلامى لا يترك شخصياته تضيق بين التردد واليأس أو تنتهى فى مآسى سوداء بعد أن فقدت آمالها وروحانياتها وإنما يقودها إلى بر الأمان .

وقد استلهم رشاد قاضيتش أحداث رواياته من الماضى كما فعل من سبقوه من الأدباء ، ولكن النقاد يعتبرونه من الأدباء القلائل الذين تحدثوا بأصدق أسلوب عن روح المسلم فى البوسنة والهرسك ، تلك الروح التى انشغلت بفكرة الموت والحياة الأبدية وكانت أن تنفصل عن الواقع .

ويتميز أسلوب قاضيتش بالحوار الممتاز والتعبيرات الثقلانية والابتعاد عن القوالب المعروفة فى الآداب العالمية ، ويتمسك بأسلوبه الخاص المتميز فى للكتابة بطريقة يسيرة على الفهم وبلغة شعبية حبيبة إلى أذن القارئ .

ومن أعماله المشهورة رواية « الرسالة الأخيرة لباشيمسكى » ، وبطلها هو مولى مصطفى باشيمسكى وهو كاتب عمومى متواضع من مدينة سرايفو وعاش فى الفترة من النصف الثانى من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . ورغم أنه لم يكن عالماً إلا أنه كان أكثر نضجاً وحكمة من معارضيه . وكان طوال حياته يسجل بنشاط مختلف الأحداث ويعلق عليها ، ثم جمعها فى كتابه المشهور « الحوليات » التى تعد من أروع ما كتب فى الأدب بالبوسنة والهرسك فى هذا المضممار . ويستعرض هذا الكاتب أمام القارئ مجموعة من الشخصيات المتباينة ابتداء من الصوفية الذين وهبوا أنفسهم للأمور الروحية ومروراً بأصحاب النفوذ الذين فقدوا الإحساس وانتهاء بالقتلة والعتاة .

وروايته الأخرى « الحاج لويو » تعالج حدثاً من أضخم الأحداث ،
إن لم يكن أضخمها على الإطلاق ، فى التاريخ الحديث لمنطقة البوسنة
والهرسك وخاصة فى تاريخ المسلمين بهذه المنطقة ، ألا وهو الاحتلال
النمساوى المجرى للبوسنة والهرسك فى عام ١٩٧٨ . وكان هذا الحدث
نقطة تحول بارزة فى حياة جميع المسلمين آنذاك .

وتعد هذه الرواية فى حقيقتها تاريخاً دقيقاً لهذا الحدث ، وتبدأ بوصف
الاستعدادات السياسية والعسكرية لاحتلال هذه المنطقة بواسطة
الامبراطورية النمساوية المجرية وكيف خاض شعب هذه المنطقة دوامة
الحرب وكيف شرع أفراد العزل فى مقاومة المحتل المتفوق عليهم عدداً
وعدة أضعاف المرات .

وسجل أحد النقاد البوسنيين فى معرض كتابته عن رواية « الحاج
لويو » أن هذا الموقف الدرامى المصيب اكتسب فى هذه الرواية سمواً
ملحمياً وبين للعالم أجمع القلب الكبير الذى يحمله بين جنباته هذا الشعب
الصغير فى منطقة البوسنة والهرسك . ونقل الأديب رشاد قاضييتش بقلمه
المبدع ولغته السليمة وكلماته المعبرة هذا الحدث للخطر من الواقع المؤلم
إلى صفحات روايته الأدبية وقدم له التفسيرات اللازمة ودعم كلامه
بالموثائق . وهكذا عادت الحياة إلى عام ١٨٧٨ على صفحات هذه الرواية
وعلى يد الأديب البوسنى المعلم رشاد قاضييتش .

ومن الطريف أن الأديب رشاد يكتب الشعر الإسلامى أيضاً . فقد
كتب قصيدة « المولد الشريف » وهى من قصائد المدح النبوى الشريف ،
وحصل بها على أول جائزة فى المسابقة التى أجزتها المشيخة الإسلامية
بيوغسلافيا . وقد لاقت هذه القصيدة قبولا شعبياً طيباً بالبوسنة وطبعت
حتى الآن عشر طبعات كما تم تسجيلها على اسطوانة . وهكذا دخلت هذه
القصيدة كل منزل بوسنى معلم وكل مسجد ووجدت فى جميع المناسبات
والاحتفالات .

ثم كتب قصيدة أخرى عن شخصية « الغازي خسرو بك » وعن أعماله الخيرية التي ظلت حتى يومنا هذا وبعد مرور ما يقرب من ٤٥٠ عاماً من إقامتها شاهداً على ما قام به هذا الرجل المسلم الذي لا يزال يُذكر بالخير حتى الآن . وقد حظيت هذه القصيدة أيضاً بعده طبعات .

وصاغ الأديب والشاعر رشاد قاضييتش أيضاً قصيدة عن « حياة السيدة فاطمة » بنت النبي عليه الصلاة والسلام . وصاغها بأسلوب عصري قريب إلى القلب والأذن . ولا بد في هذا المجال من التنويه إلى ما قام به رشاد قاضييتش ، بالاشتراك مع الأديب « عليا ناميتاك » ، من جمع القصائد الدينية لمعلمي البوسنة والهرسك ونشرها . وقد تم نشر مختارات من هذه القصائد ونبذة عن حياة مؤلفيها .

وبعد فهذه هي لمحة وجيزة عن رواية « رحلة إلهامي إلى الموت » للأديب البوسني المسلم رشاد قاضييتش الذي لغت الأنتظار إليه بكتاباته العديدة ، وقد أكدت معرفته الجيدة ببيئته التي استلهم منها موضوعاته ، كما توضح ثراء قاموسه اللغوي ، وتشير إلى المحر الذي يتميز به حوارهِ البسيط الممتاز .

انتحار أديب

اكتسب الأديب برانكو تشويبيتش بأعماله الأدبية الجلييلة صورة مشرقة في كتابات النقاد ودراساتهم ، فهو كاتب تعددت مواهبه الأدبية إذ أنه أبدع في مختلف الأجناس الأدبية من ملحمة شعرية وقصة قصيرة ورواية ومسرحية وقصص للنشء وشعر للصغار . وهو أديب اشتهر بغزارة إنتاجه فقد احتوت الطبعة الأخيرة لمؤلفاته الكاملة على خمسة عشر كتاباً . ومن أجل هذا الإنتاج الأدبي الغزير حصل على العديد من الجوائز الأدبية ، وذلك علاوة على حصوله على الكثير من الأوسمة والنياشين خلال حرب التحرير الشعبية اليوغسلافية .

وبالرغم من هذه الصورة المشرقة للأديب برانكو تشويبيتش (١٩١٥ - ١٩٨٤) ولأعماله الأدبية إلا أنه في أواخر أيام حياته كان يشعر بحالة عجيبة من التشاؤم واليأس ، الأمر الذي دفعه ، في لحظة ضعف قاتلة ، إلى الانتحار وإلى إنهاء حياته بيده . ورغم ما قيل وكتب عن هذه الترجسية القاتلة وعن تلك الحالة من الاكتئاب التي دفعت هذا الأديب إلى الانتحار فلننسى أعتقد أن هناك الكثير مما لم يذكر ولم يكتب عن أسباب انتحاره وعن دوافعه إلى ذلك . ولا شك أن الفترة القادمة ستفصح عن المزيد من الأسباب والأمرار الأمر الذي سيزيد من شهرة هذا الأديب ونبوغ مؤلفاته بحيث يطغى على غيره من الأدباء وهو ما كان يتوق إليه في حياته .

ويدفعني إلى هذا الاعتقاد تلك الكلمات والخطب والتعليقات والانتقادات التي ذكرت ونشرت بعد وفاة هذا الأديب . وكان من الطبيعي

أن يتم التركيز على الخطوط الإيجابية والخصائص المميزة لهذا الأديب ، ولكن الغريب أن يقال في احتفال عام لتأبين هذا الأديب وفي مكان رسمي ، وهو ما يشبه المجلس الأعلى للثقافة عندنا ، كلمات تربط بين انتحار الأديب وبين الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في يوغسلافيا آنذاك . بل أن مجموعة من الأدباء ذوي الثقافة العالية نشروا على نفقتهم الخاصة بمناسبة مرور عام على وفاة تشوبيتش كتاباً مخصصاً لتفسير أسباب انتحار هذا الأديب . ولم يتم حظر هذا الكتاب رغم أنه كان يحوى الكثير من الكلمات والأشعار التي تعرب عن عدم الرضى عن الأحوال العامة في يوغسلافيا .

ولا شك أن أفضل رثاء لأى أديب هو نشر المقالات والأبحاث والدراسات عنه والتعريف بمؤلفاته وأعماله الأدبية ، وهذا هو ما سنحاول القيام به من خلال السطور التالية .

والأديب برانكو تشوبيتش مولود فى قرية هاشانى بمنطقة البوسنة والهرسك فى عام ١٩١٥ . وبعد إنهائه للدراسة بمدرسة المعلمين التحق بقسم الفلسفة والتربية بكلية الآداب فى بلغراد وانتهى من هذه الدراسة فى عام ١٩٤٠ . ومنذ عام ١٩٣٦ وهو يكتب فى صحيفة « بوليتيكا » ببلغراد . وخلال حرب التحرير الشعبية كان قوميسيراً سياسياً ومحرراً بصحيفة « بوربا » .

وقد شبه النقاد هذا الأديب بالأديب الرومى المعروف « أنطون تشيخوف » وخاصة بسبب قصصه التى يعرض فيها لشرائح من الحياة مفعمة بالحزن وبالرقة وكذلك بالفكاهة والسخرية ، ولم يتحدث بمثل هذا القدر من النفاء عن أبطاله المحزنين المضحكين إلا بعض الأدباء المشهورين من أمثال تشيخوف وبيرانديلو .

ومن الخطوط العريضة الهامة التى تنسم بها شخصية برانكو

تشوبيتش هي دعوته المثالية ، عن طريق قصصه ، إلى الإخاء بين جميع شعوب وسكان منطقة البوسنة والهرسك التي يكثر فيها المسلمون إضافة إلى أتباع الديانات الأخرى . وهو يوسع من نطاق دعوته هذه فيدعو إلى الإخاء بين شعوب العالم والتفاهم الإنساني . وهكذا فإنه يقول في إحدى قصصه : كلما أفكر في السلام والصداقة بين الشعوب في العالم فأنا لا أتخيل الرايات أو الاجتماعات أو الخطب الحماسية ، وإنما أرى ببساطة على كل فرع من فروع شجرة عجوزين يلعبان على مهل وفي اطمئنان لعبة « لا تغضب يا رجل » .

وبعد ظهور الأقاصيص الأولى لتشوبيتش أشار النقاد إليه باعتباره خليفة للأديب بيناركو تشيتش المعروفة بأسلوبه الكوميدي الساخر ، وذلك في المقام الأول لأنهما من بلدة واحدة ، والاثنان من منطقة البوسنة والهرسك . وفي شبابه المبكر قرأ تشوبيتش الشعر الشعبي وتعلق بمؤلفات من سبقوه من الأدباء . وهو يعترف بتأثير بعض هؤلاء الأدباء عليه فيقول : كنت أحب الأديب تسانكر الحالم الذي لا يستسلم ، وكامله ينوء بالأعباء الثقالة . وقد أثر على تسانكر بصفاته هذه وجذبني إليه بحبه الحزين للإنسان الذي يكافح ويعانى . وكان الأديب كوتشيتش الناثر في شبابه قريباً إلى نفسى من حيث شخصياته التي كان يصفها ، وكنت أعرفها حق المعرفة ، ولذلك فقد أحسست إحساساً عميقاً بثورته المتميزة ، وبنقته بنفسه وهو يقول : ثق بنفسك وعقلك إذا كان لديك عقل . وقد ظللت واقفاً كالمدحول أمام الأديب كريجا (من أشهر أدباء كرواتيا) كما يقف الحمل أمام الثعلب وهو كالبركان يحطم كل ما هو غير إنسانى حولنا وفي نفوسنا . أما ليفو أندريتش فقد ظل ، بالرغم من كل شيء ، أقربهم إلى نفسى . وربما من أجل هذا بالذات يصعب على أن أحدد أسباب ذلك . إننى أحب هدوء المستقل الذى يقترب به من الناس ومن الحياة ، كما أحب صمته الكبير الواضح وكلماته الطيبة عن الإنسان ، عن أى إنسان ،

وأحب السكنى التى يقودنا إليها فى النهاية . وأحب قوله « وراء كل أمنية يأتى الموت ووراء كل بسمة يأتى السكون » .

واعترف هذا الأديب بتأثيرات الأدباء الآخرين عليه يثير فى ذهنى قضية مهمة راهنة ألا وهى وحدة الفكر فى المناطق اليوغسلافية بالرغم من الحدود والحوالز التى تحصر كل أديب فى حدود منطقته الإقليمية الضيقة .

ويعترف تشوبيتش بتأثره بالأديبين الروسين جوجول وجوركى الذين كان تأثيرهما حاسماً عليه بسبب إنسانيته المثابرة المناضلة التى لا تكل ، وبتشيخوف وزورشتشك ، ويمارك توين وهاشيك وسرفانتيس وبابل بفكاهتهم الفريدة .

ومما تتحتم ملاحظته أن الأديب برانكو تشوبيتش قد كتب قصصه الأولى فى الوقت الذى كان يتم فيه فى المناطق التابعة ليوغسلافيا سابقاً تأليف ما يسمى بالأدب الاجتماعى الذى كانت مهمته الأولى تصوير الحقائق المتعلقة بما يسود المجتمع من علاقات غير عادلة . وقد كان من المعتقد آنذاك أن هذه المهمة ضرورية وحتمية من أجل التقدم الاجتماعى . وكان كل أديب يمتلك ضميراً فى صدره وجذوراً فى حياة القرى أو المدن يشعر بأن أول نداء فى نفسه عليه أن يلبيه هو أن يسجل شهادات حقيقية عن العصر الذى يعيش فيه وعن المجتمع الذى ينتمى إليه . وكان تشوبيتش يحمل فى صدره وصية أمه بأن يقدم شهادة صادقة وصورة واقعية عن الوضع المحزن لسكان بلنته ، وهى البلدة الواقعة تحت سفح الجبل الذى يحمل اسم جرميتش .

ومن هنا خرجت إلى النور مجموعته القصصية الأولى حاملة عنوان « أسفل جبل جرميتش » (فى عام ١٩٢٨) ، وهى عبارة عن يوميات من سيرته الذاتية ، وهى يوميات متواصلة مثيرة للعواطف وحافلة

بالمعلومات المتعلقة بطقولاته وتعليمه وبعائلته وبأمه ، إنه كتاب جامع لمختلف الموضوعات . وتظهر البومنة هنا وكأنها ميدان قتال كثيب يجرى فيه صراع مستمر مع الحياة التى لا تجد إلا خيوطاً رقيقة تمسك بها ، وهى أيضاً مكان شاسع يبرز فيه البؤس البشرى ولكن تتجلى فيه أيضاً العظمة البشرية الحقيقية فى أبهى صورها . وينصب تركيز المؤلف فى هذه المجموعة القصصية على موضوعين أساسيين ، فهو يتحدث عن الحياة الكثيفة الحزينة للقرى الجبلية فى منطقة البومنة ، ويحكى عن الأزمات المقبضة التى يجرى فيها استغلال الفلاح العاجز الذى يتعرض بلا رحمة لمصائب هو ليس على استعداد لحملها أو التكيف معها . وموضوعه الثانى عن متشرد يتجول فى قرى ومدن البومنة .

والساحر فى إحدى قصصه يسافر لفترة مديدة عبر المدن الصغيرة والقرى بالقطارات والسيارات الخائفة المكتظة وعبر الطرق المقفرة والأسواق الصاخبة . وخلال رحلاته يقوم بمهاراته السحرية وخدعه الجذابة المتنوعة . والحقيقة أن حياته كلها مؤلفة من الخدع . وهو يقوم بهذا التجوال الأبدى من أجل مجموعة من الخدع يحبها ويؤمن بها . وهذا الساحر المهرج ينتقل عبر مدن البومنة اللثائية والخالية من الحياة ويشعر بحقيقة أن زمنه قد ولى وأن عليه أن يأتى بممليات جديدة تثير اهتمام المشاهدين والمتفرجين .

وفى قصصه الأولى كان تشوبيتش أكثر عاطفية ورقية من بيتاركوتشيتش الذى تعد قصصه أكثر حلاوة وإيجازاً وحدة والذى تحمل قصصه فى طياتها القوة البدائية للطبيعة الجبلية . وقد عالج تشوبيتش اعترافاته فيما يتعلق بتجارب الطفولة باعتباره شاعراً عاطفياً حساساً يحمل فى قلبه الكثير من الأحزان والآلام نتيجة لمعايشته للمصائب والكوارث . إنه يحزن ويتألم مشاركاً الفلاحين من بلده ومنطقته أفراحهم وأتراحهم . إلا أن تشوبيتش فى قصصه ليس مناضلاً اجتماعياً يشرح

ثورة الفلاحين الخاضعين المنهوبين وثورة الأشخاص الذين قدر لهم أن يقاسوا ويعانوا وهم يسرون في الطرق الباردة الموحلة . انه يشهد بالام ومعاناة الفلاحين وأولئك الأشخاص الذين تركهم المجتمع لقسوة مصيرهم السيئ . ولاشك أن محور هذه المجموعة القصصية هو الحزن البسيط الخافت الذي يملأ القلب بالحنين والشفقة ويجعل العيون تحفل بالتفكير والحساسية .

ومن أطرف ما كتبه تشوبيتش تلك المجموعة القصصية عن نصر الدين خوجة الرومي وهو البديل لشخصية حجا العربي . وفي هذه المجموعة القصصية تتكشف أكثر فأكثر الموهبة الروائية العظيمة لدى تشوبيتش الذي أخذ يستلهم موضوعات وأفكار أعماله من المصادر الشعبية النقية . وهو هنا يصور شخصية نصر الدين خوجة حسبما يتصورها خياله وقلبه للشاعر يان . ونصر الدين ، في تصور تشوبيتش ، يعد رجلاً نبيلًا بشكل بدائي وفاعلاً للخير ومحباً للإنسان بالإضافة إلى أنه شخص حالم وخيالي ومثالي . وهو ليس متعصباً من الناحية الدينية وأخوه في الوطن عزيز عليه أياً كانت ديانتة ، وهو يعطف على الفقراء أياً كانت ملتهم . وهذا التسامح أمر مهم للغاية ومطلوب في مجتمعهم هذا الذي توجد فيه قوميات كثيرة وأتباع لكل الديانات .

وفي هذه الأقساميص عن نصر الدين خوجة الرومي يحكى لنا تشوبيتش عن الحياة المعاصرة وكأنه ينسج قصة أسطورية عريقة ، وفيها يعالج المُلح المشهورة عن نصر الدين بحرية شاعرية كاملة ويخيل لَمَاح حتى يصل إلى فكرة مواجهة نصر الدين للبؤس والمعاناة الإنسانية . وبعد أن تأكد نصر الدين من عجزه عن تنظيم الحياة حوله بمقتضى القوانين المعادلة بهدف إنقاذ الإنسان من البؤس ومن المعاناة يترك العنان لخياله لكي يحلم ببلد سعيد مجهول وبعيد .

ومن للعجيب أن هذه المجموعة القصصية لاقت الانتقادات بسبب مثالياتها « الدون كيشوتية » وذلك في وقت اشتداد حدة الصراع الطبقي في يوغسلافيا حينذاك خاصة وأنه كانت تتحدد في ذلك الحين بشكل حاسم المهام الأساسية للنورة التي توشك أن تقع . إلا أن هذه المجموعة كانت ، من ناحية أخرى ، تحوى الطاقات الشعاعية لأسلوب تشوييتش الروائي ولعاطفته الدافئة ولحبه للإنسان . وهذه الشعاعية لديه تنبع من قراءته للأساطير الشعبية ولمؤلفات سرفانيتس وإيفو أندريتش .

وتختلف القصص الموجودة بمجموعته القصصية الثانية التي تحمل عنوان « المناضلون والإرهابيون » (فى عام ١٩٣٩) عن مثيلاتها الموجودة بالمجموعة القصصية السابقة « أسفل جبل جرميتش » ، وفيها أضاف أسورا جديدة وزاد أسلوبه نضارة وحيوية . والشخصيتان الرئيسيتان فى هذه المجموعة هما الشخصية الأسطورية نصر الدين خوجة الرومى والفلاح مارتين . وتوجد بين الشخصيتين تشابهات واختلافات متميزة . فهما يتشابهان فى سعة الصدر وفى الدفء الإنسانى وفى حلمهما عن الحياة الساحرة الجميلة ، الحياة الأفضل والأكثر سعادة وبركة ، الحياة التى يختفى فيها الفقر والجوع . إنهما يتخيلان حياة أخرى غير موجودة ، حياة ليست إلا أمنية جوفاء وخيالا زائفاً . وتسيطر على هذه المجموعة القصصية التدفقات الشعرية لليقظة وللخيال رغم أن الموضوع الأساسى فيها هو حياة الفلاحين بشقائها وبؤسها .

ولفت النظر فى مجموعته القصصية الثالثة بعنوان « رجال الجبل » (فى عام ١٩٤٠) أن الشخصية الأساسية فى كل قصة من قصص هذه المجموعة عادة ما يكون رجلاً عجوزاً أو امرأة عجوز أو الإثنين معاً . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن وجودهما متعمق الجذور لفترة طويلة فى حياة القرية ، وهذا هو ما جعل الكاتب يعتقد أن الخبرة الناضجة والتجارب الحياتية هى الأنسب كموضوعات لأقاصيصه ، خاصة وأن

هذا الأمر موجود أيضاً فى الأساطير الشعبية . ومن النادر أن يظهر شاب فى هذه القصص والأندر من ذلك أن تتم فيها معالجة موضوع الحب ، ويعيش الناس فى هذه القصص فى وحدة أكثر من عيشهم فى جماعة ، وهم يعيشون فى عزلة حتى وهم فى جماعة وذلك بالرغم من أن هذه القصص تبرز أن أصعب شئ على نفس الفلاح ألا يجد بجانبه أحداً يفتح له قلبه ويسر له بهومته . وأبطال هذه القصص يتحدثون مع أنفسهم ، ولكن حينما نتمعق فى موضوع الحوار فلننا نجده مخضباً ومصبوغاً بالحالة النفسية للفلاحين وبلغتهم الدارجة ويوصفهم للطبيعة .

ونقف القرية والمدينة فى مواجهة مشتركة فى هذه المجموعة القصصية كما هو الحال فى قصص الأنبياء السابقين الذين كتبوا عن الفلاحين . وفى قصة « قوة جوران » يبرز بشكل جلى إيمان المؤلف بقوة الفلاح وكذلك إيمانه بتفوق هذه القوة على قوة رجل المدينة . فالفلاح جوران هبط من تلال جرميتش إلى المدينة ومرعان ما تملكه الارتباك والاضطراب ، وكان عليه أن يبتعد عن طريق أى إنسان . وشعر بالذهول والضياح بسبب زحام وضجيج المدينة التى عانى فيها من النذل والتشتت . ويثور غضبه ويعود إلى قريته الجبلية والمعتمة وتعود له قوته ويقسم بأنه سيظل على أرضه القوية حتى بعد أن تزول المدنية من عليها .

ولم يصف المؤلف فى هذه المجموعة القصصية ما يقع فى القرية من أحداث مفاجئة مثل الصراع المهلك للفلاحين ، سكان الجبال ، فى مواجهة الظواهر الطبيعية الثائرة . وبالرغم من ذلك فلن إحدى أفضل قصصه ، التى بمقتضاها حصلت هذه المجموعة القصصية الثالثة على عنوان « رجال الجبل » تدل على أن جبل جرميتش لم يكن فحسب عرضاً بالألوان أو تجربة عاطفية بل إنه جبل فظ ينتلع حياة الإنسان . فيها هو الفلاح المجوز قد فقد اثنين من أولاده فى ليلة شتاء حينما ثارت العاصفة

فى الجبل ، ولا يستطيع أن يستسلم لحقيقة أنه لن يرى ولديه أبداً بعد ذلك . إنه يقبع منتظراً معجزة تعيد له ولديه ، وفى هذه الأثناء يسيطر عليه تصديقه للحكايات والأساطير المتعلقة بالعودة المفاجئة للضائعين والتائهين فى مختلف الحوادث والمصائب .

وكان تشوبيتش يميل لأن يرى فى الناس خيارهم قبل أشرارهم نظراً لحساسيته تجاه أصحاب المصائب وتجاه من يعانون . والشاعر القروى المازح « جورو » فى هذه المجموعة القصصية يمثل تجسيدا للجوانب المضنية فى الطبيعة البشرية . والقروى « جورو » يؤمن بقوة الطبيعة والخير فى العالم بقلبه الساذج البسيط ، وكان هذا الإيمان موجوداً أيضاً فى قلب الأديب الشاب برانكو تشوبيتش الحساس ذى المشاعر المرهفة . وبالإضافة إلى تصويره لمصائب وليؤس الفلاحين فقد كان ميالاً إلى الزهو والحماس إلى القارئ بأسلوب سلس مبسط كما كان الرواة والقصاصون الشعبيون ينقلون مثل هذا الحماس إلى مستمعهم حينما كانوا يرتجلون تأليف حكايات خرافية ساذجة وبريئة عن الحياة وعن الناس .

وفى تلك الفترة التى تمكن فيها الغزو الفاشى من اجتياح يوغسلافيا كان تشوبيتش منضمّاً إلى كتيبة من التلاميذ المناضلين الموجودين بمدينة ماريبور فى منطقة سلوفينيا ، وكانت هذه الكتيبة تقاتل المحتل الألمانى بمختلف السبل والإمكانات المتاحة . ولما عاد تشوبيتش إلى قريته تم القبض عليه واقتيد إلى مكان مخصص لتجميع أهل البلدة تمهيداً لإعدامهم . وقد أنقذهم من الإعدام مدرسه السابق الذى كان من المتعاونين مع المحتل . وعلى إثر ذلك سرعان ما انضم تشوبيتش إلى كتائب المناضلين من البارتيزان . ويحكى تشوبيتش عن هذا الحدث فى مقدمة ديوانه « الميلاد الملتهب للوطن » بقوله أنه كان يشاهد رأى العين أفراد البارتيزان وهم يكافحون ويمتسلون فى بطولة ويلقون مصرعهم فى

شجاعة إلى أن يتحقق النصر في النهاية . وأراد تشوبيتش أن يسجل ذلك فأخذ يقرض الشعر عن كفاحهم واستبسالهم وانتصارهم . وقد نشر هذا الديوان لأول مرة عام ١٩٤٤ في المنطقة المحررة من كرواتيا .

ويروي تشوبيتش في قصة « المارق » التي يتحدث فيها عن سيرته الذاتية أنه بدأ يكتب لكي يحافظ على الكثير من الحقائق والأمور ، والأهم من ذلك لكي ينساها . وبالفعل لولا ما سجله تشوبيتش لما كان هناك ذكر للأشخاص الذين عاش وقضى معهم أكثر الأيام شدة وصعوبة وأشدّها حسماً لا بالنسبة لحياته هو فحسب بل ولتاريخ يوغسلافيا كله . وبعد أن حول تشوبيتش تجاربه وخبراته في الحياة إلى كلمات ذات أجنحة سمح لها بالطيران إلى جهات الكون الأربعة ، وبذلك تخلص من هذه التجارب إلى الأبد . وكان تشوبيتش يريد بذلك أن يحتفظ بذكرى عن أهل بلده الذين كانوا يعيشون حياة بائسة شاقة على أرض فقيرة بعيداً عن منجزات الحضارة وهم يهربون في الأغلب إلى الأحلام اللقائمة أو إلى صفحات التاريخ الباهتة . ولكنه أراد في الوقت نفسه أن ينمي اللحظات التي ألمته كأديب وألمت أهل بلده .

واستناداً إلى ما تعلمه من الأدبيين بيتار كوتشيتش وإيفان تسانكر من عدم الرضى بالحياة البائسة لأهل بلده ومن إدراكه لمحاولات إيفو أندريتش التوصل إلى بعض المبادئ المسالمة الحكيمة في عالم يسوده البرود والمعاداة والاستغلال الاجتماعي فقد أفاض تشوبيتش منذ سنين من خلال قصصه الأولى في سرد الكثير من الأمور والحكايات التي كان الناس من حوله يشعرون بأنها هم على قلوبهم وععباء على صدورهم . وكان يسود أسلوبه القصصي الكثير من النغمات الحزينة بحيث أنه كان من العسير التنبؤ بأن هذا الكاتب سيقف بفكاهيته في الصفوف الأولى لكتاب هذا اللون من الأدب .

وقد أفصح تشوبيتش عن رأيه فى الأدب فى كلمات وجهها إلى قرائه من الناشئة نكر فيها أن مهمة كل أُنْب حقيقى هو أن يضيف على الإنسان صفة النبل وأن يجعل الحياة أكثر جمالاً وأعمق مضموناً . والأدب فى رأيه مدعو إلى أن يلهم الإنسان وأن يحفزهُ لأداء الأعمال العظيمة والمآثر البطولية . وقد تأكد هذا الرأى فى مؤلفات تشوبيتش بما وجده النقاد فيها من نفعة تربوية واضحة . وقد حاول تشوبيتش أن يؤثر دوماً بمؤلفاته الأدبية تأثيراً إيجابياً فى المجالين الاجتماعى والأدبى . ولا شك أن أدبه يخدم بنجاح شديد هذا الهدف العملى . ونجح هذا الأديب الكبير فى أن يبدع مؤلفات أدبية مهمة لا من حيث قيمتها الجمالية فحسب بل وأيضاً من حيث قيمتها الأدبية والاجتماعية .

وكان أول عمل روائى لتشوبيتش هو رواية « الانهيار » (فى عام ١٩٥٢) . وفيها عالِج موضوعاً ملحمياً ضخماً من حرب التحرير الشعبية فى يوغسلافيا . وهو موضوع مكتظ بالمشاكل المعقدة والمتشابكة . وقد أخذ على عاتقه فى هذه الرواية أن يصور ثورة الفلاحين فى أحد الأماكن المتخلفة بمنطقة البوسنة . وكانت الثورة فحسب هى القدرة على حل تلك العقد التى تشابكت فى حياة هذه المنطقة ، وهى عقد تقوم على الأوهام والخرافات بسبب عدم التسامح الدينى والقومى وبسبب الكراهية المتعصبة . وتتابع هذه الرواية عملية نمو الثورة فى جميع مراحلها ومساراتها وتطوراتها المتباينة .

والحقيقة التى لا نستطيع إغفالها أن القيمة الكبيرة لهذه الرواية تتمثل فى قدرة تشوبيتش الموهوبة على وصف تخلف الفلاحين بواسطة القوى الاجتماعية المستغلة والمستعبدة . وقد استغل قدرته الروائية الخبيرة من أجل التعمق فى نفسية الفلاحين البدائيين وفهم أوضاعهم فى بدايات الثورة ، ومن أجل معرفة أسباب خلافاتهم ودوافع ترددهم . كما أن الرواية تقدم صورة للحالة النفسية لأفراد الشعب ولتلك القيادات التى

تحركه والتي تصل إمكاناتها في وقت الحرب إلى حد البطولة والأعمال العظيمة .

وفي هذه الرواية أوضح تشوبيتش أن الثورة في أساسها لم تكن حرباً ضد العدو وأتباعه فحسب بل وحرباً أيضاً ضد التخلف وضد اليأس وضد طباع الذئاب . وتمكن تشوبيتش من أن يصور الأمور المعوقة للثورة ومنها تلك الأوهام التي كانت تثير الانقسام وتهدد ببذر بذور الخلاف بين الفلاحين الخائفين . كما صور انحسار التيار المعارض للثورة . ومن المؤكد أن أكبر نجاح لهذه الرواية هو تقديمها لصورة حقيقية عن ثورة الفلاحين . وهي صورة نابعة من الحياة مباشرة . وقد توصل إلى هذا النجاح عن طريق عرضه لمختلف مراحل غليان الثورة وبالتصوير الطبيعي للأحداث التي تنجم عن أوضاع القرية المتميزة وبالتطوير المتشاك لموضوع الرواية ، التي تحتل فيها القرية مكاناً قيادياً بسبب دورها العظيم في تدعيم الثورة وانجاحها .

ويعتبر تشوبيتش من أفراد البار تيزان المناضلين فقد تمثل بشعراء الملاحم وأخذ يتغنى بالنضال البطولي لآلاف الأبطال والمناضلين المجهولين من أجل الحياة ويتغنى بجهودهم المبذولة من أجل خلق حياة جديدة ستختلف فيها الأمور وتصبح أفضل من سابقتها . ولكن في الفترة التالية للحرب حقق تشوبيتش نجاحاً عظيماً في مجال الفكاهة ، وشرع يوجه ضرباته الفكاهية وملحه الطريفة إلى مختلف نقاط الضعف في المجتمع مثل البطولة الزائفة والسعي إلى الوصول إلى العائد السريع والفائدة السهلة والرغبة في العيش بسهولة ولاكد أو تعب ، ومثل تعمق جذور البيروقراطية والابتعاد عن جماهير الشعب من جانب أولئك الأشخاص الذين كانوا حتى الأمس ينتمون إليه إنتماء كاملاً ، ومثل عدم حسن التصرف في ظروف الحياة الجديدة وعدم القدرة على إدراك أنه لا يتم حل مشكلات الحياة ومعضلاتها بالأعمال البطولية وإنما بالعقل

والحكمة وما إلى ذلك من نقاط ضعف . وكان تشوبيتش في ذلك الحين في مفترق الطرق بين الفكاهة والسخرية . وبعض قصصه الساخرة مازالت حتى اليوم تحتفظ بحيويتها وفعاليتها ، ومن المرجح أنها ستحتفظ بهما إلى ما بعد ذلك . والمجتمع يحتاج إلى الكاتب الساخر لاحتياجاً شديداً باعتباره داعية للتقدم . إلا أن ظروفًا خارجية أخرى أجبرت تشوبيتش على الاتجاه إلى مجال الفكاهة بحيث أصبح أشهر أديب في هذا المضمار .

ووجد تشوبيتش في الفكاهة سنده ومنتفضه باعتباره أديباً للفقراء واليوساء والتعساء ، وباعتباره كذلك شاعراً لأفراد الشعب البسطاء فقد أفاض في استخدام الفكاهة محولاً إياها إلى سلاح للفقراء بصوبه تجاه هؤلاء الأفراد الذين يبتعدون عن الشعب . ولم يسلم صغار الأشخاص من هذه الفكاهة فقد أخذ يسخر من أحداثهم ومصائبهم دون أن يخفى حزنه عليهم ومواساته لهم .

وفي روايته « لا تحزن أيها الحرس البرونزي » و « الهجوم الثامن » أخذ تشوبيتش يسخر من أهل بلده ومن رفاقه في النضال الذين كانوا يتعمرون في تكيفهم مع العهد الجديد ويظلون رغباً عنهم على وفائهم للطباع والتقاليد القديمة ولا ريتابهم في كل ما يعرض عليهم . وهنا تحل للشفقة محل الكوميديا ويتمزق الرداء المقدس للكلمات الكبيرة وتظهر من جديد الحياة اليومية البسيطة التي تتطلب ملاقات جديدة .

وحينما يرسم تشوبيتش لوحاته فإنه يصبح في الحقيقة مثل صانع الفسيفساء يجمعها من كثير من الأجزاء الصغيرة . وأفضل قصصه هي التي لا تزيد على ثلاث أو أربع صفحات وكل كلمة بها في مكانها ، والطرفة أو صورة الشخصية خالية من الخطوط الفكرية الزائدة .

وتشوبيتش ، مثله مثل كبار الأدباء ، ليس أديباً إقليماً ، ويوجد في بلدته الكثير من الأمور المتميزة الخاصة بمنطقة اليوسنة مثل الحياة

المشتركة للأشخاص ذوي الديانات المختلفة ونقاليدهم وقومياتهم وطبائعهم ، ولكن يوجد بها على الدوام شيء إنساني عام .

وامتلك تشوبيتش قدرة فائقة على اكتشاف الموضوعات والشخصيات دون كلل أو ملل . ونجح في مؤلفاته في الربط الناجح بين الفكاهة والعاطفية وبين الواقع والأحلام ، وبين الحزن الواقعي الرومانسي والوصف التصويري ، وبين الألحان الموسيقية والتسجيلية والأسطورية . وإنه ليصعب للغاية وضع حد فاصل ، في مؤلفاته ، بين المحزن والفكاهي ، وبين الفكاهة والجد ، وعلى الأخص بين الأدب المخصص للنشء والأدب المخصص للكبار من القراء .

بيد أن هذه القدرة على تأليف الموضوعات وإبتداع الشخصيات والمواقف دفعت ، في أغلب الأحوال ، تشوبيتش إلى الكتابة السهلة المريحة دون مراعاة الانتقاء والتمحيص . وكان يكرر نفسه في الموضوعات التي يحولها إلى شكل أدبي آخر ، أي أن يحول القصيدة إلى قصة أو أن يحول قصة للنشء ليجعل منها قصة للكبار ، أو أن يحول القصة إلى سيناريو فيلم وما إلى ذلك . ولا ريب أن سهولة الكتابة وتسرع فيها دفعته إلى الكتابة بأسلوب « ريبورتاجي » وأضعفت من تعمقه في نفسيات شخصياته وجعلته يهبط أحياناً بفكاهته إلى مستوى رجل الشارع العادي .

إيفو أندريتش

يقوم النشاط الأدبي على عناصر عديدة وعوامل شتى ، وقد نتعرف على بعضها ولكن ليس بمقدورنا أن نطلع عليها كلها أو نتبينها جميعها . وأزعم - ولعلى أكون محقاً فى ذلك - أن لكل أديب جانباً آخر ، وربما جوانب أخرى ، يجهله الكثيرون وقد لا يعرفه إلا القليلون . ومن المرجح أن هذا الجانب الآخر يشكل فى كثير من الأحيان العامل الجوهرى المؤثر فى ممارسة الأديب لعملية الكتابة وفى كتاباته نفسها . وهذا الجانب الآخر من حياة أى أديب يعتبر فى أغلب الأحوال مفتاحاً للأمور الغامضة فى مؤلفاته وللرموز الملتبسة على الفهم فى كتاباته وللقضايا المستعصية على الإدراك فى أعماله الأدبية .

ويمكننا دون أدنى تردد أن نؤكد وجود نوع من العلاقة السرية الخفية بين الأديب وبين بيئته التى ينتمى إليها ويعيش على أرضها ويتسم نميمها وبالتالي يتأثر بها ، ومن ثم توجد تأثيرات لهذه البيئة - بمعناها الشامل - على ذلك الأديب الذى يعيش بين جنباتها ويتطبع بطباعها . ومما لا شك فيه أن كل هذا يؤثر على الأديب وعلى قلمه وينعكس على كتاباته . فلكل بيئة من البيئات سماتها وخصائصها ومزاياها التى تنفرد وتتميز بها عن سواها من البيئات . وتلك السمات والخصائص هى التى توجه الحياة الأدبية للكاتب وتؤثر فى مسارها وسيرها ، وتبعاً لإختلاف وتمايز هذه السمات المادية والمعنوية تتباين العلاقة بين الأديب وبيئته . وإذا أردنا توضيحاً لهذه العلاقة الخفية بين الأديب وبيئته فلا بد وأن نسلط الأضواء على الجانب الآخر من حياة الأديب وأن نبرز ما خفى من أسراره

وجوانبها وتفصيلاتها صغيرة كانت أم كبيرة ، وبعد ذلك نقوم بالربط بينها وبين أعماله الأدبية .

وحينما ولد الأديب المعروف ليفو أندريتش (١٨٩٢ - ١٩٧٥) بقرية دولاتس في جمهورية البوسنة والهرسك كان والده عاملاً حرفياً بسيطاً يقوم بصنع الطواحين اليدوية للبن ، بيد أنه سرعان ما اختفت اختفاءً تدريجياً هذه الحرفة تحت وطأة الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة الناجمة عن الاحتلال النمساوى المجرى لهذه المنطقة . وسرعان ما تكيف والده مع الظروف والأوضاع الجديدة وإلتحق بإحدى الوظائف المكتبية وظل يكد ويكدح بكل ما أوتى من قوة لكى يقيم أوده ، وكان هذا هو السبب فى وفاته المبكرة . وانطبع هذا الشريط من الذكريات المؤلمة فى ذهن أندريتش الصغير ، ومن ثم فعند بلوغه أصبح - أسوة بأبيه - يتكيف مع كل الظروف والأوضاع مبتعداً عن السياسة ودروبها الشائكة .

وعند وفاة والده لم يكن ليفو أندريتش قد تجاوز السنين من عمره فقام أقاربه بمدينة فيشيجراد برعايته إلى أن أتم دراسته الابتدائية . وحاصره الفقر وأحاط به ، ولم يكن هناك القدر الكافى من أى شىء فى منزله . ولم يكن يملك كتاباً واحداً باستثناء بعض الكتب المدرسية . ولم يتغير أبداً طريقه فى الذهاب من المنزل إلى المدرسة ، وكان يعرف تمام المعرفة الأشخاص الذين سيلتقى بهم عند كل ناصية ، ويعرف الأماكن التى سيضطر فيها إلى التوقف .

فى أيام الصيف وكذلك فى أيام الشتاء ، ما بين لسعة الشمس وقطرات المطر ، كان يلتزم بالتوقف أمام واجهة إحدى المكتبات حيث يتم بها عرض مختلف أنواع الكتب التى لم يكن يفهم تمام الفهم كل عناوينها . ولا ريب أن هذه الواجهة للكتب تركت فى نفسه أثراً بالغاً وإمتد أثرها حينما بلغ من العمر أشده .

وفى السماء حينما كانت تضاء أضواء هذه الواجهة بكتبها كانت تجذب انتباهه وتشد نظره . وحينذاك والأضواء مسلطة بهذا الشكل الرائع على الكتب كان يبدو له أنها أكثر جمالاً وبهجة وأن عناوينها أكثر سحراً وجاذبية ، ومن شدة هيامه بها كان يراها فى أحلامه . وفى كثير من الأحيان ، فيما بعد حينما أصبح شيئاً مذكوراً فى الحياة ، كان يضبط نفسه متلبساً بالوقوف أمام هذه الواجهة القديمة بكتبها العزيزة على نفسه ويطيل النظر إلى عناوينها العجيبة الغامضة وتبهره أغلفتها الرائعة فيظل يحملق فى حب استطلاع وانبهار إلى جميع الكتب المرصوفة فى هذه الواجهة . إلا أنه فى قرارة نفسه كان يشعر بألم مرير يعتربه من أشد الآلام التى حملها بين جنباته كنكرى من تلك الأيام الخوالى ، ذلك لأنها كانت تزيد من إحساسه بالفقر ، أى الافتقار إلى إمكانية الوصول إلى ذلك الذى يتمناه المرء ويشتاق إليه أشد الاشتياق . وخلال مشوار حياته لم يكن الفقر يمثل عبئاً خاصاً فى أعماق نفسه ولكنه آنذاك ولأول مرة أحس به إحساساً عميقاً بكل قلبه وعقله . لقد كان الفقر حاجزاً لا يمكنه تجاوزه يفصل بينه وبين هذه الكتب الحبيبة إلى روحه ، ورويداً رويداً أخذ يدرك الفرق بين معنى الامتلاك من عدمه .

ويبدأ خياله ينشط ويلتهب أمام هذا الحاجز الخيالى ، وفى هذه اللحظة المصيرية شرع فى الكتابة لأول مرة . ولم تكن الكتابة بالقلم أو على الورق ، وإنما داخل نفسه وفى أفكاره وخياله . وذلك لأنه كان يقدم لنفسه تفسيرات وإيضاحات وشروحاً لهذه العناوين العجيبة الغامضة التى كان يحفظها عن ظهر قلب رغم أنه لم يكن يفهم معناها ، وكان يؤلف فى خياله محتويات هذه الكتب . وفى الحقيقة كان يحاول جاهداً أن يثير فى أعماق نفسه سحر وبهاء هذه الحياة التى كان يحياها وتخفى عنه تلك الكتب . وهنا نبعت وتوالت أفكاره الأولى ، وهنا تولدت - ربما فى عظه الباطن - فكرة أن يشتغل بالكتابة . من هنا أيضاً نشأت أقاصيصه الأولى غير المكتوبة ورواياته غير المسجلة .

ومضى به الزمان واختفت هذه الواجهة من مكانها منذ فترة بعيدة ولكنها بالرغم من ذلك تعيش فى ذاكرته ومازال يتذكرها بوضوح ويرى نفسه وهو واقف فى خشوع وإعجاب أمامها . ورغم أنه منذ ذلك الحين وحتى الآن تصفح بيده الكثير من الكتب ومكث مع بعضها أليماً وليالى ، وكثير من هذه الكتب أصبح من أفضل أصدقائه وكتب بعضها منها ، إلا أن هذه الواجهة المكتظة بالكتب المحفورة فى ذاكرته من أيام صباه البعيدة مازالت تعيش بلا انقطاع داخل نفسه وتتبعه أينما كان .

واشتغل ليفو أندريتش فى كنف أمه بقطع الأشجار حتى يلبى احتياجاته ويفى بحاجات أمه بعد وفاة عائل الأسرة ، إلا أنه لم يستمر فى هذا العمل لفترة طويلة نظراً لما تملكه من احساس بالتشاؤم والحزن . وسرعان ما تحسنت أحواله عندما أصبح شاباً وأخذ يسعى وراء العلم وأنهى دراسته الثانوية فى سراييفو ثم واصل سيره الحثيث نحو الحصول على التعليم العالى . وبصعوبة بالغة تمكن من إتمام دراسته فى كليات الآداب بزغرب (بكرواتيا) وفى فيينا (بالنمسا) وفى كراكوف (ببولندا) حيث تخصص فى علوم التاريخ وفى اللغات السلافية . وتوج كفاحه فى مجال التعليم بحصوله على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٢٣ من جامعة جراتس ، وكان موضوع رسالة الدكتوراه « الحياة الفكرية فى البوسنة والهرسك فى عهد الأتراك » .

ومن المؤكد أن الحرب العالمية الأولى من العناصر الحاسمة التى أثرت على شباب ليفو أندريتش إذ أنها أصابته بالكثير من المحن ، إلا أنها أفادته أيضاً فيما إفادة كما اعترف بذلك . اعتبرت المملطات النمساوية المجرية المحتلة أن اتصاله بالشباب المتمرد الثائر يعد استفزازاً لها . وتم فى أحد الأيام القبض عليه . وكان هذا أمراً خطيراً للغاية آنذاك ، فلم يكن حتى ذلك الحين يتم القبض إلا على المجرمين واللصوص . ومن المعلوم من هم الأشخاص الذين يمكن القبض عليهم وأسباب ذلك . وبدا

لايفو أندريتش آنذاك أن مجرد التواجد في السجن ليس إلا نهاية لكل شيء ونهاية الحياة بأسرها . ولم يكن على السجين إلا أن ينتظر فحسب الوقت الذى سيأتى فيه السجناءون لكي يقتادوه إلى غرفة الإعدام .

وحينما وجد نفسه فى الزنزانة لم يفكر إلا فى الموت . وهو لا يزال يتذكر الزنزانة رقم ١١٥ وخوفه الذى لا يوصف . وإقتاده السجنان فى ممر طويل حسب أنه لم ير فى حياته ممرأ أطول منه ، لقد بدا له أنه ممر بلا نهاية . وفجأة توقف السجنان أمام أحد الأبواب وصاح بشيء ما باللغة الألمانية . وصياحه جهورى وكأنه يقف أمام عدد غفير من الناس رغم أنه لم يكن هناك أحد سواه ومضى سجينه ليفو أندريتش . وانفتح باب الزنزانة ودخل ليفو وصفق السجنان الباب وراءه وأصبح وحيداً ليس له من رفيق إلا خوفه الكبير . وفى الزنزانة ومع الوحدة والخوف أخذ ليفو ينظر فجأة إلى يديه ويتأملها ويتعرف عليها . وتأكد فى البداية ، وهو غاية فى التعجب ، أنه لم يكن يعرف جيداً يديه ولا كفيه ولا أصابعه ولا أظافره . وراح يطيل النظر إلى يديه ويسرح بفكره ويشرد ويهيم بذهنه أثناء النظر إلا أن بصره يعود ويحرق ثانية فى اليدين وفى الأصابع . ولم يكن وقتذاك يفكر إلا فى الشمس ويعود ويتساءل عبر الظلام الذى يحيط به فى هذه الزنزانة : هل الشمس موجودة أم لا ؟ .

وكانت فرحته عظيمة فى هذه الحياة المحصورة بين الجدران الأربعة للزنزانة والمحاطة من كل ناحية بالحيرة والخوف حينما وجد نفسه أمام المحقق الذى كان شاباً نمساوياً من أهل مدينة فيينا . وخلال حديث المحقق مع أندريتش ذكر له شيئاً لم يكن بمقدور أندريتش أن يصدقَه فى البداية ، إلا أن هذا الشيء غيّر فيما بعد حياته تغييراً جذرياً . فقد ذكر له بأنه سيسمح له بأن يطلب من بيته بعض الملابس الأكثر دفئاً ويطانية وبعض الكتب . وطلب أندريتش من الرسول الذى سيجمل رسالته أن يجمع له كل الكتب التى يجدها على مكتبه . وبالفعل أرسلت له صاحبة

الممكن بطنانية وشرابات ويضع تفاحات جميلة وحلته الجديدة وكتاباً واحداً .

وتذكر أندريتش أنه في اليوم السابق للقبض عليه رتب غرفته ووضع كل شيء في مكانه لأنه يحب النظام . وهكذا لم يكن موجوداً على مكتبه إلا كتاب واحد هو ذلك الكتاب الوحيد الذي وصل إلى يديه . وبعد حصوله على هذا الكتاب الوحيد الذي وصل إلى يديه . وبعد حصوله على هذا الكتاب الوحيد أحس فجأة بلخفاء خوفه الذي لا يوصف ، وبدلاً له أنه قد أخذ يواصل الحياة من جديد . وكان هذا الكتاب للفيلسوف الدانيماركي « سورين كيركيغارد » والأديب الفرنسي « جيل فيرن » . ومن الطبيعى أن يقرأ أندريتش هذا الكتاب عشرات المرات في سجنه هذا الذي امتدت إقامته به لمدة عام كامل ، ومن المنطقي أنه تأثر به إيماناً تأثير .

وهكذا نرى أن أندريتش قد جابه بكل صبر وشجاعة تلك المحن التي واجهته في شبابه ، وكان يدافع عن نفسه وعن روحه ويحميها من الدمار بالعمل المستمر الدؤوب والقراءة والدراسة واكتساب صنوف المعرفة . وقد سجل أندريتش أحداث هذه الفترة وأهميتها بالنسبة لحياته الأدبية وكتاباته وآرقه في بعض هذه الأحداث في كتابين هما : إكس بونتو (في ١٩١٨) والقلق (في ١٩٢٠) .

و«ديوان» إكس بونتو « نسبة إلى ديوان « رسائل إكس بونتو » للشاعر اللاتيني أوفيد الذي تغنى بها في منفاه بمدينة بونتو على شاطئ البحر الأسود . وقد كتب هذا الديوان في فترة اعتقاله ويتضمن تعبيراً عن آلام النفس والقلق في السجن والوحدة . إنه بالفعل حديث الروح .

والإحساس بالوحدة إحساس مسيطر على أشعار ليفو أندريتش الأولى ولنقرأ منها الأبيات التالية :

إننى لا أعرف إلى أين تذهب أيامى هذه
ولا إلى أين تذهب ليالى هذه
لا أعرف ...

من سيقول لى الليلة : ماذا تعنى بالنسبة لى
الوجوه والأمور وفكرات الأيام الخوالى
والى أين تمضى أيامى هذه ؟
ولماذا يدق قلبى كل هذا النلق ؟
إلى أين ؟ ولماذا ... ؟

وفى ذلك الحين كانت أشعار الأمريكى « والت وايتمان »
(١٨١٩ - ١٨٩٢) تكشف أمام شباب الشعراء الجديد من الموضوعات
ومن العوالم الشعرية ومن لغة الشعر . وفى هذه السنوات كان أندريتش
يقوم بترجمة مؤلفات الأدباء مترنبرج ووايتمان ومؤلفات الشعراء
السلوفينيين . وكان الشعراء يبحثون فى أشعارهم ، كما فعل وايتمان ،
عن مفتاح الكون والمستقبل . إلا أن المستقبل كان يمنح الجيل الشاب أمالاً
مظلمة . وكانت صورة الموت تحوم فى الجو الذى يحمل بين ذراته
تنبؤات عن مأسى بشرية ضخمة . وكان الشاعر الشاب أندريتش ينطوى
على نفسه ويعرب فى أشعاره عن الحالات النفسية الكثيرة المقبضة . وأخذ
هذا الجو الشاعرى الذى يحمل الضباب والتشاؤم والقلق يسيطر على
الأدب باللغة الصربوكرواتية .

والجزء الأول من أشعار ديوان « إكس بونتو » كتبه أندريتش فى
المسجن ، أما الجزأين الثانى والثالث فقد كتبهما بعد إستراده لحريته
النسبية ، أى كانت إقامته محددة ، ومعرض لرقابة السلطات وعدم ثقة
الناس من حوله . « ها أنذا منذ أحد وعشرين يوماً حر ويمفردى

باستمرار .. وبلا انقطاع أتأمل التغير والتفتح ، ومع ذلك لا يمكننى أن أتجنب التفكير فى الناس » .

والوحدة التى كانت تـُورق أندريتش فى السجن تعد محتملة بالنسبة له فى هذه الحرية النسبية . انه يتقبلها كمحنة من محن حياته الشخصية ، ويعبر عن ذلك بقوله : « كل مُأساة حياتى الحالية يمكن حصرها فى كلمة واحدة : الوحدة » . وفى رأيه أن الصمت هو الملجأ من كل الاضطرابات النفسية فيقول : « أنا الذى أعيش بمفردى أستمع هذه الليلة للسكون فوق المزارع . والمحنة التى سلبت منى كل شيء منحتنى هذا السكون حتى يكون حامياً لى فى مواجهة الناس . وفى هذا السكون كل شيء ملكى : إيمانى الذى جرى انقاذه من كل هذه الهزائم ومرورى الوحيد وأملى » . ويقول فى مكان آخر : « أخذت أركز أفكارى وأنا محاصر بعالم غريب عنى ويتملكنى قليل من حسن النية وأحسست أننى وحيد ومهجور ، وحيد تحت السماء الكبيرة اللامبالية خارج كل مجتمع كما كنت أعيش على الدوام ، لا تحمىنى أية امتيازات طبقية ، بلا مهنة وبلا مستقبل وبلا أقارب وبلا أصدقاء يمكن أن يساعدونى . وحيد ومطارد وعليل ، ولكن حسن أننى على هذه الحال .

وفى المجموعتين الثانية والثالثة من هذه الكتابات يتم شفاء أندريتش من فكرة الانتحار التى نشأت تحت تأثير الضربات المؤلمة الناجمة عن حرمانه من الحرية وما زالت روحه الحساسة تمرقها أحاسيسه الداخلية السوداء واضطرابات النفس المؤلمة ، ولكن تعزیه فكرة أن الأرض كلها مسكونة وملئية بالاشكال والمخلوقات وبيذور الحياة ، وأن الحياة أكثر قوة ومقاومة من الموت .

ويمكن القول أن ليفو أندريتش قد برز فى مجال الأدب بثلاث قصائد نشرتها له مجلة « حورية البومنة » ، وهى تتضمن قصائد كلها نبذة

تشاؤمية . فهو لم يكن بعد قد بلغ من العمر عشرين عاماً وما هو يشكو من حياته . إلا أن هذه الشكاية من الحياة كانت خطأ مشتركاً لدى كثير من الشعراء الجدد الموجودين في ذلك الحين وكان يتم أيضاً نشر أشعارهم بنفس المجلة تحت عنوان « من شعر الشباب » . وقد أعيد طبع هذه القصائد ضمن كتاب « الشعر الكرواتي للشباب » في زغرب في عام ١٩١٤ وحوى كذلك قصائد لزملائه من الشعراء الجدد . وتم التقديم لكل شاعر بإعطاء نبذة موجزة عن سيرته وعن أعماله مع رسم صورة كاريكاتيرية للشاعر بهدف تقريب شخصيات الشعراء إلى القراء . وكان هذا التعريف يتم بخفة الروح مع احتوائه على الكثير من الدعابات والطرائف . ومما ذكر في هذه النبذة عن أندريتش أنه شخص عجيب من سكان مدينة سرايفو ، لم يرث عن الأتراك العثمانيين طباعهم ، بياضه رقيق ونفسه تنسم بعبير قائم مؤلم وكأنها أشبه بتلك الأزهار البيضاء التي تتلألأ في حزن ، إنه أشبه بأمير بلا قصور ولا نبلاء ولا أميرات . وهو في الشتاء يتنسم عبير المقاهي وفي الربيع يعالج نفسه من هوائها الفاسد بتنسم الهواء النقي في الرياض الخضراء . وهو بائس مثل جميع الأبناء ، حساس وطموح ، باختصار لديه مستقبل .

وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح أندريتش أديباً مستقلاً ، وقد قضى سنوات حرب التحرير في بلغراد مبتعداً عن كل دعاية . وكانت كل مشاعره وحواسه وآرائه في صف الشعب ونضاله الثوري للتحرري ، وأصبح هذا هو موقفه الثابت . وبانتصار ثورة الشعب وجدت فيه الثورة خير نصير . ويمكن القول بأن الثورة الاشتراكية اليوغسلافية قد أجرت فيه ، كما حدث لغيره من الأبناء ، تحولاً واضحاً في الآراء وفي نظراته للحياة وإلى العالم . ويتجلى تأثير الحرب على أندريتش في قلقه النفسي وفي دقة مشاعره وأحاسيسه وصبره الفطري ، ويظهر ذلك على أحسن صورة في أعماله الشعرية كما بيّنا .

وفى قصته الأولى « طريق على جريز ليند » (فى ١٩٢٠) تظهر ملامح وخصائص أندريتش فى كتابة القصة . ومن خلال بطل القصة ، هو شخصية إسلامية بطولية ، عرض لأروع شخصيات الشعر الملحمي الإسلامى للبوسنة . إنه بطل جسور يخشاه الجميع ولكنه يصبح مثيراً للضحك حينما يريد أن يغزو قلب امرأة . والسؤال الذى يطرحه البطل على نفسه : كيف لا يمكن أن يصل إلى ما يصل إليه كل وغد محتل ؟ . وفى هذه القصة حدد أندريتش أسلوبه الأدبى الثرى ويتمثل فى استلهام الموضوعات والأفكار اللازمة لمؤلفاته من منطقة البوسنة وأهلها وتراثها ، ولكنه كان يبحث فيها عن العناصر البشرية . وعلى هذا فإن بطله البوسنى يرمز إلى الإنسان العالمى فى مواجهته للمشكلة الأبدية وهى المرأة .

ولقد تعددت وتنوعت مؤلفات ليفو أندريتش بحيث غطت على مؤلفات باقى الأدباء . فقد كتب الرواية الطويلة مثل روايات : جسر على نهر درينا ، تاريخ مدينة ترافنيك ، الأئمة ، الفناء الملعون . وكتب القصة القصيرة والطويلة ومن أشهر مجموعاته القصصية : السنة القلقة ، العطش ، امرأة غير موجودة ، العلامات ، الأطفال ، طرق ووجوه ومناطق ، عمر باشا لاتاس ، بيت فى مكان منعزل وغيرها . وقرض الشعر وكتب الشعر المنثور كما فى كتابيه : لكس بونتو والقلق . هذا علاوة على كتابته لمجموعة كبيرة من المقالات والأبحاث فى مجال الأدب .

وكانت لمنطقة البوسنة التى نشأ وترعرع فيها مكانة خاصة فى مؤلفات أندريتش فقد استلهم منها مادة لمعظم رواياته وأقاصيصه ، واستوحى أفكاراً من ماضيها وتراثها الأدبى وأساطيرها القديمة . وذلك لأن منطقة البوسنة وقعت كثيراً تحت وطأة الغزاة الأجانب ويدين سكانها بالأديان الثلاثة ، وتتسم بالعديد من المتناقضات القومية والاقتصادية

والاجتماعية . ومن أجل كل هذا كانت منطقة البوسنة عبر القرون مركزاً للتناقضات والصراعات والحروب والاحتلالات والالام وإرافة الدماء . وكان أندريتش فى أعماله الأدبية هو الكاتب الذى يتعمق فى أغوار الحياة فى البوسنة ويحيط بجميع أشكالها وألوانها . وكان أشبه بالعالم الباحث الذى يدرس ويبحث ويجمع ، بما لديه من نهم وشوق فطير إلى الحقائق ، كل معلومة صادقة عن البوسنة وعن كل ما يرتبط بها . ومن هنا يتهاى للبعض أن صورة البوسنة فى أعماله صورة قاتمة محزنة وأنه يعتمد وضع أبطاله فى مواقف مأساوية صعبة لا لئى إلا لئى يتألموا وكى يسخر القدر منهم على الدوام . ومع ذلك فأندريتش لا يئأس من الحياة بل الحياة فى رأيه تتجدد دوماً وتتولد من جديد قوة صلبة .

ولا شك أن أندريتش أول أديب من منطقة البوسنة يعامل معاملة متكافئة أتباع الأديان الثلاثة بكل عطف وإنسانية وفهم وحب لكل ما هو إنسانى ، فقد ألقى الأضواء بأعماله الأدبية على المسلمين والصرب (وكانت أغلبيتهم حينذاك من الأرثوذكس) والكروات (وغالبيتهم آنذاك من الكاثوليك) واليهود وعلى أتباع الملل الأخرى والطبقات الاجتماعية وعلى أهل بلده وكذلك الأجانب . وصور فى أقاصيصه وروايته الرهبان الكاثوليك وأفراد العصابات والبكوات الأتراك ومعلمى الدين المسلمين والضباط النمساويين والتجار والباشوات والفتيات المسيحيات . وكتب كذلك عن الأثرياء والفقراء بأهوائهم وآلامهم وعن آفاقهم الرحبة وعن عاداتهم وتقاليدهم وأحاديثهم وعن تحركاتهم وتصرفاتهم . وبذلك كانت دائرة الشخصيات ، الأسلمية أو الثانوية ، التى يعالجها أندريتش فى أعماله الأدبية دائرة واسعة يحيط بها ، فى بعض الأحيان ، الغموض بسبب الطابع السائدة بين أفرادها وبسبب ميولهم التشاؤمية . وكانت شخصياته فى أحيان أخرى عظيمة بسبب إنسانيتها ومتوحدة فى بؤسها وفقرها . وأندريتش فى معالجته لهذه الدائرة الكبيرة من الشخصيات

يزيدها طرافة وجاذبية ويقرب بينها وبين القارئ بمهارة وبراعة
بالغتين .

ويمكننا القول بأن أندريتش بأسلوبه المتجدد الموجز ويكلماته الفلسفية العميقة يمثل مرحلة جديدة رفيعة فى تطور الفن الروائى ، وعلى الأخص المكتوب باللغة . نلك لأن أندريتش يختار بدقة كل كلمة وكل عبارة وكأنه ينحت فى الصخر نحتاً يترك أعماق الأثر فى نفس القارئ . ويزن كل جملة ويحذف ما يشوهها ولا يلزمها ولذا فإن معظم أعماله الأدبية ذاخرة بمحتوياتها ومضامينها ؛ وهي كلها مكتوبة بلغة الشعب الفنية الرائعة ويعتبر كل واحد منها عملاً خالداً لا مثيل له . ومؤلفاته ، من ناحية أخرى ، تصل إلى أغوار الفلسفة ، ففيها يعالج الأمور المستترة والكامنة فى أعماق النفس البشرية ويحللها تحليلاً نفسياً ويرسم الجوانب المظلمة من حياة البشر واللحظات الحرجة التى يتعرضون لها ، وبذلك يسلب لب القارئ ويشد أنفاسه ويجذب عقله إلى كتاباته بالقليل الموجز من الكلمات التى أحسن انتقاؤها . هذا بالإضافة إلى أن أندريتش يتمتع بموهبة خارقة على الملاحظة ويعتنى أيضاً بعناية برسم شخصيات رواياته وقصصه بأسلوب يبرز تملكه من اللغة وسيطرته عليها وعلى تعبيراتها .

وقد تحدثنا من قبل عن روايته المشهورة « جسر على نهر درينا »
الصادرة فى عام ١٩٤٥ والنسب إليها النقاد من الروايات العظيمة .

أما رواية « تاريخ مدينة ترافنيك » (فى عام ١٩٤٥) فهى تقتصر على فترة زمنية صغيرة . ويصور أندريتش مدينة ترافنيك الصغيرة على أنها ملتقى لكبرى العواصف الحربية فى أوروبا . ومنذ خريف عام ١٨٠٦ وخلال فترة الغزو النابليوني وحتى ربيع عام ١٨١٤ والقوى الكبرى - فرنسا والنمسا وتركيا - تقوم بتنفيذ سياساتها فى هذه المدينة الصغيرة .

وهنا في هذه المدينة الصغيرة تنعكس ، كما تنعكس في أية مرآة مشوهة ، جميع الهزات السياسية الدولية وتصل أصدائها إلى المدينة البوسنية الغارقة في صراع معقد حول السلطة الحقيقية أو المتصورة . أنه صراع بين الشرق والغرب ، صراع بين عالمين تتباين ثقافتهما وتتعارض مداركهما . وفي الوقت نفسه وقعت الثورة الصربية الأولى وكان صوت هذه الثورة يثير قلق الشرق والغرب معاً . ونرى بجلاء في هذه الرواية ما يمكن تسميته بالإيقاع الدخلى للأحداث وينعكس هذا الإيقاع على العواصف وعلى فترات الهدوء الاجتماعية المتتالية في تتابع شرعى للفوضى وللنظام فتتنوع بذلك مصائر البشر .

وقد أوضحنا أن مدينة ترافنيك كانت هي مركز السيادة والسلطان خلال فترة حكم الأتراك العثمانيين لهذه المناطق . ثم افتتحت أول قنصلية فرنسية وتلتها أول قنصلية نمساوية . ولذا فإنه يطلق على هذه الحقبة فترة « القنصليات » . وقبل وصول هذين القنصلين كانت المدينة تعيش عيشة شرقية محافظة هادئة ، وكانت مهمة وبعيدة عن تأثير الحضارة الأوروبية ولا تقع إلا تحت التأثيرات الشرقية . ولذا فقد كانت هذه المدينة مكاناً برياً غريباً موحشاً بالنسبة لهذين القنصلين الأجبيين .

وفي هذه المدينة وجد أندريتش مادة خصبة لقلمه فأخذ يشرح الأوضاع السائدة بالمدينة آنذاك ويصف بكل دقة وواقعية شخصية الوزراء العثمانيين وموظفيهم . وخصص أندريتش جزءاً من اهتمامه لتصوير شخصية كل من القنصلين الفرنسي والنمساوي . وكان القنصل الفرنسي دافيل نموذجاً عادياً للمثقف الفرنسي الذي جاء إلى إقليم شرقي مظلم فتتصارع في نفسه روح الشرق والغرب . أما القنصل النمساوي فهو مخلص تمام الإخلاص لدولته ويتميز بالنشاط وحسن التصرف وإن كان من الناحية الثقافية لا يرتقى إلى مستوى القنصل الفرنسي .

ويتصاعد الصراع بين هذين القنصلين في هذه المدينة الوداعة ويتخذ

أشكالاً طريفة ، ويتطرق أندريتش بالوصف إلى تدابير القنصلين وإلى الجو الثقيل المرعب الذى اضطر كلاهما إلى العيش فيه ، إنه جو تسوده العزلة والجهل والقسوة المتناهية ، الأمر الذى كان فى بعض الأحيان يقرب من القنصلين بالرغم مما يكنه كل منهما تجاه الآخر من مشاعر للريبة والحذر .

وقصة الأتمة (فى عام ١٩٤٥) تعالج عدة موضوعات فى آن واحد ، فهى تعالج موضوع الفراغ والوحدة فى حياة الإنسان وتعالج رذيلة البخل المعروفة معالجة جديدة أضفى عليها الكثير من العناصر والأبعاد الجديدة والصور الحديثة . ويقوم أندريتش فى هذه القصة بتحليل نفسى لشخصية كلاسيكية وهى شخصية الفتاة « راىكا » البخيلة التى فقدت اسمها الحقيقى وأصبح أفراد المجتمع يسمونها « الأتمة » نظراً لانعزالها عنهم بعد أن أصبحت أسيرة لرنيلتها ولشهوتها فى تكديس الأموال .

وألقي أندريتش الضوء على دوافع هذه العزلة القاسية التى لجأت إليها هذه الفتاة والأسباب التى أدت بها إلى ذلك . فوراء هذه العزلة مأساة عائلية محزنة . لقد رأت فى طفولتها والدها الذى كان يغمرها بحبه وحنانه يقع ضحية للاحتيال والخداع وينهزم فى صراعه المرير مع الحياة شر هزيمة . وشاهدت بعينها العاصفة التى أودت بلا رحمة ولا هوادة بسمعة والدها التاجر وكل ممتلكاته وجعلته يشهر إقلاسه . وطلب منها والدها ، وهو يلفظ أنفاسه على فراش الموت ، أن تكون قاسية تجاه نفسها وتجاه الآخرين وأن تقتل فى نفسها كل الاعتبارات الإنسانية حينما يكون الأمر متعلقاً بالمال . وكانت تفوح من كلمات والدها رائحة الهزيمة والفشل وفقدان الثقة بالبشر أجمعين ، وسرعان ما أصبحت هذه الكلمات هى القائد والموجه للفتاة الصغيرة فى حياتها التى ستمضى تبعاً لتعليمات والدها ولارشاداته وكأنها الوصفة الطبية لعلاج أمراض الحياة . وتعيش

الابنة حياتها وقد تسلطت عليها فكرة الأخذ بثأر والدها وسار في أغوار نفسها الحقد والبغض ، وأخذت تقسو على نفسها وعلى الآخرين وتقتلع من قلبها كل ذرة للإحساس بالرحمة والشفقة وتغطي باللون الأسود كل مسرات الحياة ومباهجها وتكرس جل حياتها لجمع المال واكتنازه .

وشوه البخل وجه هذه الفتاة وجعلها أسيرة له ولمطالبه فهي تنطوى على نفسها تماماً وتغلق قلبها وتعيش في وحدة أشبه بوحدة القبور وتنحزل عن الناس وتبتعد عن كل أطايب الحياة ولذا نذها وتملكها الأتانية وتحقد على كل إنسان . وحتى أمها لم تسلم من قسوتها وسوء معاملتها . ولم يكن هناك إلا شخص واحد يبهجها ويدخل السرور على قلبها ألا وهو خالها الماجن المستهتر الذي لا يشعر بالمسئولية نحو أى شيء ولا يحمل فى قلبه همأ ولا غمأ . إنه الخال فلادو الذى استطاع بطبيعته الساحرة وتصرفاته الطائشة المستهترة أن يلين قلبها المتجمد المتحجر ، فلم تعد تعارضه بل أخذت تجاريه فى طيشه وهى تشعر بسعادة بالغة . وبسبب شدة حبها لهذا الخال مستهتر تماماً وتنهار كل مبادئها بخصوص التوفير والتقدير وذلك لأنها تعرفت على شاب طائش قريب الشبه للغاية من الخال فلادو . واستطاع هذا الشاب أن يصل إلى مفاتيح قلبها وأصبحت ضعيفة أمامه وأمام مطالبه المتزايدة .

وتقل الأحداث فى هذه القصة التى تعد تحليلاً تاريخياً نفسياً لامرأة بخيلة ، وذلك لأن حياة « الأنسة » تمضى بمنأى عن الأحداث الخارجية ولذا فقد انصب اهتمام اندريتش على التحليل النفسى . ولم يتعمق اندريتش فى وصف الشخصيات الأخرى التى تحيط بحياتها سواء فى محيط العائلة أو فى محيط العمل وذلك لأن هذه الشخصيات كالمسحوب سرعان ما تنفصع عن حياة الأنسة ، كذلك يقل الحوار فى هذه القصة نظراً لاتطوآء الأنسة على نفسها ولندرة اتصالها بالعالم الخارجى وإغلاقها قلبها .

وقصته الرابعة « الفناء الملعون » صغيرة في حجمها عظيمة في مضمونها ، فهي تمثل موجزاً للخطوط الحتمية التي تمضي إليها مصائر البشر ، وتمثل صورة لمكان يتجمع فيه المحبوسون والمساجين عن حق أو عن غير حق . ويمتغل أندريتش هذا الموقف لكي يصور مقدار عظمة الناس ويؤسهم في أن واحد . وهذا المصن الموجد في القسطنطينية هو صورة مصغرة لجهنم ، وصورة للعداء الكبير بين البشر ولصداماتهم الأبدية ولخلافاتهم حول السلطة .

وهناك في الفن الروائي لأندريتش لمسة حزن تبرز حتى حينما يريد أن يشجع ويحفز الهم . وتجد في مؤلفاته انطباعات بعثت الجهود البشرية أمام الموت والعدم والتغير الأبدى بالإضافة إلى اللامبالاة العامة للطبيعة والأمور . ويشبهون فنه بفن الأديب نيجوش ، فهو شعبي ويدخله شيء صلب يكاد لا يتحطم مثلما كان ماضي البوسنة عند أندريتش . وتتضح في هذا الفن استنتاجات عن الزوال والشقاء ولكنه مخضب بالإحساس بالصلب بالإنسانية وبالإيمان بضرورة النضال من أجل الإنسان وبالرحمة تجاه الآلهة ومعاناته .

وقد حاولت من خلال تصريحات ليفو أندريتش ولقاءاته الصحفية ومن خلال ما كتبه عن النقاد والباحثين أن أتوصل إلى الأمور والشخصيات التي أثرت تأثيراً حاسماً على تكوينه الأدبي ، فوجدت أن أندريتش لا يعتقد على الإطلاق فيما يسمى بالتأثيرات الحاسمة ، فالإنسان - في رأيه - ينمو ويتطور ويقرأ ويصور ويكتب ويؤلف . وهناك أشياء تشده أكثر من غيرها وهناك أشياء يكرس الإنسان نفسه لها وأشياء يقاومها بوعي أو بلا وعي ، ويبلل أندريتش على فكرته هذه بأنه في بعض الأحيان يستفيد من إحدى الحفلات الموسيقية أكثر من استفادته من النقائه بأديب يحبه ويعجب به . وفي بعض الأحيان يحدث العكس ، فقد يحدث له أن يذهب إلى إحدى الحفلات الموسيقية وهو في منتهى السعادة لأنه

ميسمع للمرة الثانية تلك المقطوعة الموسيقية التي يحبها ويهاها والتي كانت فى وقت من الأوقات تعنى الكثير بالنسبة له ، ثم يعود من الحفلة الموسيقية ويدخله فراغ لينهش أحشائه وقطر يخيم على نفسه . ومن المنطقى أن المقطوعة الموسيقية لم تختلف ولكن حالته النفسية هى التى اختلفت عن سابقتها . وفى المرة الأولى كان منفطحاً وعلى استعداد لقبول وتقبل تأثير من التأثيرات ، وفى المرة الثانية كان متعلقاً بالكتاب المطوى . وربما بالنسبة لتلك الأمور التى أعمل فيها فكره يومها وبالنسبة لما جادت به قريحته فى حينها كانت الحفلة الموسيقية الثانية ، أى تلك التى خيبت ظفه ، هى أهم بكثير من تلك الحفلة الأولى التى ظلت عالقة فى نفسه كالذكرى الطيبة .

ومن خلال كل ما قرأته عن أندريتش يمكننى بالكاد أن أستخلص أن من تلك الأمور الحاسمة التى أثرت على تكوينه الأدبى واتجاهه إلى الكتابة هى تلك الواجهة التى تحدثنا عنها فى البداية بكتبها الكثيرة وبعناوينها الغامضة ، ثم ذلك الكتاب الفلسفى الوحيد الذى انفرد به فى السجن لمدة عام كامل . كما أن أندريتش كان يحب فى شبابه أشعار الشاعر الإيطالى ليوباردى ويفتتن بها ، ولا شك أنه تأثر بها وظهر ذلك فى بعض كتاباته . وتأثر أيضاً بالأدباء والشعراء البولنديين وكذلك الاسكتلنديين أمثال سترندبرج وهامسون وإيسن . وكان حدثاً كبيراً تعرفه على الأدباء الفرنسيين والروس والألمان والانجليز والأسبان . وقرأ عن طريق الترجمات الفرنسية والألمانية شعر قداماء الصينيين وأثر لديه الكثير من الانفعالات بسبب دقته وأفكاره الجيدة لدرجة أنه تولدت لديه رغبة فى رؤية الصين وتحققت له هذه الرغبة فيما بعد .

بهذه الخطوط الرئيسية برز هذا الأديب الذى يعد من مشاهير أدباء البوسنة والهرسك ، وبها سجل مرحلة جديدة متميزة فى تطور الأدب وخلق نظرة واقعية حديثة رفع بها هذا الأدب على طريق تطوره ، وكفاه

فخراً أنه حمل إليه جائزة نوبل للأدب فى عام ١٩٦١ . وكان حصوله على الجائزة نقطة تحول حاسمة على طريق جذب انتباه وأنظار الدوائر الثقافية فى العالم أجمع إلى هذا الأدب النامى المتطور الذى أخذت بشائر نهضته تتضح حتى استوى أدباً يلفت الأنظار ويزخر بمجموعة طيبة متنوعة من الأعمال الأدبية الجيدة التى تتمتع بقدر كبير من الأصالة الأدبية والمقامات الفنية . وكل هذه الخطوط حدث أهميات الصحف العالمية إلى تقرّظ أدبه ولقبوه بتولستوى تشبهاً له بهذا الأديب الروسى .

ولا يتم مطلب الحديث عن أندريتش وأعماله الأدبية دون الإشارة إلى أن مؤلفاته كانت تلقى العديد من الانتقادات إلا أنه كان يتم التعظيم عليها وعدم إيرادها لأسباب سياسية وأدبية وعلى الأخص بعد حصوله على جائزة نوبل للأدب . أما الآن وقد تغيرت الظروف وتفكك الاتحاد اليوغسلافى إلى جمهوريات مستقلة يسودها مناخ سياسى مختلف عن سابقه وبعد أن أخذت الديمقراطية طريقها إلى الانتشار فلم تعد هناك محظورات - على الأقل بالنسبة لأندريتش .

فالنقاد ستويان يانكوفيتش يعيب على أندريتش عدم معالجته للموضوعات الحديثة ، وأنه اتجه إلى الماضى من أجل أن يخلد تنصيب أحد المتمردين الصرب على الخازوق لكى يثير الخوف والرعب من العثمانيين - فهل كانت هناك ضرورة لذلك ؟ وهل هذا مفيد لنا نحن الصرب ؟ وهل رواية أندريتش ستخدم مستقبلنا ؟ أما الأديب جورج يوفانوفيتش فيتهم أندريتش بتحريف وتشويه التاريخ والتلفيق والمبالغة غير اللازمة فاللبوسة التى وصفها أندريتش فى أعماله كانت غير طبيعية وحافلة بالأمراض والبؤس .

وتمت الإشارة فى بعض الانتقادات الأخرى إلى أن أندريتش استغل تفاصيل تنصيب المناضل السورى من أجل الحرية سليمان الحلبي على

الخازوق في عام ١٩١٥ بمعرفة المستعمر الفرنسي كنموذج يحتذى به .
ووصف الحادث بكل تفاصيله المثيرة للفرع والقشعريرة ونسبه إلى
العثمانيين .

ويرى الباحث نيهاد كرشيغلياكوفيتش أنه لا يمكن وصف الروائيتين
« جمر على نهر درينا » و « تاريخ مدينة ترافنيك » بأنهما تاريخيتان
لأنهما لا يعكسان ولو من قريب الصورة الواقعية للأحداث المذكورة
بالروائيتين ، والأكثر من ذلك أن أندريتش في هذين المؤلفين شوه الأمور
المعروفة وكيفها لأهدافه . ويحضن نيهاد ما كتبه أندريتش بأنه تم تشييد
الجمر بالمخرة وذلك لأنه عند إقامة أوقاف خيرية يتحتم دفع الأجر للعمال
الذين قاموا بالعمل . ويشهد على ذلك العديد من المراجع والقصاصد الشعبية
التي خلدت هذا الجمر .

وتذكر صحيفة « آراء بوسنية » أن روايتي « جمر على نهر
درينا » و « تاريخ مدينة ترافنيك » مكتوبتان لأسباب سياسية تعصبية
بهدف نسب القتل الجماعي وقسوة السكان المسلمين إلى عهد الأتراك
العثمانيين ، وبذلك يتم في الوقت نفسه بطريق غير مباشر تبرير جرائم
التشتيك التي جرى ارتكابها خلال الحرب ضد السكان المسلمين في
البوسنة .

وهناك في روايات أندريتش بعض الأمور التي لم يوافق عليها شعب
المسلمين في البوسنة والهرسك ، وعلى الأخص المثقفون منه . وفي هذا
المضمار يتم ذكر أن رسالة الدكتوراه الخاصة بأندريتش لم يتم نشرها
إلا بعد وفاته . وفي هذه الرسالة حاول أندريتش أن يبرهن على التخلف
الأدبي والثقافي للبوسنيين واعتبر ذلك اكتشافاً علمياً وبهذه الروح وبهذا
المضمون كتب رسائله التي حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة
جراتس . وفيما بعد عالج نفس الفكرة في عدد كبير من قصصه ورواياته
التاريخية عن البوسنة وأهلها .

مراجع مختارة

- ١ - مجموعة من المؤلفين ، الإسلام والمسلمون فى البوسنة والهرسك ، سرايفو ١٩٧٧ .
- ٢ - للمؤلف ، العرب والكلمات العربية فى النشر باللغة الصربوكرواتية ، رسالة دكتوراه غير منشورة .
- ٣ - ميلينكو فيليبوفيتش ، العناصر الشرقية فى الحضارة الشعبية للسلاف الجنوبيين ، مجلة الفيلولوجيا الشرقية ، سرايفو ١٩٧٠ .
- ٤ - توفيق موفيتش ، عن الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية ، مجلة الفيلولوجيا الشرقية ، سرايفو ١٩٦١ .
- ٥ - عبد الله شكالييتش ، الألفاظ التركية فى اللغة الصربوكرواتية ، سرايفو ١٩٦٥ .
- ٦ - فهم سباهو ، أرشيف معهد الاستشراق فى سرايفو ، مجلة الفيلولوجيا الشرقية ، سرايفو ١٩٧٥ .
- ٧ - د. أحمد سمبولوفيتش ، فلسفة الاستشراق وأثرها فى الأدب العربى المعاصر ، القاهرة ١٩٨٠ .
- ٨ - محمد بن محمد الخانجى البوسنى ، الجواهر الأمنى فى تراجم علماء وشعراء بوسنة ، القاهرة ١٣٤٩ هجرية .
- ٩ - إسماعيل باليتش ، ثقافة البشاعة الإسلامية ، وين ١٩٧٣ .
- ١٠ - على إسحاقوفيتش ، الجواهر - مختارات من أدب المسلمين ، زغرب ١٩٧٢ .
- ١١ - للمؤلف ، الأدب اليوغسلافى المعاصر ، الكويت ١٩٨٤ .

- ١٢ - رادوفان بويوفيتش ، أقوال عن أندريتش ، بلغراد ١٩٧٦ .
- ١٣ - د. صافت بك باش آجيتش ، البشانقة والهرسكيون في الأدب الإسلامي ، سرايفو ١٩٨٦ .
- ١٤ - محسن رذفيتش ، الإطارات الظاهرية والمميزات الداخلية للأدب الأعجمي ، سرايفو ١٩٧٢ .
- ١٥ - محسن رذفيتش ، الأعمال المختار لأدهم مولى عبديتش ، سرايفو ١٩٧٤ .
- ١٦ - مرجان يانكوفيتش ، النطق العربي ، سرايفو ١٩٨٧ .
- ١٧ - محسن رذفيتش ، الإبداع الأدبي للكتاب المسلمين في البوسنة والهرسك خلال الحكم النمساوي المجرى ، سرايفو ١٩٧٣ .
- ١٨ - النقد عن ميشا سليموفيتش ، سرايفو ١٩٧٣ .
- ١٩ - رادوفان فوتشكوفيتش ، مشاكل وأدباء ومؤلفات ، سرايفو ١٩٨١ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
بطاقة تعارف	١١
نبذة تاريخية وتطور الأحداث	١٣
موقف مصر	٢٧
سرايفو .. سراى البوسنة	٣٧
مسجد السلطان	٤٧
مكتبة الغازى خسرو بك	٥٣
مدرسة الغازى خسرو بك	٦٩
مسجد ألانجا	٧٧
الكتاتيب	٨٣
يوم فى حياة إمام مسجد	٩١
الداعية الإسلامى د. أحمد سماسلو فيتش	٩٩
شهر رمضان	١٠٧
مدينة ترافنيك	١١٣
جسر على نهر درينا	١٢٣
الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية	١٣٣
أول قاموس صربوكرواتى - عربى	١٤٧
دراسة جديدة عن اللغة العربية	١٥٣
الاستشراق	١٦١

الموضوع	الصفحة
الجواهر	١٧٣
ليداعات المسلمين باللغة العربية	١٨٧
الأدب الأعجمي	١٩٩
محمد بك قبطانوفيتش لويوشاك	٢٠٧
عثمان - عزيز (ثنائي أدبي فريد)	٢٢١
الدغل الأخضر	٢٢٧
آيات قرآنية في رواية بومنية	٢٣٣
رحلة إلهامي إلى الموت	٢٤٥
انتحار أديب	٢٥٣
ليفو أندريتش	٢٦٧
مراجع مختارة	٢٨٧

المؤلف فى سطور

- دكتور جمال الدين سيد محمد
- من مواليد القاهرة فى عام ١٩٤٢ .
- تخرج فى كلية الآلنم بجامعة عىن شمس عام ١٩٦٣ (قسم اللغة الصربوكرواتية) .
- حصل على درجة الماجستير (عام ١٩٧٦) والدكتوراه (عام ١٩٧٩) من كلية اللغات بجامعة بلغراد .
- له ترجمات من آداب شعوب الجمهوريات اليوغسلافية السابقة إلى اللغة العربية .
- له ترجمات من الأدب العربى إلى لغات شعوب يوغسلافيا سابقاً .
- من أشهر مؤلفاته : الأدب اليوغسلافى المعاصر ، ومقدونية بين الماضى والحاضر ، ومصر عدم الانحياز .
- نشر عديداً من الأبحاث فى مجال آداب شعوب الجمهوريات اليوغسلافية السابقة والدراسات المقارنة بالعديد من المجالات فى العالم العربى .
- عضو اتحاد كتاب جمهورية مصر العربية .
- يعمل حالياً رئيساً لتحرير « جريدة الجرائد العالمية » بالهيئة العامة للاستعلامات .

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية
مسجلة بدولة الكويت
وجمهورية مصر العربية
وتهدف إلى نشر ما هو
جدير بالنشر من روائع
التراث العربي والثقافة
العربية المعاصرة والتجارب
الابداعية للشباب العربي
من المحيط إلى الخليج وكذا
ترجمة ونشر روائع الثقافات
الأخرى حتى تكون في
متناول أبناء الأمة فهذه
الدار هي حلقة وصل بين
التراث والمعاصرة وبين
كبار المبدعين وشبابهم
وهي نافذة للعرب على
العالم ونافذة للعالم على
الأمة العربية وتلتزم الدار
فيما تنشره بمعايير تضعها
هيئة مستقلة من كبار
المفكرين العرب في
مجالات الإبداع المختلفة .

هيئة المستشارين :

(مدير التحرير)

أ. إبراهيم فريح

د. جابر عصفور

أ. جمال الغيطاني

د. حسن الأبراهيم

(المستشار الفني)

أ. حلمي التولي

د. خليلون النقيب

(العضو المنتدب)

د. سعد الدين إبراهيم

د. سمير سرحان

د. عدنان شهاب الدين

(المستشار القانوني)

د. محمد نور فرحات

أ. يوسف القعيد



• الكتاب الذى يشرف بأن يكون بين أيديكم يضم دراسات وأبحاث تستهدف ببساطة شديدة التعرف بجمهورية البوسنة والهرسك الوليدة عن طريق عرض غاية فى الإيجاز لبعض الجوانب التاريخية والحضارية والدينية واللغوية والثقافية والأدبية .

• وليس المقصود من هذا الكتاب هو الدفاع عن قضية شعب البوسنة والهرسك وحقه فى الحياة الحرة الكريمة كأى شعب آخر على وجه هذه البسيطة ، بغض النظر عن جنسيته أو قوميته أو ديانته .

• وإنما غاية ما يهدف إليه مؤلف هذا الكتاب هو إنقاذ ملف مسلمى البوسنة والهرسك من الضياع فى خضم الأحداث السياسية ، وتسجيل بعض ملامح تلك السمات الإسلامية التى أراد البعض عن عمد محوها . كما يود المؤلف أن يسجل لقطات سريعة لبعض المدن التى جرت تسويتها بالأرض فى هذه البقعة من العالم ، وأن يصور مشاهد لبعض الآثار الإسلامية الثرية .

• وأراد المؤلف أيضاً أن يبرز النسائم الإسلامية التى تتنوع من أعمال أدباء هذه الجمهورية وأن يدعم الهوية الإسلامية للأغلبية من شعب البوسنة والهرسك .



دار سعاد الصلاح

تسليم
١٤٠٠

• الكتاب الذى يشرف بأن يكون بين أيديكم يضم دراسات وأبحاث تستهدف ببساطة شديدة التعريف بجمهورية البوسنة والهرسك الوليدة عن طريق عرض غاية فى الإيجاز لبعض الجوانب التاريخية والحضارية والدينية واللغوية والثقافية والأدبية .

• وليس المقصود من هذا الكتاب هو الدفاع عن قضية شعب البوسنة والهرسك وحقه فى الحياة الحرة الكريمة كأى شعب آخر على وجه هذه البسيطة ، بغض النظر عن جنسيته أو قوميته أو ديانته .

• وإنما غاية ما يهدف إليه مؤلف هذا الكتاب هو إنقاذ ملف مسلمى البوسنة والهرسك من الضياع فى خضم الأحداث السياسية ، وتسجيل بعض ملامح تلك السمات الإسلامية التى أراد البعض عن عمد محوها . كما يود المؤلف أن يسجل لقظات سريعة لبعض المدن التى جرت تسويتها بالأرض فى هذه البقعة من العالم ، وأن يصور مشاهد لبعض الآثار الإسلامية الثرية .

• وأراد المؤلف أيضاً أن يبرز النسائم الإسلامية التى تتنوع من أعمال أدباء هذه الجمهورية وأن يدعم الهوية الإسلامية للأغلبية من شعب البوسنة والهرسك .



دار سعاد الصلاح

تسليم
١٩٩٠